خلق المؤمن

جمع وتحقيق

محمد عبد العاطى سليم

مكتبـة الإيمـان - المنصــورة

ت : ٢٢٥٧٨٨٢

الطبعـة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

قبل المقدمة...

من التراث النبوى

في فضل مكارم الأخلاق

عن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء**» [١].

* * *

عن عبد الله بن عمر أنه سمع النبي ﷺ قال: «**ألا أُخبركم بأحبكم إليّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أحسنكم خُلقاً**» [٢].

* * *

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: يا خليلى، حسن خُلقك ولو مع الكافرين تدخل مدخل الأبرار، وإن كلمتى سبقت لمن حسن خُلقه أن أظله تحت عرشى وأن أسقيه من حظيرة قُدسى وأن أُدنيه من جوارى**» [٣].

* * *

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه.

(٣) رواه الطبرانى، والمنذرى في الترغيب والترهيب.

كلمة فضيلة الشيخ

إسماعيل عبد الحميد برغوث

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين... وبعد.

فقد كان فضيلة المرحوم الشيخ/ عبد العاطى على سليم... عالماً فذاً، واسع العلم، غزير المادة، جميل الأحدوثة، دعا إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وألف كتابه "من أخلاق المؤمنين" عن الأخلاق مبيناً ما لديها من فضل في المجتمع، ذاكراً ما لصاحبها من رضوان الله في الآخرة وقربه من رسول الله ﷺ : «**إن أحبكم إليَّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكفافاً، الذين يألفون ويؤلفون**»... علاوة على الذكر المستطاب له في الدنيا بين الناس...

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ::: فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

دعا فضيلته في هذا الكتاب إلى التمسك بالخُلق الطيب بأسلوب سهل مُيسر يجذب القارئ إلى عودة قراءته مرات عديدة؛ ليتنعم بما شوقه فيه من رضوان الله وما أعده له في جنات النعيم، مستنبطاً ذلك كله من الكتاب والسنة... ولم يترك - رحمه الله - شاردة ولا واردة إلا ذكرها في كتابه، فليحرص كل مسلم على قراءته والعمل بما جاء به.

وأخيراً... رحم الله الشيخ/ عبد العاطى سليم رحمة واسعة، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

إسماعيل عبد الحميد برغوث

من علماء الأزهر الشريف

* * *

كلمة فضيلة الشيخ

مختــار محمـــود جــودة

حقيقة ناصعة

فضيلة الإمام النابه/ محمد عبد العاطى

أرأيت إلى إشراقة الشمس لا ينتفع بنورها إلا إذا عمَّ ضوؤها وانتشر، ثم أرأيت إلى الزهرة الفيحاء لا يفوح عطرها إلا إذا بعد أن يُعبق الهواء بأريجها...

وكذلك ما قدمت عليه من نشر للأخلاقيات الروحية الدينية التى كانت من حديقة وثمار المرحوم والدكم الأستاذ/ عبد العاطى سليم - رحمه الله - التى وحى مطاع من غرس النبى سيدنا محمد ﷺ : **«ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى»**.

إن ما نهجه فضيلته في هذا الكتاب يشد القلوب ويصلح النفوس ويهذبها ويُقوِّم اعوجاجها، فلله دركم ! وإن ذلك سيكون بمشيئة الله نوراً وسراجاً وهاجاً يوقظ الأفئدة من سباتها**{نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ}**.

وهنيئاً لفضيلة والدكم الذى ينعم في جنة الخلد برحيق هذه الهبات النادرة التى نفعت وربت وآتت أُكلها ضعفين... نحمد الله على هذا النبت الطيب من البلد الطيب، بلد العلم والإيمان**{ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}**... دام حبكم للخير على الدوام ودمتم لأخيكم المعترف بفضل الله عليه وعليكم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

مختار محمد جودة

مدير عام بوزارة الأوقاف

كبير أئمة الغربية – سابقاً

* * *

مقدمة الكتاب

الحمد لله العلى الأعلى الذى خلق فسوى، والذى قدر فهدى، والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى... أشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله ﷺ.

وبعد،

فإن الناظر إلى أحوال الناس المتأمل شؤون معاشهم يرى ما يُوجعه ويؤلمه من فساد الضمائر ووهن الذمم، وسوء الخُلق، واستفحال الشر، وكثرة الفساد... وما هذا إلا بسبب تهميش ريادة الدين، وتقليص دور المتدينين، وإهمال جانب التربية، وغياب المُربى المُخلص الناصح.

ومساهمة منا فى إصلاح المجتمع وتصحيح عقيدته وبث الأخلاق والفضائل في نفوس الناس، فإننا نهدى هذا الكتاب إلى من يهمه الأمر؛ ليكون صيحة إنذار توقظ النائمين، وقبس نور يهدى الحائرين، وسوط حق يرد كيد الباطل ويدمغه في وكره.

وموضوع الكتاب "من أخلاق المؤمنين" المستمدة من فيض القرآن وأنوار الرسول الكريم كتبها فضيلة الشيخ الراحل/ عبد العاطى على سليم... الذى عرفه أحبابه وتلامذته مرشداً ناصحاً، وداعية مثقفاً، يعايش الواقع ويحمل هموم المجتمع.

ولقد جمعت هذه الصفحات من تراثه العامر حتى ينتفع بها الناس؛ ولتكون صدقة جارية له في قبره وامتداداً له في عمره، وصدق القائل:

الخط يبقى زماناً بعد كاتبه ::: وصاحب الخط تحت الأرض مدفون

فالعلم الذى يخلفه المرء من بعده يكون سبباً في دوام ذكره وتجديد ذكراه، ومن أجمل ما قيل في حق العلماء قول أحدهم:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ::: على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ::: والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلمٍ تعش به أبداً ::: الناس موتى وأهل العلم أحياء

وأسأل الله أن يتغمده بواسع رحمته وجميل لطفه وعين رعايته، وأن يفتح لنا أبواب التوفيق والرضا والقبول.

والله تعالى نعم المولى ونعم النصير،

محمد عبد العاطى سليم

شعبان ١٤٢٢/ أكتوبر ٢٠٠١

* * *

تمهيـد

التربية الخلقية في الإسلام

من قديم الزمان والعلماء والفلاسفة والمصلحون يتحدثون عن الأخلاق وعن التربية الخلقية. وبعض الفلاسفة والمفكرين يغرقون في تأملاتهم ويذهبون مذاهب شتى لا تمت إلى الواقع بصلة ولا يمكن تحقيقها إلا فى خيالهم فقط. فى عالم المثل والمدينة الفاضلة اللذان قال بهما أفلاطون فيهما كثير من الشطحات والخيالات.

ويعرف ذلك كل من درس فكر هذا الفيلسوف! ولست بصدد الحديث عن ذلك. ولكني أريد أن أتكلم عن التربية الخلقية فى الإسلام. وكيف عالج الإسلام ذلك الجانب الخلقي فنقول: إن التربية الخلقية فى الإسلام تربية مثاليه بمعنى أنها المثل الأعلى لمن ينشد الكمال. وليس هناك زيادة لمن يبتغى المزيد عليها. وهى مع كونها مثاليه فهي أيضا واقعية بمعنى أنه من الممكن تحقيقها لمن أخذ نفسه بتعاليم الإسلام وهدى القرآن.

وأول ما نلاحظه فى التربية الخلقية أن الإسلام يربط الأخلاق أولا بالإيمان والعقيدة التى هي الفيصل بين الكفر والإسلام...

فنجد مثلا الحديث النبوي يقول: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها لا إله إلا الله. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**» ويقول: «**الحياء شعبة من الإيمان**» [١]. ويقول: «**الصبر نصف الإيمان**» [٢]. ويقول: «**لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» [٣]. والإسلام حين يذكر أهله بالعقيدة التى هى أعز شيء عندهم ويربطها بالخلق إنما ينبه الجانب الحساس فى نفوسهم، وليجعل أخلاقهم دائما فى حراسة العقيدة.

ونجد كذلك أن الإسلام يربط الخلق بالعبادة. فجعل من العبادات معامل من للتحليل النفسي ومراكز للتدريب الاجتماعي فنجد مثلا عبادة الصلاة. هذه العبادة التى تتكرر فى اليوم والليلة خمس مرات مفروضات لا يكفى فيها ما ذكره الفقهاء من شروط صحة أو شروط وجوب وابتعاد عن مبطلاتها - أبدا لا يكفى فيها هذا وحسب وإنما الصلاة هي التى تضم إلى جانب هذا الجانب الخلقي الذي يصقل النفس ويطهر الوجدان

---

(١) رواه البخارى.
(٢) الحديث رواه الترمذى.
(٣) رواه البخارى.

قال تعالى:**{إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ}**[١]. فالنتيجة من الصلاة هى أن يكون بين المصلى وبين الشر والفساد حاجز يمنعه. وضمير يضبطه. وعقل يحول بينه وبين ذلك ومن لم تنهه صلاته عن ذلك لم يزدد من الله إلا بعداً. وكم من مصل ليس لـه من صلاته إلا التعب والنصب. وكذلك لا يقتصر فضلها على هذا الجانب السلبي فى البعد عن الفحشاء والمنكر لأنها تخلق فى المسلم جانبا ايجابيا. فالمصلى عطوف على المسكين وابن السبيل. يرحم الأرملة ويعين المصاب يقول الله في الحديث القدسي: «**إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي. ولم يستطل بها على خلقي. ولم يبت مصرا على معصيتي. وقطع نهاره في ذكري. ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب. ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتي استحفظه بملائكتي. وأجعل له في الظلمة نور. وفي الجهالة حلما. ومثله فى خلقي كمثل الفردوس فى الجنة**» [٢] هذه هى الصلاة الحقة. الصلاة المقبولة. الصلاة التى تنفع صاحبها حين يقف وحيداً فريداً بين يدي ربه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. أما هذه الصلاة التى يؤديها الكثير من مسلى اليوم فهي أشبه ما تكون بالميت - فاقد الروح هي حركات فقط. وأعمال فحسب.

والصيام هو يعدل وحده ربع الإيمان كما قال رسول الله: «**الصوم نصف الصبر**». وقال عن الصبر: «**الصبر نصف الإيمان**» هذه العبادة التى هي سر بين العبد وربه لا يكفى فيها ما ذكر من شروط صحة ووجوب فقط. فإن الصوم لـه صورتان: الصورة الأولى: هي صورة الكف عن الطعام والشراب والشهوة من طلوع الفجر حتى غروب الشمس الصورة الثانية: هي كف الجوارح عن الآثام. والصورة الثانية هذه هى لباب الصوم وروحه. فالصائم لا يرفث ولا يفسق ولا يصخب. وإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إنى صائم إنى صائم. والصائم كذلك لا يغتاب ولا ينم ولا يكذب لأن ذلك يبطل صومه بمعنى فقد الثواب وضياع الأجر... [٣].

قال رسول الله ﷺ: «**خمس يفطرن الصائم: الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظر بشهوة**» وبذلك يعلم أنه ليس الإفطار فقط بالمفطرات الحسية وليس كل من كف عنها صائم. يقول الإمام الغزالى فى كتابه الفذ (إحياء علوم الدين): (وكم من صائم مفطر وكم من مفطر صائم). فالمفطر هو الذى يحفظ جوارحه من الآثام ويأكل ويشرب. والصائم المفطر هو الذى يجوع ويعطش لكنه يطلق العنان لنفسه تعربد وتفسق وتزيغ وتنحرف.

---

(١) سورة العنكبوت. الآية رقم (٤٥).

(٢) رواه البزار من حديث ابن عباس. وسنده ضعيف ولكنه صحيح من جهة المعنى.

(٣) جاء هذا المعنى فى حديث صحيح رواه البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله قال: (الصيام جنة. فلا يرفث ولا يجهل. وإن امريء قاتل أو شاتمه فليقل: إنى صائم مرتين).

والزكاة وهى المظهر الأصيل من مظاهر التعاون الإسلامى والتآخى بين المسلمين. هذه العبادة بوتقة تصان فيها الغرائز المادية. فجنى المال وجمعه وعدم إنفاقه غريزة. لكن التربية الخلقية تخلق من هذه الغريزة الجشعة غريزة أخرى تتسامى عن ذلك وتجعل المال فى خدمة المجموع. والمزكى حين يخرج صدقته لا يعتبر هذا تفضلاً منه على الفقير بل يعتبر هذا حقاً له وديناً عليه امتثالاً لقوله تعالى:**{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}**(١) وهو لا يمتن على من أخذ الصدقة لأن القرآن يقول**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى}** (٢) وعلى هذا تقاس جميع العبادات. فالغاية من التربية الخلقية فى الإسلام أن تتهذب النفس الإسلامية وتتكامل لتستطيع القيام بواجبها نحو الله ونحو بنى جنسها. وأن تتطهر المشاعر الوجدانية وتسموا وتحلق فى رحاب الله حيث تشرق عليها الأنوار القدسية السرمدية. وأن تخلق لدى الفرد المسلم رقابة داخلية لا تستمد سلطانها من أمر خارجى وإنما تقيم فى نفس المسلم محكمة عادلة تراقب أدق المراقبة. وتحاسب أعسر حساب. ثم تحكم أعدل حكم. وتنفذ - دون تدخل شرطة أو قانون - أضمن تنفيذ.

التربية الخلقية فى الإسلام لا تكتفى بأن تلقن المسلم الفضائل فيحفظها ويرددها. ولكن تعنى أولاً قبل كل شىء بأن تتحول هذه الفضائل إلى أعمال. فالصدق مثلاً ليس نظرية تلقن وإنما هو عادة يجب أن ينطبع بها الذهن ويمرن عليها اللسان وتستقر فى اللاشعور. فإذا كان المرء من طبيعته أن يأكل ويشرب وينام ويستيقظ. فإن التربية الخلقية فى الإسلام تجعل الفضائل عادات وطبائع كعادات الأكل والشرب وطبيعة الحركة والسكون.

إن التربية الخلقية فى الإسلام تحرر الإنسان من أدران المادة الصماء وجحودها إلى طهر الإنسانية وجمالها. هذه هى الغاية من التربية الخلقية فى الإسلام... تهذيب للنفس، وتطهير للوجدان، وارتقاء بالمشاعر نحو مدارج الجمال والكمال والله أعلى وأعلم.

عبد العاطى على سليم

* * * * *

---

(١) سورة المعارج. الآيتان رقم: (٢٤، ٢٥).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم: (٢٦٤).

من أخـلاق المؤمنيـن:

المراقبـة

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

المراقبـــة

المؤمن الحق يعيش فى مراقبة دائمة لله تعالى... حركات وسكناته. أقواله وأفعاله... كل ذلك يؤديه مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى مطلع ورقيب لا تغيب عنه طرفة عين ولا أدنى من ذلك ولا أكبر. إذا نظر إلى ما لا يحل له أن ينظر إليه ناداه منادى المراقبة: حسبك! فإن هناك عيناً علوية سماوية ترقبك من فوق سبع سماوات... فيغض بصره. وإذا تحركت شفتاه ونطق بكلمة ما ناداه هذا المنادى: إن السميع البصير يسمع دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء... وهكذا.

فالمراقبة تخلق فى أعماق المسلم محكمة عادلة قاضيها وحاجبها وشرطيها هذه الصفة الكريمة: " صفة المراقبة " التى لا تعرف المهادنة ولا المجاملة. وإنما تعرف الحق فلا تحيد عنه. وتدرك جيداً أن المرء داخله وخارجه كتاب مفتوح لا يخفى على الله منه شىء. يقول تعالى:**{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}**(١).

هب أنك دخلت محلاً عاماً. وقبل ذلك قيل لك: إن فى زوايا هذا المحل عدسات خفية تصور كل حركاتك وسكناتك. فأنت بكل تأكيد تمشى بحذر وتلمس المعروضات بحذر خشية أن يساء فهمك وتتهم زوراً وبهتاناً بأشياء لا تليق بك. وذلك بعكس ما لو دخلت محلاً عادياً فإنك تتصرف فيه بنوع من الحرية أكثرمما لو كنت فى المحل الأول ولو لم تحدثك نفسك بأنك سوف تأخذ شيئاً.

مثال ثان: أنت تقود سيارتك على إحدى الطرق السريعة. وتقرأ لافتة تقول " الطريق مراقب بالرادار ". فأنت بكل تأكيد سوف تلتزم بهذه السرعة المقررة ولا تتخطاها خشية المخالفة التى توقعك فى المحظور وتعرضك لغرامة مالية وسحب التراخيص التى تحملها. بل ربما قللت السرعة إلى أقل مما هو مكتوب لتكون فى أمان أكثر.

هذان المثالان يقربان لك معنى المراقبة التى تجعلك بعيداً عن معاصى الله حتى لا يسجل عليك الحفظة الكرام الكاتبون ما يشينك ويدينك فى يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. قال تعالى:**{كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا**

---

(١) سورة المجادلة. الآية رقم (٧).

تَفْعَلُونَ}[١] وقال عز من قائل:**{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}**[٢].

فـى غيبـة هذا الشـعور... شـعور المراقبـة يقـع الإنسـان فريسـة سـهلة فـى مخالـب الشـيطان. وبراثن النفس الأمارة بالسوء وشهوات الدنيا وتقلبات الهوى:

إنـــــى بليـــــت بـــــأربع ترمينـــــى ::: بالنبـــل قـــد نصـــبت علـــىَّ شـــراكا
بـــإبليس والـــدنيا ونفســـى والهـــوى ::: أيـــــن أرجـــــو بيـــــنهم فكاكـــــا
يـــارب ســـاعدنى بفضـــلك إننـــــى ::: أصـــبحت لا أرجـــو لهـــن ســـواكا

(١) سورة الانفطار. الآيات أرقام: (٩، ١٠، ١١، ١٢).
(٢) سورة ق. الآية رقم: (١٨).

نماذج من المراقبين لله

النموذج الأول: خلا رجل بامرأة وقال لها: نحن هنا فى هذا المكان لا يرانا إلا الكواكب. فقالت لـه: يا عجباً وأين رب الكواكب؟ **!** وتولت عنه وهى تقول:

إذا مـا خلـوت الـدهر يومـاً فـلا تقـل	:::	**خلـــوت ولكـــن قـــل علـــى رقيـــب**
ولا تحســـــبن الله يغفـــــل ساعـــــة	:::	**وأن مـــــا تخفيـــــه عنـــــه يغيـــــب**
ألـــم تـــر أن اليـــوم أســـرع ذاهـــب	:::	**وإن غـــــداً للنـــــاظرين قـــــريب**

النموذج الثانى: ويوسف عليه السلام. ما الذى منعه من اقتراف الفاحشة وجميع الظروف المحيطة به تدفعه دفعاً إليها؟ لولا مراقبة الله عز وجل. ومن ذلك:

١ - أنه مطلوب وليس بطالب. ثم من التى تطلبه؟ إنها سيدة القصر**!** **!** وقد صرفت الخدم. وأغلقت الأبواب. وزوجها العزيز فى عمله يصرف أمور الدولة وما أكثر مشاغله.

٢ - وهو شاب مكتمل الرجولة والفحولة وللشباب جنونه وفتونه.

٣ - هو غريب عن البلد لا يوجد من أقاربه ولا من معارفه ما يستحى منهم.

٥ - وهو معدود فى عداد الخدم فلا يخاف أن تهتز صورته إن انكشف أمره.

فالذى منعه من اقتراف الفاحشة إنما هو استشعاره رقابة ربه**{إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}** (١).

ولما كان من عباد الله المخلصين لم يفلح الشيطان فى إغوائه وإغرائه. فإن الشيطان - عليه اللعنة - قد اعترف أمام الله وأمام الملائكة المقربين وأمام آدم وحواء عليهما السلام أنه عاجز أمام المخلصين. فقال**{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}** (٢). إن رقابة يوسف له عز وجل كانت طوق النجاة الذى وصل به إلى شاطىء الأمان ومرفأ السلام من مستنقع الذنوب والآثام.

النموذج الثالث: كان أستاذ يفضل تلميذه الصغير على بعض تلاميذه الكبار. فكلموه فى ذلك فقال: سأريكم فضله**!** ثم جمع تلاميذه كلهم وأعطى كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال لهم:

---

(١) سورة يوسف. الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).
(٢) سورة ص. الآيتان رقم (٨٢، ٨٣).

ليذبح كل منكم الطائر الذى معه فى مكان لايراه فيه أحد. وعادوا وكل منهم قد ذبح الطائر فمنهم من دخل حجرة وأغلق بابها وذبح طائره، ومنهم من ذهب بعيداً عن العمران وذبح طائره، لكن التلميذ الصغير عاد بالطائر غير مذبوح. ولما سأله الأستاذ لماذا لم تذبح طائرك؟ قال: لم أجد مكاناً أكون فيه وحدى بل كان الله معى فى كل مكان. فقال الأستاذ: هل عرفتم بماذا فضلكم؟

إن الصالحين يعلمون علم اليقين أنهم فى معية الله عز وجل. وشعارهم فى ذلك (إذا أردت أن تعصى مولاك. فاذهب إلى مكان لا يراك فيه) وأين هذا المكان الذى يغيب عن الله؟!! إنه لا وجود له... وهم يعلمون علم اليقين أيضاً أن المعاصى إذا كان يؤمن أن الله لا يراه فقد كفر برب عظيم. وإذا كان يؤمن أن الله يراه فقد استهان برب عظيم وهما أمران أحلاهما مر أن يكفر الإنسان بربه أو أن يستهين به ونعوذ بالله العظيم من ذلك. جاء فى الحديث القدسى: **«يا ابن آدم... إن وجدتنى وجدت الخير كله. وإن فتنى فتك وفاتك الخير كله»**.

النموذج الرابع: يروى أن عمر بن الخطاب كان منحدراً من الجبل فرأى راعياً يسوق غنيمات أمامه. فقال له: بنى شاة من هذه الأغنام. فقال الراعى ياسيدى.. إن الغنم ليست لى وإنما أنا مؤتمن. فقال عمر وهو يختبره: قل لسيدك أكلها الذئب. فقال كيف أقول ذلك وأين الله؟ وأين الله؟ فتولى عمر وهو يبكى وذهب إلى سيده واشتراه وأعتقه. وقال له: أعتقتك هذه الكلمة فى الدنيا. وأرجو أن تعتقك من النار يوم القيامة.

درجات المراقبـة

والمراقبة على درجتين: درجة المقربين ودرجة أصحاب اليمين... فأما درجة المقربين فهى بأن يستولى جل جلاله وعظمته على قلوبهم فلا يرون غيره ولا يحسون سواه. وربما كان إلى جوارهم من يكلمهم فلا يسمعون صوته ولا يرون شخصه. ولا يستغربن أحد ذلك فالواحد منا قد تسيطر عليه فكرة ما وتملأ بؤرة شعوره. وقد يكون جالسا مع امرأته وأبنائه وهم يخوضون فى شؤون الحديث. فإذا سألوه رأيه لم يستطع أن يقول شيئاً لأنه كان حاضراً غائباً! ! حاضراً بجسده غائباً بعقله وفكره. قال عز من قائل:**{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}** [(١)].

زعموا أن قيساً [(٢)] ذهب إلى بيت ليلى ليأخذ ناراً. ولما قربت لـه الموقد أخذ النار بيده ولم يحس بحرها. فإذا بلغ الاستغراق إلى هذا الحد فكيف لو أنه أحب الخالق عز وجل. ولما ذكر رسول الله ﷺ أن الناس يحشرون يوم القيامة حفاة عراة. قالت إحدى نساؤه رضوان الله عليهم ينظر الرجل إلى المرأة وتنظر المرأة إلى الرجل؟ ! فقال ﷺ لها: **«لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه»**[(٣)]. ويوم الزلزلة تعترى الناس حال كتلك الحال. قال تعالى**{يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}** [(٤)].

ولعل التعبير بكلمة " مرضعة" يوحى بمدى شدة الذهول وهول الرعب الذى يملأ بؤرة الشعور. ذلك أن اللغة تفرق بين الصفة التى للرجل وتشترك معه فيها المرأة بالتاء... فنقول للرجل " قائم" وللمرأة " قائمة". وهو " شاعر" وهى " شاعرة " ولكن إذا كانت الصفة خاصة بالمرأة وحدها فإنها تستخدم بدون التاء فنقول " امرأة حامل " بدون تاء بمعنى أن فى بطنها جنيناً ذلك أن الرجل لا يحمل ونقول: هى " مرضع" بمعنى أن لها طفلاً ترضعه لأن الرجل ليس من شأنه الإرضاع ولكنا نقول هى " مرضعة " فى حالة ما إذا كان ابنها يرضع فعلاً ويمص ثديها. والأم فى هذا الوقت تكون أكثر حناناً وحبا لابنها: فإذا سمعت الزلزلة فإنها تذهل عن رضيعها. ومن ادعى أن لـه قلبين فهو كذاب.

يروى أن رجلاً اسمه جميل بن معمر الفهرى كان يقول: لى قلبان أعقل بهما أفضل من

---

(١) سورة الأحزاب. الآية رقم (٤).
(٢) هو قيس بن الملوح ـ الشاعر المعروف، وكان يحب ابنة عمه ليلى ولـه فى غزله أشعار كثيرة.
(٣) الحديث رواه الطبرانى. ورواته ثقات والقائلة هى السيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها.
(٤) سورة الحج. آية رقم (٢).

عقل محمد. فلما هزم المشركون يوم بدر [١] ومعهم جميل هذا. فرآه أبو سفيان وهو معلق إحدى نعليه فى يده والأخرى فى رجله. فقال لـه أبو سفيان: ما حال الناس؟. قال انهزموا. قال: فما بال إحدى نعليك فى يدك والأخرى فى رجلك؟ ! ! قال: ما شعرت إلا أنهما فى رجلى. فعرفوا يومئذ أنه لو كان لـه قلبان لما نسى نعله يده[٢]...

وروى عن نبى الله يحيى عليه السلام أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على الأرض. فقيل لـه: لم فعلت ذلك فقال: ما ظننتها إلا جدارا... هذه هى درجة مراقبة المقربين المراقبين لله تعالى يستولى على قلبه جلال الله وعظمته فلا يحس شيئا.

أما درجة أصحاب اليمين وهى أقل من الدرجة الأولى - فإنها تتمثل فى أن يغلب - لا أن يسيطر - على القلب استحضار عظمة الله ولكنهم يقفون على أعتاب الدرجة الأولى ويضرب الإمام الغزالى فى كتابه(إحياء علوم الدين) مثالا للتفرقة بين الدرجتين فيقول: لو أنك كنت جالسا وحدك ودخل عليك الملك فجأة إن جلال الموقف يجعلك تدهش وتحار كيف تتصرف. وهذا بعكس ما لو دخل عليك ابنك فأنت تصلح من هيئتك وتعدل ثوبك أحيانا... الدرجة الأولى سببها الجلال والثانية سببها الحياء.

إن المراقب لله قبل أن يقدم على أى عمل يسأل نفسه: لماذا أقدم على هذا العمل؟ وهل هو لله أم لغيره؟ وهل هو على وفق ما أمر الله به وسنة رسوله ﷺ أم غير ذلك؟... ويروى أن العبد ينشر لـه ثلاثة دواوين: الديوان الأول لم؟ والديوان الثانى كيف؟ والديوان الثالث لمن؟... ومعنى لم؟ لم فعلت هذا؟ وهل فعلته إرضاءً لله أم إرضاءً للناس؟... ومعنى كيف؟ أفعلته عن علم واقتداء بسنة الرسول ﷺ أم فعلته عن جهل ولم تبالِ به لأنك فعلت كما يفعل الناس ولم تدر أكنت على خطأ أم على صواب؟... ومعنى لمن؟ هل جعلت عملك لله وحده أم أردت بذلك الناس؟ فأما الذى يراقب الله فهو الذى يجعل عمله خالصا لوجه الله تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا[٣] وهو الذى لا يجده الله حيث نهاه. ولا يفتقده حيث أمره. ومن ثم يجزل لـه ربه عطاءه - جنات تجرى من تحتها الأنهار فيها مالا عين

---

(١) وقعت غزوة بدر ليلة الجمعة الموافق السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة. وقد وصف القرآن يوم بدر بيوم الفرقان. قال تعالى:{إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} سورة الأنفال. الآية رقم (٤١).

(٢) تفسير القرطبى. صفحة (٥١٩٨). طبعة كتاب الشعب.

(٣) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

رأت. ولا أذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر - قال تعالى فى الحديث القدسى: **«أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت. ولا إذن سمعت. ولا خطر على قلب بشر ثم قرأ رسول الله** ﷺ:**{تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ...}** إلى قوله تعالى:**{جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[١].. وهذا الجزاء الجزيل لأنه قام بمقتضى كلمة التوحيد: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأما الذين لا يراقبون الله ويقعون فى المعاصى ويراءون الناس بأعمالهم. فأعمالهم مردودة عليهم واستوجبوا مقت الله. ويقول الله لهم - ما معناه - يا عبدى.. أكلت رزقى. وترفهت بنعمتى. ثم عملت لغيرى. أما سمعت قول الله تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوَهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}**[٢] وقال عز وجل:**{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}**[٣].

اعلم - أخى المسلم - أن الحساب عسير وأنه على مثاقيل الظهر**{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}**... [٤] وكل شىء مكتوب. وسوف يتعجب المجرمون من دقة التسجيل ويقولون:**{مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا}**[٥]. ولقد قال النبى: **«إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بإصبعيه. وعن لمسه ثوب أخيه»** ولدقة المراقبين لله فى أعمالهم وجعلها خالصة لوجه الله تعالى كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق نظر وتثبت. فإن كان لله أمضاه. وإن كان لغير الله منعه إلى أن يحرر النية ويجعلها له عز وجل. فالمؤمن وقاف متأن يقف عند همه وليس كحاطب ليل.

---

(١) حديث صحيح من حديث سهل بن سعد الساعدى - تفسير القرطبى. صفحة رقم (٥١٨٦). طبعة كتاب الشعب.

(٢) سورة الأعراف. آية رقم (١٩٤).

(٣) سورة الحج. الآيتان رقم (٧٣، ٧٤).

(٤) سورة الزلزلة. آية رقم (٨).

(٥) سورة الكهف. الآية رقم (٤٩).

المراقبة والعلم

وهذا يستدعى العلم ليكون المسلم على بصيرة من عمله. ولعل هذا يفسر قول رسول الله ﷺ: **«طلب العلم فريضة على كل مسلم»** [١] والعلم فى هذا الحديث هو العلم الذى تصح به العبادة وتحرر به النية لابد أن يعلم المسلم متى تكون عبادته سليمة ومتى تكون فاسدة. وأن يعلم أين الحلال فيطلبه وأين الحرام فيتجنبه. ومن هنا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وركعتان من عالم عامل خير من ألف ركعة من عابد غير عالم.: **«ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين»** [٢].

يحكي أن عابدا كان يتعبد في صومعته. فظهر له فأر وصار يقفز هنا وهناك حول العابد فقتله. فوسوس له الشيطان بأنه قتل نفسا وسفك دما. وماذا عليه لو أنه فتح له باب وأخرجه من الصومعة. وحار العابد كيف يكفر عن هذه الخطيئة؟ ! ! فوسوس إليه الشيطان قال: اجعل هذا الفأر في قطعة قماش وعلقه في رقبتك وصل به. وفعل العابد ذلك وصلي. وبهذا بطلت صلاته لأنه صلي وهو حامل للنجاسة. ولو أنه كان عالما لما وقع في وسوسة الشيطان.

وعلى المسلم الذي يطلب العلم أن يأخذ علمه من عالم عامل لأن هذا العلم دين. فانظروا عمن تأخذون دينكم. وأخوف ما يخافه الرسول ﷺ كل منافق عليم اللسان[٣] ولقد أوحي الله إلى داود عليه السلام لا تسأل عني عالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي. أولئك قطاع الطريق على عبادي)... نعم إن الذين يفتون بغير علم ولا خوف من الله هم قطاع طريق لوصول إلى الله سبحانه وتعالي ولقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات. والعقل الكامل عند ورود الشهوات»**. قال الإمام علي:. الهوى شريك العمى. ومن التوفيق التوقف عند الحيرة) [٤].

---

(١) حديث شريف رواه ابن ماجه من حديث أنس بن مالك.

(٢) حديث شريف رواه البخارى من حديث معاوية بن أبى سفيان.

(٣) جاء هذا المعنى فى الحديث الذى رواه الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله: (يخرج فى آخر الزمان رجال يختاون الدنيا بالدين. يلبسون للناس جلود الضأن من اللين. ألسنتهم أحلى من السكر. وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله أبىّ يفترون؟ أم على يجترئون؟ فبى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران.

(٤) إحياء علوم الدين. الجزء رقم (٤). صفحة رقم (٣٤٣).

المراقبة وحساب النفس

يروى أن عبد الله بن قيس قال: شهدت بعض الغزوات. فسمعت رجلا يخاطب نفسه ويقول لها: أهلك ومال وعيالك. فرجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لى: أهلك ومالك وعيالك فاطعتك ورجعت؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك. قال عبد الله فعزمت على متابعة الرجل فجعل يقاتل ولا يفر وما زال كذلك حتى لقى الشهادة فى سبيل الله. وأقبل عبد الله على الشهيد فوجد بجسده أكثر من ستين طعنة... أرأيت كيف يحاسب المراقب لله نفسه. وكيف أن هذا الشهيد حاسب نفسه فذكرها بمواقفه وموافقته لنفسه قبل ذلك.

أما اليوم فقد ثبت فى المعركة ولم يفر حتى لقى الشهادة فحاز سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

وعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء[١] وجعل يقول لنفسه: ذوقى ونار جهنم أشد حرا، أجيفة بالليل[٢] بطالة بالنهار؟ فبينما هو كذلك إذ أبصر النبى ﷺ فى ظل شجرة فأتاه فقال: غلبتنى نفسى. فقال لـه النبى ﷺ: **«ألم يكن لك بد من الذى صنعت؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء وباهى الله بك الملائكة»**. ثم قال النبى ﷺ لأصحابه: **«تزودوا من أخيكم»**. فجعل الرجل يقول: يافلان: ادعوا الله لى يا فلان... ادعوا الله لى. فقال النبى ﷺ: **«ادعوا لهم»**. فقال اللهم اجعل التقوى زادهم. واجمع الهدى على أمرهم. وجعل النبى ﷺ يقول اللهم سدده. فقال الرجل: واجعل الجنة مآبهم [٣]... هذه أمثلة لأناس راقبوا الله فحسبوا أنفسهم ففازوا وربحوا.

تعالوا نقترح طريقة عملية لمحاسبة النفس... فنقول لو أن إنسان كان صادقا مع نفسه. ووضع حجرا فى بيته كلما أذنب ذنبا. فحجرا يضعه لنظرة محرمة. وحجرا لكلمة غيبة. وثالثا لأنه سخر من أخيه المسلم واستمر على ذلك أسبوعا واحدا فقط ترى كم يكون عدد الأحجار؟ لاشك أنها تزحم بيته وربما لم يجد مكانا لجلوسه أو لنومه! ! فكيف بمن عاش وهو مكلف ستين سنة؟ إن هذا مجرد تصور فقط. وهو تصور يصيب الرأس بالدوار والصداع. سوف يأتى العصاة يوم القيامة بأهرامات وتلال من المعاصى[٤] نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) الرمضاء هى الرمال الملتهبة من شدة حرارة الشمس.

(٢) يعنى أنه لا يقوم الليل ويكسل عن الطاعة بالنهار.

(٣) الرياض اليانعة، صفحة رقم (٢٨) - ونقلاً عن أبى الدنيا.

(٤) ذكر القرآن الكريم هذا المعنى في قولـه تعالى:**{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ القِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** سورة العنكبوت، الآية رقم (١٣).

ويذكر صاحب كتاب " إحياء علوم الدين " [١] أن رجلا حاسب نفسه. وافترض أنه يعمل كل يوم ذنب واحدا وكان قد عاش ستين سنة مكلفا. وهاله هذا الكم من الذنوب فشهق شهقة خرجت معها روحه. فسمع الحاضرون قائلا يقول: يا لكى من رقدة إلى الفردوس الأعلى.

إن المراقب لله يحاسب نفسه كما يحاسب شريكه فى تجارته. وإذا كان الشريك يحاسب شريكه على رأس ماله وعلى مدى الربح أو الخسارة. فعلى المراقب لله أن يحاسب نفسه كذلك. ورأس المال هو الفرائض التى فرضت عليه والربح هو النوافل. والخسارة هى المعاصى. فإذا سلم المسلم رأس ماله - أى الفرائض - فهو من الناجين إن شاء الله. وعليه أن يحمد الله على ذلك. فإن تبقى بعضها فعليه أن يأتى به فدين الله أحق بالوفاء. وإن كان فى أدائها قصور ما فليكثر من النوافل لتجبر هذا الخلل. وإن اشتغل بمعصية الله فعليه أن يبادر التوبة فالتائب من الذنب. كمن لا ذنب له [٢].

قال حاتم الأصم اخترت أن أعرف أربعة أشياء لا أبالى بعدها إن جهلت:

الأولى: علمت أن دين الله تعالى لا يقوم به غيرى فأنا مشغول به [٣].

الثانية: علمت أن رزقى يقوم لى وحدى لا يزيد ولا ينقص فاطمئن قلبى[٤].

الثالثة: علمت أن الموت يطلبنى ولا مفر منه. فاستعددت له [٥].

الرابعة: علمت أن الله مطلع على. فلذلك استحييت أن أعصيه[٦].

نسأل الله أن يجعلنا من الذين يراقبون ربهم ويحاسبون أنفسهم.

* * * * *

---

(١) هو الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى، ولد بطوس سنة ٤٥٠ وتوفى سنة ٥٠٥، من أهم مؤلفاته: البسيط - الوسيط - الأسماء الحسنى - منهاج العابدين... وغير ذلك الكثير والكثير.

(٢) حديث شريف رواه الطبرانى وابن ماجة من حديث عبدالله بن مسعود.

(٣) قال تعالى:{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} سورة المدثر. الآية رقم (٣٨).

(٤) قال تعالى:{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ} سورة الذاريات الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).

(٥) قال تعالى:{إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} سورة الجمعة. الآية رقم (٨).

(٦) قال تعالى:{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} سورة طه. الآية رقم (٤٦).

مـــن أخــلاق المؤمنيــن:

الصبـــــر

الصــبر

من الأخلاق التي يجب إن يتحلى بها المسلم خلق الصبر. فبهذا الخلق الكريم تؤدى العبادات. وتنجز الاعمال. ويتميز الصابر عن غيره سلوكا وعملا. ويكتب له الفوز فى الدنيا والآخرة.. والعبادات تحتاج فى أدائها الى صبر يجعل المسلم يستهين بما يقابله فى أدائها من مشاق؛ لأنه ينظر الى ما أعده الله للصابرين من أجرٍ لا يعلم مقداره إلا الله**{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ}**(١).

فالجهاد وهو ذروة سنام الإسلام. لا بد له من الصبر. قال تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}**(٢) وقال عز من قائل فى نفس السورة:**{فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** (٣) والآيات التي تحث على الصبر فى الجهاد مبثوثة في ثنايا القران الكريم.

والصوم نصف الصبر كما ذكر رسول الله ﷺ حيث قال: **«الصوم نصف الصبر»**. فالصائم الذي يجوع والطعام بين يديه. ويظمأ والشراب أمام عينيه لو لم يكن صابرا لأفطر.. وقس على ذلك الزكاة والحج. فالمسلم فى حاجة الى خلق الصبر لتتم عبادته، وليكون أهلا لأن يثاب عليها ثوابا هو خير وأبقى -**{مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** (٤) ولقد وردت مادة الصبر فى القران الكريم أكثر من مائة مرة. وهذا يدل على مكانته وعلو شأنه.

---

(١) سورة الزمر أية رقم (١٠).
(٢) سورة الأنفال. الآيتان رقم (٤٥، ٤٦).
(٣) سورة الأنفال. آية رقم (٦٦).
(٤) سورة النحل. آية رقم (٩٦).

صبر الله على عباده

يكفى الصبر شرفا أن يكون اسما من أسماء الله تعالى؛ فمن أسمائه " الصبور" وهكذا بصيغة المبالغة - فما أكثر صبر الله تعالى على عباده فهو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم، وهو الذي صحح لهم أبدانهم. وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة -**{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا}** [١]... الأرض التي تخرج الطعام، والسماء التي ينزل منها الماء، وما بينهما من الهواء. والبحار والأنهار، والفلك التي تجرى بما ينفع الناس، كل هذا من الذي سخره والله؟ إنه الله رب العالمين. فهل أقر الناس بذلك؟ ! ! وهل شكروه على هذه النعم؟ إن قارون ومن على شاكلته ينسبون الفضل لأنفسهم وشعارهم كما ردده أمامهم الى النار -**{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي}** [٢] وكذبوا والله وكذبوا هم أيضا. ففي خلق الله من هو أذكى واعلم. وأقوى وأحزم. ولكن رزقه ليس مثلهم مما يدلك على أن الله هو صاحب النعم التي لا تحصى والآلاء التي لا تعد ولا تستقصى. قال الله تعالى فى الحديث القدسي: **«إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم. أخلق ويعبد غيري. وأرزق ويشكر سواي. خيري إلى العباد نازل وشرهم إلى صّاعد»**. ومع كل ذلك لم يضق بخلقه. ولم يصرف نعمه عنهم؛ لأنه الصبور ولا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. قال تعالى فى الحديث القدسي: **«شتمني ابن آدم ولم يكن له ذلك. وكذبني ولم يكن له ذلك. أما شتمه إياى فزعمه أن لي صاحبة وولدا. وأنا الله الواحد الأحد الذي لم اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأما تكذيبه اياى فزعمه أننى لا أعبد. وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»**... أو كما قال رسول الله ﷺ راويا عن ربه [٣].

عجبـــــت لجاهــــــل عــــــاص	:::	**زه بعصـــــــــــــــــــــيانه**
ويســـــمع صـــــوته الحـــــاني	:::	**يـــــــــــــه بقرانــــــــــــه**
أنــــا التـــــواب يــــا عبــــدي	:::	**ترجـــــــــــو لإحســـــــــانه**
فيعـــــــرض مـــــــن شـــــــقاوته	:::	**عـــــــا وحــــــى شـــــــيطانه**
ولـــــو يـــــدرى لعـــــاد إليـــــه	:::	**يســــــكب مــــــاء أجفانـــــه** [٤]

ودلائل وحدانية الله وبراهين وجوده لا تحتاج الى ذكر. وفى كل شيء له آية تدل على إنه

---

(١) سورة إبراهيم. أية رقم(٣٤).
(٢) سورة القصص. الآية رقم (٧٨).
(٣) الحديث بمعناه فى صحيح البخاري فى كتاب التفسير - سورة القصص.
(٤) هذه الأبيات جزء من قصيدة " عشقت الله " لفضيلة الشيخ / عبد العاطى... انظر كتاب عبدالعاطى سليم... شاعرا وأديبا.

الواحد.

يروى أن مجوسيا زار الخليل إبراهيم عليه السلام ولما قدم لـه الطعام سمي المجوسي على الطعام باسم النار التي يعبدها. ولكن الخليل قال لـه: قل باسم الله. ولكن الرجل قال: لا اعرف ذلك! ولا أسمى إلا باسم الإله الذي أعبده. فزجره الخليل الغيور على وحدانية الله وأخرجه من بيته. ونزل الوحي على الخليل: " لم تصبر ساعة على هذا الرجل وهو يأكل من خيرنا ونصبر عليه من ستين عاما " وأدركه الخليل وأعاده وذكر لـه عتاب ربه فيه وهنا قال الرجل: ربك يعاتبك فى أنا برغم أننى لم اذكر اسمه! أشهد أن هذا هو الرب الصبور. واشهد ألا إله إلا الله وإنك رسول الله. أرأيتم كيف يصبر الله على خلقه. وأنه لا يعجل كعجلة أحدنا -**{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}** [١]. وإذا كان الصبر صفة من صفات الله فهو كذلك صفة من صفات الرسل. قال تعالى لنبيه محمد ﷺ:**{فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ}**[٢].

(١) سورة يونس. الآية رقم (١١).

(٢) سورة النمل الآية الأخيرة.

خبر الرسول ﷺ في الدعوة إلى ربه

صبر الرسول ﷺ فى الدعوة الى ربه. ولقد جاء الأمر للرسول ﷺ بالصبر فى أول مراحل الدعوة؛ لأن الصبر سوف يكون وسيلته فى تبليغ أمر ربه وسلاحه فى انتصاره على قومه. قال فى سورة المدثر وهى من أوائل ما نزل من القران الكريم:**{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}**(١). والآية بنظمها الشريف تضع الهدف من الصبر وهو أن الصبر يكون لله -**{وَلِرَبِّكَ}** - فليس الصبر من أجل الرياء ولا الشهرة ولا أن يقال عليه إنه صابر. ولكن الصبر لله ابتغاء مرضاته. وطلبا لما أعده عنده للصابرين من الأجر العظيم.

إن طريق الدعوة الى الله ليس مفروشا بالورود والأزهار والرياحين؛ ولكنه مفروش بالأشواك والمؤامرات والتعذيب البدنى والنفسي... ولكن الصبر هو الذي يجعل هذه الأشياء عذبة مستساغة لأنها فى طاعة الله.

فليتك تحلو والحياة مريرة ::: وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ::: وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ::: وكل الذى فوق التراب تراب (٢)

أي أذى لقيه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام فى سبيل الدعوة. وهو الذي كان قبل أن يبعث محل التقدير، فقد كانوا يلقبونه " الصادق الأمين ". كانوا يضعون عنده ودائعهم. ولا يرون أمينا يغنى غناءه فى ذلك. لقد هللوا حين دخل عليهم وهم مختلفون فى وضع الحجر الأسود فى مكانه عندما كانوا يبنون الكعبة. وقالوا: رضينا بالأمين. ولم يعترض أحد عليه ﷺ حينما أمر ﷺ كل زعيم قبيلة أن يأخذ بطرف ثوبه الشريف الذي وضع عليه الحجر. وأن يرفعوا جميعا الحجر. ثم يأخذه هو ﷺ ويضعه فى مكانه. ولو أن أحدا غير الصادق الأمين فعل ذلك لسلت السيوف من أغمادها. وسالت الدماء وصار ما لا تحمد عقباه(٣).

هذه هي مكانة رسول الله ﷺ عند قومه قبل أن يبعث. أما بعد البعثة فحدث عما لقيه منهم من أذى نفسي وأذى بدني. قالوا عنه ساحر (٤) وقالوا شاعر(١) وقالوا مفتر (٢). وغير ذلك

---

(١) أية رقم (٧).

(٢) ينسب هذا الشعر للسيدة / رابعة العدوية رضي الله عنها.

(٣) القصة بأكملها ذكرها العلامة صفى الرحمن المباركفورى فى كتاب " الرحيق المختوم " الصفحة رقم (٥٨) - وهى فى سيرة ابن هشام. الجزء الأول. الصفحة رقم (١٠٢). مطبعة الأنوار المحمدية.

(٤) قال تعالى:**{وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}** سورة ص. الآية رقم (٤)

كثير. وكانوا يضعون فى طريقه الأشواك. ويلقون عليه وهو ساجد بين يدي ربه فرث الجذور [٣]. ويكفى أنهم أخرجوه من بيته ومن بلده واستولوا على بيته وباعوه. ومع كل هذا كان رسول الله ﷺ صابراً محتسباً منفذا قول الله تعالى:**{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}**. بل صبر رسول الله ﷺ صبرا جميلا كما قال الله تعالى:**{فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً}** [٤]. وقال أيضا:**{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}**[٥]. ولم يقابل السيئة بالسيئة ولكنه عفا وصفح الصفح الجميل. حتى حينما أمكنه الله منهم غداة فتح مكة وقال لهم: **«ما تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا خيرا... أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فانتم الطلقاء»** [٦]. وهذه نتيجة الصبر وتلك نهايته.

والصابر الحق هو الذي لا يستطيل مدة صبره حتى لا يتطرق اليأس الى قلبه وذلك كما قال الله تعالى فى آخر سورة آل عمران**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** ونلاحظ أن الآية الكريمة جمعت بين الفعلين**{اصْبِرُوا وَصَابِرُوا}** فمعنى صابروا - والله أعلم - كونوا أكثر صبرا من عدوكم. وذلك أن المشركين كانوا يعتصمون بالصبر فى التمسك بالباطل فلا بد أن يتفوق عليهم الموحدون فى الاعتصام بالصبر على الحق. قال تعالى على لسان المشركين وهم يتحدثون عن رسول الله ﷺ**{إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا}** [٧]. وقال تعالى:**{وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ}** [٨]. وهكذا فأنت ترى أن أهل الباطل والشرك يصبرون عليه فأحرى بأهل الهدى والحق أن يصابروهم وأن يتفوقوا عليهم فى هذا المضمار "مضمار الصبر".

يذكر ابن كثير - رحمه الله[٩] - إن جماعة من المشركين ذهبوا الى أبى طالب عم النبي ﷺ

---

(١) قال تعالى:**{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ}** - سورة الحاقة. الآيتان رقم (٤٠، ٤١).

(٢) قال تعالى:**{إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ}** - سورة الفرقان الآية رقم (٤).

(٣) ما فى كرش الحيوان المذبوح.

(٤) سورة المعارج. أية رقم (٥).

(٥) سورة المز مل. آية رقم (١٠).

(٦) الرحيق المختوم. الصفحة رقم (٤٠٤).

(٧) سورة الفرقان آية رقم ٤٢.

(٨) سورة ص الآية رقم ٦.

(٩) هو العلامة الحجة إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي الشافعي، ولد سنة ١٠٧ هو توفى عام ٧٧٤ هـ، وله تصانيف كثيرة من أشهرها: تفسير القرآن الكريم - والبداية والنهاية - وقصص الأنبياء... وغير ذلك كثير.

وقالوا لـه: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فانصفنا من ابن أخيك محمد. فمره أن يكف عن شتم آلهتنا ونحن ندعه وإلهه. فبعث أبو طالب الى رسول الله ﷺ فجاء وجلس أبو جهل - عليه اللعنة - بين رسول الله ﷺ وبين أبى طالب حتى لا يرق أبو طالب لابن أخيه لو جلس الى جواره. وقال أبو طالب: يا محمد.. هؤلاء مشيخة قريش وسراتهم. وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. فقال الرسول ﷺ: **«أفلا أدعوهم الى ما هو خير لهم»؟** قال: وإلام تدعوهم؟ قال ﷺ أدعوهم أن يقولوا: **«كلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم»**. فقال أبو جهل - عليه اللعنة - فما هي؟ وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها فقال ﷺ: **«تقولن لا إله إلا الله»**. فنفروا وقالوا: سلنا غيرها فقال ﷺ: **«لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها فى يدي ما سألتكم غيرها»** فقاموا غضابا وقالوا: والله لنشتمك وإلهك الذي أمرك بهذا... وهذا نموذج من صبره ﷺ على أذى قومه. ولقد صبر أصحابه رضي الله عنهم على الإيذاء وبحسبك أن نذكر لك بعض الأسماء وأنت عليم بما جرى لهم: فهذا بلال. وهذا عمار وأبواه. ومن قبله ياسر وسمية. وغير هؤلاء صبروا على ما أوذوا به فجعلهم الله سادة فى الدنيا والآخرة بصبرهم على التمسك بدعوتهم. ولا يحسبن أحد أن الصبر لا يكون إلا على المكروه فقط! بل يكون أيضا على النعمة. والصبر عليها يكون بأداء الشكر لواهبها عز وجل فلا يبطر بها ولا ينسبها الى نفسه. فقال تعالى:**{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}** [١] وقد رأينا نموذجا لمن نسب فضل جمع المال الى نفسه وهو قارون. فلنذكر نموذجا آخر وكيف شكر الله تعالى على منحه إياه. ذلكم هو سليمان عليه السلام فقد أعطاه الله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. وعلمه منطق الطير. وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب وسخر له الشياطين يفعلون له ما يشاء من محاريب. وتماثيل وجفان كالجواب [٢] وكان فى ملكه من يأتيه بعرش بلقيس قبل أن يريد إليه طرفه... فماذا قال نبي الله سليمان مع هذا الملك الواسع؟ قال:**{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}**[٣].

---

(١) سورة العلق. الآيتين رقمي (٦، ٧).
(٢) قصاع كبار كأنها الأحواض التي يجمع فيها الماء. والمعنى أنها كبيرة جدا.
(٣) سورة النمل الآية رقم (٤٠).

ولا شك أن هذه مكانة عالية لان كل نفس تحب أن ينسب الخير إلى نفسها إلا من عصم الله تعالى. وكون النعمة ابتلاء مرا جاء فى قول الله تعالى:**{فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}** (١). يشعرون. وقال فى أية أخرى**{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ}**. وليست زيادة المال وكثرة البنيين خيرا محضا بل قد يكون ذلك ابتلاء من الله تعالى. ذلك أن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطى الدين إلا من أحب. فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. ومن عباد الله من لو سأل الله لأعطاه (٢). ومنهم من لو سأله علاقة سوط لم يعطه سؤاله! ! ذلك لكرامة الأول. ولا لمهانة الثاني. ولكنها الدنيا التي ليست بدار جزاء ولكنها دار تكاليف وابتلاء.

ولقد جاء الأمر صراحة للرسول وهو فى الوقت ذاته أمر لكل فرد فى أمته. قال تعالى:**{وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** (٣).

يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله فرآه مضجعا على حصير قد أثر فى جسده الشريف. وتأثر الفاروق بما يراه وبما يعلمه عن كسرى وقيصر وكيف ينامون على فرش الحرير وبكى. وسأله الرسول ﷺ ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر ينعمان وأنت كما أرى؟ فقال سيد الزاهدين محمد ﷺ: **«أو فى شك يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيبباتهم فى حياتهم الدنيا»** (٤)... ولو كانت الدنيا دليل رضا الله أو سخطه لكان رسول الله ﷺ أغنى الناس وهو الذي راودته الجبال الشم أن تكون ذهبا بين يديه. ولكنه رضي أن يعيش مسكينا وأن يحشر فى زمرة المساكين.

قال أحد العارفين: " البلاء يصبر عليه المؤمن. والعافية لا يصبر عليها إلا صديق. ولما فتحت الدنيا للمؤمنين وامتلأت بيوت أموالهم وخزائنهم بالمال قال أحدهم: " ابتلينا بفتنة الضراء

---

(١) سورة الفجر. الآيتان رقم (١٥، ١٦)

(٢) وقد قيل فى هذا المعنى: " إن لله عبادا لو رفعوا إليه حواجبهم لقضيت حوائجهم... نسأل الله أن نكون منهم اللهم آمين.

(٣) سورة طه. الآية رقم (١٣١).

(٤) رواه ابن ماجه باسناد صحيح بلفظ: " أما ترضى يابن الخطاب أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا " ورواه ابن حبان فى صحيحه أيضا.

فصبرنا. وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ". ويشرح الإمام الغزالي ذلك فيقول " إن الجائع عند غيبة الطعام اصبر منه إذا حضرت الأطعمة اللذيذة وقدر عليها. ومن العصمة إلا يجد. وبذلك قد يكون الحرمان نوعا من العصمة ".

ومن بعض ثواب الصابرين ما ورد من نصوص قرآنية ونبوية:

١ - حفظ الله الصابرين من كيد الأعداء وتدبيرهم. قال تعالى:**{إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}**(١).

٢ - بشارة الله لهم قال تعالى:**{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}** (٢). وقد رتبت الآية ثلاثة أشياء على الصبر. وهى الصلاة من الله بمعنى الثناء عليهم. والأمن من عذاب الله ثم رحمته لهم. ثم الهداية والتوفيق لصالح الأعمال... وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية فقال: " نعم العدلان ونعمت العلاوة " (٣)... أي إنه شبه الأشياء الثلاثة وهى: الصلاة من الله والرحمة والهداية. بثلاثة أشياء يحملها البعير وهى: العدلان والعلاوة.

ذكروا أن أم سلمة أم المؤمنين (٤). قبل أن يتزوجها رسول الله ﷺ جاءها زوجها أبو سلمة من عند رسول الله ﷺ وقال لها: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يصيب أحد من المسلمين شيء فيسترجع (٥) عند المصيبة. ثم يقول: اللهم اؤجرني فى مصيبتي واخلف لي خيرا منها»**. ألا فعل ذلك به. قالت أم سلمة: فحفظت ذلك. فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت: اللهم اؤجرني فى مصيبتي واخلف لي خيرا منها. فلما رجعت الى نفسي وقلت: من أين لي من هو خير من أبى سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن على

---

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١٢٠).

(٢) سورة البقرة. الآيتان رقم (١٥٥، ١٥٦).

(٣) العدل بكسر العين ما يوضع على جانب البعير ليكون معادلا للعدل فى الجانب الآخر. والعلاوة ما يوضع على ظهر البعير.

(٤) هي السيدة الطاهرة هند بنت أبى أمية ابن المغيرة بن عبدا لله بن عمر بن مخزوم. وهى بنت عم خالد بم الوليد وهى من المهاجرات الأول. زوجها الأول هو أبو سلمة ابن عبد الأسد المخزومى. اخو النبي من الرضاعة. تزوجها النبي بعد وفاة وزجها فى سنة أربع من الهجرة. وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين. وكانت من أجمل النساء واشهرهن. وروت عن رسول الله أحاديث كثيرة.

(٥) أى يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

رسـول الله ﷺ وأنـا ادبـغ إهابـا (جلـدا). فغسـلت يـدي مـن القـرظ وأذنـت لــه. ووضـعت لــه وسـادة حشـوها مـن الليـف فقعـد عليهـا. فخطبنـى إلـى نفسـي. فمـا فـرغ مـن مقالتـه قلـت: يـا رسـول الله. مـا بـي ألا يكـون بـك الرغبـة. ولكنـي امـرأة بـي غيـرة شـديدة فأخـاف أن تـرى منـى شـيئا تكرهـه فيعـذبني الله بـه. وأنـا امـرأة قـد دخلـت فـى السـن [١]. وأنـا ذات عيـال. فقـال ﷺ: **«أمـا مـا ذكـرت مـن الغيـرة الشـديدة فسـوف يـذهبها الله عنـك. وأمـا مـا ذكـرت مـن السـن فقـد اصـابنى مثـل الـذي أصـابك. وأمـا مـا ذكـرت مـن العيـال فإنمـا عيالـك عيـالي»**. فقالــت: سلمت لرسول الله ﷺ وقالت: فقد أبدلنى الله خيرا من أبى سلمة رسول الله ﷺ[٢]...

---

(١) تقصد أنها كبيرة فى السن

(٢) الحديث بمعناه ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. الجزء رقم ٤ (الصفحة رقم (٣٣٦). طبعة دار الريان للتراث - والحديث بتمامه فى مسند الإمام احمد وابن حبان فى صحيحه.

مجالات الصبر

من مجالات الصبر الذي ينبغي للمؤمن أن يكون صابرا فيها ما يأتي:

١ – الصبر على أداء العبادة: وقد قدمنا طرفا من ذلك - ونزيد هنا أن العبادة تستدعى الصبر قبل الإتيان بها. وفى أثناء تأديتها. وبعد الانتهاء منها... فأما الصبر الذي يكون قبل الإتيان بها فيكون ذلك بإخلاص ومجاهدة النفس وجعل الهدف من هذا العمل إنما هو لله تعالى. فالله عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك. وهذا يستدعى صبرا فى قهر النفس وتنقيتها من أية شائبة من الشوائب التي تعرض للإنسان وهو ينوى القيام بأعمال العبادة. يقول رسول الله ﷺ: **«الناس هلكى إلا العالمين. والعالمون هلكى إلا العاملين. والعاملون هلكى إلا المخلصين والمخلصون على خطر عظيم»**. ويقول الله تعالى:**{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** [(١)] فقدم الصبر على العمل.

والصبر فى أثناء العمل يستدعى الإتيان على أكمل وجه وفق ما شرع الله وما سنه رسول الله ﷺ. فلا تفتر العزيمة ويؤديه الإنسان كيفما اتفق. ذلك لان الله لا يقبل من العمل إلا إذا كان موافقا لشرعه [(٢)] والله لا تأخذه سنة ولا نوم. وهو العليم الذي لا يعذب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض. ولعل ذلك يفهم من قوله تعالى**{نِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا}** فقدم العمل هنا على الصبر.

وبعد الانتهاء من العمل يكون الصبر بعدم المن والأذى والتحدث به بقصد الشهرة والرياء. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى}** [(٣)]. وخير مثال على ذلك إبراهيم عليه السلام الذي صبر على ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل. وهو الذي أعطاه الله إياه على الكبر ثم هو الغلام الحليم. وقد بلغ معه السعي... فصبر على هذا الابتلاء. وعرض الأمر على ابنه إسماعيل عليه السلام. وكان الغلام عند حسن ظن أبيه. فقد قال له:**{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}** [(٤)]. ولقد فهم إسماعيل عليه السلام أن رؤيا أبيه وحى. فقال: " يا أبت افعل ما تؤمر " ولم يقل " يا أبت افعل ما رأيت ". وكانت نتيجة صبر

---

(١) سورة هود. الآية رقم (١١).

(٢) سئل الفضيل بن عياض عن العمل المقبول فقال: " أصوبه وأخلصه ". أى ما كان على سنة النبى وخالصاً لوجهه تعالى.

(٣) سورة البقرة. الآية رقم (٢٦٤).

(٤) سورة الصافات. الآية رقم (٢).

الوالد والولد أن فداه الله بذبح عظيم. وأعطى الوالد ولد آخر هو إسحق وبشر سارة امرأة إبراهيم الخليل بإسحق. وبأن إسحق سوف يلد ولدا هو يعقوب. فهي بشارة مزدوجة وليست واحدة. ولنا أن نفهم من ذلك بشارة ثالثة هي أن تعيش سارة لترى الابن والحفيد. فهي بشريات وليست واحدة.

٢ – المجال الثاني هو مجال الصبر على شدائد الحياة ومشقاتها: فالإنسان فى هذه الحياة لم يأخذ على الله عهدا أن تكون حياته خيرا كلها. وإنما هي مزيج من الخير والشر. من الصحة والمرض. من الفقر والغنى. من السراء والضراء... قال تعالى:**{وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}** [1]. ومن رحمة الله تعالى أن قال:**{بِشَيْءٍ مِّنَ الخَوْفِ}** كل الخوف. وليس كل الجوع أو كل الثمرات فهذه الدنيا. وتلك طبيعتها...

ومكلف الأيام ضد طباعها ::: متطلب فى الماء جذوة نار[2]

وإمام الصابرين فى هذا المجال هو أيوب عليه السلام. فقد كان صاحب نعمة وكان له أولاد. وكان صحيح البدن معافى. فابتلاه الله بالمرض فى جسمه ووفاة أولاده وذهاب أمواله. فصبر ولم يشك ولم يتبرم. واستمر على ذلك ثماني عشرة سنة. ثم توجه الى الله بقوله:**{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** [3]. وانظر الى أدبه العالي فى الدعاء وتعلم منه. فهو يقول:**{مَسَّنِيَ الضُّرُّ}** وهذا دعاء مجمل فلم يقل: " اعتل بدني وساءت صحتي وفقدت موالى ومات أولادي ". وانظر الى التعبير " مسني " وانظر - كذلك - الى قوله:**{وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** لتدرك كيف كان مؤدبا فى دعائه ولم يقترح على ربه شيئا معينا. وكانت نتيجة هذا الصبر أن قال الله له:**{ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}**. وأعاد الله له أهله ومثلهم معهم. وأعاد عليه أمواله... وهذه نتيجة الصابرين. ولذلك مدحه الله سبحانه وتعالى بقوله:**{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِّعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[4]. فقد مدح الله عبوديته. وعلل ذلك بأنه كثير الرجوع إليه سبحانه. ولا ننسى أيضا صبر نبي الله يعقوب عليه السلام على ولده يوسف. حيث قال:**{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ**

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم (١٥٥).

(٢) وقال آخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ::: حذار حذار من بطشي ومن فتكي

فلا يغرركم مني ابتسام ::: فقولي مضحك والفعل مبكي

(٣) سورة الأنبياء. الآية رقم (٨٣).

(٤) سورة ص. الآية رقم (٤٤).

المُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[١] وقال أيضا فى صبره على يوسف وأخيه الذي استبقاه يوسف معه. وعلى ابنه الأكبر الذي لم يعد مع إخوته**{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ}** [٢] وصبر يعقوب عليه السلام على يوسف صبر عظيم. **لما يأتي**:

١ - فهو الصغير. وللصغير مكانته فى قلب أبيه. وقد سئل أحد العقلاء عن أحب أولاده إليه فقال: " صغيرهم حتى يكبر. وغائبهم حتى يحضر. وسقيهم حتى يشفى ".

٢ - وهو الذي حرم عطف الأم وهو مازال صغيرا.

٣ - وهو الذي تنبأ لـه والده بأنه سوف يجتبيه ربه ويعلمه من تأويل الأحاديث. ويتم نعمته عليه كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق. وذلك حينما قال لـه:**{يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}**[٣].

٤ - وهو الجميل الذي أذهل جماله النسوة فقطعن أيديهن بمجرد رؤيتهن لـه.

٥ - وهو الغائب الذي لا يعرف لـه مكانا ولا مصيرا.

٦ - وهو الذي غدر به أخوته وهم - فى الوقت ذاته - أبناؤه:

وظلـــم ذوى القربـــى أشـــد مضاضـــة ::: على النفس من وقع الحسام المهند [٤]

ولم يشك يعقوب - عليه السلام - بثه وحزنه إلا الى الله. وابيضت عيناه من الحزن. وكانت نتيجة صبره ان جمع الله شمله بأولاده وأعاد عليه بصره. ودخل بنوه مصر آمنين وعلى أريكتها ابنه يوسف[٥].

مكانة الصبر[٦]:

---

(١) سورة يوسف. الآية رقم (١٨).

(٢) سورة يوسف الآية رقم (٨٣).

(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٤).

(٤) الحسام هو السيف.

(٥) ومن مجالات الصبر أيضا الصبر فى البعد عن الحرام. فترك الإنسان لشهوته وغلبة نفسه أمام مغريات الحياة يعد نوعا من أعظم أنواع الصبر. ولنا فى يوسف خير شاهد ودليل. فقد هيئت لـه أسباب الوقوع فى الرذيلة. لكنه صبر على ذلك ففاز ونجا. قال تعالى حاكيا قولـه: " معاذ الله إنه ربى أحسن مثواي إنـه لا يفلح الظالمون ".

(٦) ذكر الله في القرآن الكريم ثواب الصابرين، من ذلك:

(أ) أن لهم الخير... قال تعالى:**{وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}** - سورة النحل، الآية رقم (١٢٦).

إن كثيرا من الأخلاق التي ينبغي أن يتصف بها المسلم ترتكز فى أساسها على الصبر... فالحلم مثلا لا يعرف إلا إذا صبر الإنسان على من يؤذيه. فالحلم نوعا من أنواع الصبر... والشجاعة التي يتفاخر بها ويدعيها حتى من ليس بأربابها وذلك لشرفها ليست إلا نوعاً من أنواع الصبر. فلو لم يصبر المقاتل على شدائد الحرب لم يكن شجاعا؛ فالشجاعة نوع من أنواع الصبر... والعفة نوع من أنواع الصبر؛ لأنها فى حقيقتها الصبر على شهوة البطن والفرج. ولو لم يتحقق هنا الصبر لم تكن عفة.

وقس على ذلك بقية الصفات الأخرى لتدرك كيف أن الرسول قال: **«الصبر نصف الإيمان»**[1].

نسأل الله أن يجعلنا من عباده المخلصين الصابرين. إنه نعم المولى ونعم النصير..

* * * * *

(ب) أنهم محفوظون من الله... قال تعالى:**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً}** - سورة آل عمران، الآية رقم (١٢٠).

(ج) أنه من عزائم الأمور... قال تعالى:**{وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}** - سورة آل عمران، الآية رقم (١٨٦).

(د) أن الله معهم.. قال تعالى:**{اسْتَعِينُوا بْالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}** - سورة البقرة، الآية رقم (١٥٣).

(هـ) أن الله يحبهم... قال تعالى:**{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}** - سورة آل عمران، الآية رقم (١٤٦).

(و) أن لهم الجنة... قال تعالى:**{وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً}** - سورة الإنسان، الآية رقم (١٢).

(ز) أن لهم الفوز... قال تعالى:**{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ اليَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الفَائِزُونَ}** - سورة المؤمنون، الآية رقم (١١١).

(١) رواه الترمذى.

من أخلاق المؤمنين:

الخوف من الله

الخوف من الله

هذا الخلق النبيل " خلق الخوف من الله تعالي " إذا تمكن من قلب المؤمن وهبه الأمن والطمأنينة يوم يفرغ الناس ويخافون. وذلك وعد الله تبارك وتعالي: **«لا أجمع علي عبدي خوفين. و أمنين. فمن خافني في الدينا أمنته في الآخرة. ومن أمنني في الدينا خوفته في الآخرة»**[١]. فالخوف من الله عز وجل يقف حائلا بين العبد وبين المعاصي. فإن عذاب الله شديد وأن الله لا يغفل ولا ينام. وهو سريع الحساب شديد العقاب. فيكف يده. وكذلك إذا مد بصره إلي المحرمات أو تطلع إلي العورات ذكر خوف خوفه من الله فيض بصره. وإذا وسوس له الشيطان معصية ما فإن الخوف من الله سرعان ما يرده عن متابعة الشيطان ويرد الشيطان عن إغوائه:**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}** [٢].

جاء رجل إلي إبراهيم بن أدهم [٣] وقال له أني مسرف علي نفسي. فأعرض علي ما يكون زاخر لها. فقال له إبرهيم أن استطعت أن تفعل واحد من خمسة أشياء فإن المعصية لا تضرك قال الرجل هاتها يرحمك الله قال إبراهيم أن تعصي الله فلا تأكل من رزق الله و لا تسكن في بلاده وإذهب إلى مكان لا يراك فيه وإذا جاءك ملك الموت فقل له أخرني ساعة حتي أتوب وأعمل صالحا. وإذا جاءتك الزبانية يوم القيامة لتأخذك إلي النار فلا تذهب معهم فقال الرجل وكيف أستطيع ذلك ياإبراهيم؟ فقال له: ياهذا إذا كنت تأكل من رزق الله وتسكن في بلاده. ولا تغيب عنه طرفة عين و أقل من ذلك. لا تستطيع أن تهرب من الموت. ولا تستطيع أن تمتنع عن الزبانية فكيف تعصي الله؟ فبكي الرجل وتاب إلي الله تعالي. وذلك لأن إبراهيم ذكره بنعم الله ونقمه وخوفه وعذابه. تاب الرجل وأناب. وفي ظلال الغفلة عن الله وعدم الخوف منه. تحت هذا ستار الكثيف يفقد المرء دينه ويكون أُلعوبة في يد الشيطان -: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولكن المؤمن حقا حين يسرق وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها**

---

(١) راوه ابن حيان في صحيحه عن أبي هريرة.

(٢) سورة الأعراف. الأية رقم (١، ٢).

(٣) هو أبو أسحاق بن إبراهيم بن منصور. كان من أبناء الملوك فخرج يوما متصيدا. فأثار إبوه في طلبه. فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟ فنزل عن دابته وطلب العلم. وأقبل علي العبادة وصحب الفضيل بن عياض وسفيان الثوري. وكان يأكل من عمل يده... ومن أقواله " أطب مطعمك ولا حرج عليك ألا تقوم الليل وتصوم النهار " توفي بالشام بعد رحلة جهاد طويلة و مثيرة ويعده الصوفية من أكابرهم وسادتهم.

وهو مؤمن» [١] ولكن المؤمن حقا هو الذي يخاف قيامه بين يدي ربه. فيقف خوفه سدا منيعا بينه وبين معاصي الله أن الشيطان هو الذي يزين المعصية ويحببها إلى مرتكبها. فإذا خف ميزان الإيمان ورجحت كفة الشهوة البهيمية انقلب الإنسان كالثور الخائج لا يذكر إذا امتلأ القلب بالخوف من الله وأن ربه سوف يسأله عن الفتيل والقطمير وعن الصغير والكبير وعن الذرة وما دونها [٢]. كف عن الحرام وقنع بالحلال.

ولنذكر بعض مواقف الصحابة - رضي الله عنهم - وهم على قرب عهدهم برسول الله ﷺ وأنهم يعيشون معه ﷺ وكيف يخافون ربهم لتكون لنا فيهم وفيه ﷺ القدوة الحسنة هذه عائشة أم المؤمنين مع منزلتها العالية[٣] وكيف كانت تخاف الله؟. دخل عليها رسول الله ﷺ فوجدها تبكي وسألها عن سبب بكائها فقالت: ذكرت النار فبكيت. ثم قالت لرسول الله ﷺ هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال لها المعصوم ﷺ أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحدا: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل. وعند تطاير الكتب حتى يقال هاؤم اقرءوا كتابيه. وحتى يعلم أين يقع كتابه أبيمينه أو فى شماله. وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حافته كلاليب وحسك[٤] كثير يحبس الله بها من شاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا [٥]. وهذه المواقف جديرة بأن ينسى الإنسان فيها أهله وولده وأقرب المحبين إليه لأن لكل امرئ منهم شأن يغنيه -**{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}**[٦]. فعند الميزان تشخص الأبصار وتنخلع القلوب حتى يعلم من توزن أعماله هل رجحت كفة حسناته أم كفة سيئاته؟ -**{فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ}** [٧].

والموقف الثاني عند تطاير الكتب التي سجلها الملكان كما عملها الإنسان فلكل إنسان كتاب

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة.

(٢) أكد القرآن الكريم هذا المعني في قوله تعالي: يابني عن تلك إنها مثقال حبه من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله أن الله لطيف خبير " سورة لقمان الآية رقم (١٦) وقال أيضا " من يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة شرا يره الآيتان رقم (٧، ٨).

(٣) فهى التى نزلت براؤتها من السماء، وهى حبيبة حبيب الله، وهى مع رسول الله ﷺ إن الله في الجنة

(٤) الكلاليب: خطاطيف. والحسك: شوك وجمعةه حسكه.

(٥) رواه أبو داود والحاكم. وقال صحيح على شرطهما لولا الإرسال فيه بين الحسن وعائشة.

(٦) سورة عبس. الآيات أرقام (٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧).

(٧) سورة القارعة.

لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. والمؤمن التقى هو الذي يأخذ كتابه بيمينه. ويا لها من سعادة غامرة. إنها الفوز بالجنة والنجاة من النار -**{فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ}** (١) وأما الفاجر الشقي الغوي فيأخذ كتابه بشماله ومن وراء ظهره وعندئذ يندم وليت ساعة ينفعه الندم فيقول:**{يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ القَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ}**(٢). ويأتي النداء من الله تعالى للزبانية**{خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ}** (٣). ويا لها من سلسلة ما أطولها وما أشدها لو سقطت منها حلقة على جبال الدنيا لدكتها. فكيف بالإنسان الضعيف؟

أعاذنا الله من ذلك.

والموقف الثالث: عند المرور على الصراط: وهو جسر ممدود على ظهر جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف فيه كلاليب معدة لتخطف من وكلت بخطفه من كل جبار عنيد مجترئ على حدود الله. ومملوء بالشوك وياله من الشوك ليس كأشواك الدنيا. وذلك للعاصي...

أما المؤمن فيمر عليه كالبرق الخاطف ومعه نوره الذي يهديه في هذا الموقف. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: **«سمعت رسول الله ﷺ يقول: كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله. فأتته امرأة فأعطاها ستين دينار علي أن يطأها. فلما راودها عن نفسها ارتعدت وبكت. فقال ما يبكيك؟ قالت لأن هذا عمل ما عملته وما حملني عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله فأنا أحري بذلك منك. اذهبي فلكي ما أعيتك والله ما أعصيه بعدها أبدا. فمات من ليلته فأصبح مكتوبا علي بابه أن الله قد غفر للكفل. فعجب الناس من ذلك»** (٤).

ولقد كان رسول الله ﷺ أخشي الناس لله وأخوفهم منه مع ما غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك شابت رأسه من خوفه من الله تعالى. قال أبوبكر: يا رسول الله.. أراك شبت. قال: شيبتني هود وأخواتها: (الواقعة) و(المراسلات) و(عم يتساءلون) و(إذا الشمس كورت)... ولعلك تدرك أن هذه السور فيها ذكرا للنار وأهوال يوم القيامة. فهل يسمع مسلمو اليوم هذه

---

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١٨٥).
(٢) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩).
(٣) سورة الحاقة. الآيات أرقام (٣٠، ٣١، ٣٢) - ووصف رسول الله ﷺ هذه السلسلة بقوله: (لو وضعت حلقة منها على جبال الدنيا لأذابتها). وقال ابن عباس رضى الله عنه السلسلة سبعون ذراعا بذراع الملك لا بذراع البشر)... نسأل الله العفو والعافي.
(٤) الترغيب والترهيب. جزء رقم (٤). صفحة رقم (٢٥٨) - رواه الترمذى وقال حديث حسن.

السور كما سمعها رسول الله ﷺ أن هم قومنا من السماع جمال صوت القارئ وطريقة أدائه:

فهمهـــــــــــم إذا يتلـــــــــــــى ::: جمـــــــال الصـــــوت والـــــنغم

فهل يعود المسلمون إلى ربهم إلى يخافونه ويخشون عذابه؟

أيـــا شـــابا لـــرب العـــرش عـــاص ::: أتـــدرى مـــا جـــزاء ذوى المعاصـــي

ســـعير للعصـــاة لهـــا زفيـــر ::: وغـــيظ يـــوم يؤخـــذ بالنواصـــي

فـإن تصـبر علـى النيـران فاعصـه ::: وإلا كـن عـن العصـيان قاصـى[١]

وفـيم قـد كسـبت مـن المعاصـى ::: رهقـت الـنفس فاجهـد فـى الخـلاص[٢]

جزاء الخائفين:

تعالوا بنا نستعرض بعض آيات من القرآن الكريم التى تتحدث عن الخوف من الله وماذا أعد الله لهم؟ وبماذا وصفهم؟... يقول الله تعالى:**{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ}**[٣]. فقد قصرت الآية خوف الله تعالى على العلماء وبالتالي فإن الجهلاء لا يخشونه عز وجل فمن الذى يرضى لنفسه أن يكون من الجاهلين؟!! ويقول تعالى:**{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}**[٤] فقد جعلت الآية الجنة ورضا الله للذين يخافون الله. وقال تعالى**{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}**[٥] فالذى يخشى قيامه بين يدى ربه للسؤال. لـه عند ربه جنتان وليست جنة واحدة.

والمراد الخوف الذى يحجز الإنسان عن معاصي الله. قال تعالى:**{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى}**[٦]. وقال تعالى:**{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}**[٧]... قالت السيدة عائشة: (سألت رسول الله ﷺ هل معنى هذه الآية الرجل يسرق ويزنى؟ قال: لا.. بل الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه [٨].

وتعالوا فلنجل[٩] فى رياض السنة النبوية ولنقطف من أزهارها بعض ما جاء فى الخوف

---

(١) يعنى بعيدا عنها.
(٢) كتاب مكاشفة القلوب للإمام الغزالى. صفحة رقم (٣١).
(٣) سورة فاطر. الآية رقم (٢٨).
(٤) سور البينة. الآية رقم (٨).
(٥) سورة الرحمن. الآية رقم (٤٦).
(٦) سورة النازعات. الآيتان رقم (٤٠، ٤١).
(٧) سورة المؤمنون. الآية رقم (٦٠).
(٨) أخرجه الترمذى. وحسنه الألبانى.
(٩) يعنى نمشى فى رحاب السنة.

من الله تعالى... ذكر رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فقال: **«ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه دمعا. ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله»**. (١) وقال ﷺ: **«ما من عبد مؤمن تخرج من عينه دمعة وإن كانت مثل رأس الذبابة من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حر وجهه إلا حرمه الله على النار»**. (٢) ولذلك كان بعض الصالحين إذا بكى من خشية الله أخذ دموعه فمسح بها وجهه وما استطاع من جسده لعل الله أن يحرم ذلك على النار.

قال ﷺ: **«إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت – سقطت – عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة ورقها»** (٣).

ومن الأشياء التى تعين على الخوف من الله تعالى زيارة المقابر. فهل يتعظ الناس بمن سبقوهم إلى المقابر؟ وأنهم لم يأخذوا من الدنيا شيئا معهم! وأنهم تركوا ما جمعوه من حلال أو من حرام وراءهم ظهريا! ثم سئلوا عنه بينما تركوه لمن بعدهم، وربما تنعم به من كان لـه عدوا!! نعم قد يرث الإنسان عدوه فيبخل عليه حتى بدعوة يدعو لـه بها - الزوجة أليست تتنعم بما ترثه من زوجها وربما تزوجت بعده آخر وربما كان بينه وبين الأول عداوة. البنت أليست ترث أباها وتتنعم بهذا الميراث مع زوجها وربما كان بينهم عداوة. الابن أليس يتنعم بما يرثه عن أبيه وتشاركه امرأته التى كانت تكره حماها مثلا - والد زوجها - بل القرآن الكريم أظهر لنا ذلك. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوَهُمْ}** (٤) .

هل يعي هذا الذين يتكالبون على الدنيا ويتركونها لمن بعدهم لقمة سائغة بينما هم يشقون بحسابها؟ هل نذكر هذه المعاني ونحن نزور القبور فنعمل لهذا المكان مايجعله روضة من رياض الجنة بدلا من أن يكون حفرة من حفر النار؟... سأل تلميذ أستاذه النصيحة فقال لـه: احمل قبرك معك أينما كنت! ولم يفهم التلميذ مغزى هذه النصيحة فقال: وكيف أحمل قبري معي! فقال: أعنى أن تحمل فكرته لا أن تحمل تربته... فإذا ما حمل الإنسان فكرة القبر. وأنه بيت الوحشة وبيت الوحدة. وأن العمل الصالح هو الذي يجعله بيت الأنس وبيت التنعم بروضة من رياض الجنة كان ذلك أدعى إلى الاستعداد لـه.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه ابن ماجة والبيهقي.
(٣) رواه البيهقى. وفيه: (إذا اقشعر جلد العبد).
(٤) سورة التغابن. الآية رقم (١٤).

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه[١] قال: دخل رسول الله ﷺ مصلاه فرأى أناسا كأنهم يكترشون (يضحكون). فقال: **«أما إنكم لو أكثرتم ذكر هادم اللذات – الموت – لشغلكم عما أرى»**. فأكثر ذكر هادم - قاطع - اللذات فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: **«أنا بيت الغربة... أنا بيت الوحدة... أنا بيت الدود. فإذا دفن العبد المؤمن قال له القبر: مرحبا وأهلا. أما إنك كنت أحب من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليتك اليوم فسترى صنيعي بك. فيتسع له مد البصر ويفتح له باب إلى الجنة... وإذا دفن العبد الفاجر أو الكافر قال له القبر: لا مرحبا ولا أهلا. أما إنك كنت أبغض من يمشى على ظهري إلي. فإذا وليتك اليوم فسترى صنيعي بك. قال: فيلتأم – يضم بعضه إلى بعض – حتى تختلف أضلاعه. قال: فأخذ رسول الله ﷺ أصابعه فأدخل بعضها جوف بعض. قال: ويقيد له سبعون تنينا. لو أن واحد منها نفخ فى الأرض ما أنبتت شيئا ما بقيت الدنيا فتنهشه وتخدشه حتى يفضى به الحساب»**[٢].

ومن هنا فإن أكيس الناس ما كان ذاكرا للموت مستعدا لما بعده[٣]. فالموت هو الخطوة الأولى إلى عالم الخلود. وإنها لجنة أبدا أو النار أبدا... عجبت لمن أيقن بالموت ثم يفرح. وعجبت لمن أيقن بالنار ثم يضحك. وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها. وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل.

روى أن على بن أبى طالب كان عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية:**{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً}**[٤]. فقال: ما أظن الوفد إلا الركب يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ. كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان. فيشربون من إحداها فتغسل ما فى بطونهم من دنس. ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا. وتجرى عليهم نضرة النعيم. فينتهون أو فيأتون باب الجنة فإذا حلقة**

---

(١) روى الصحابى الجليل بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر رضى الله عنه. شهد الخندق وبيعة الرضوان وكثيرا من غزوات الرسول ﷺ. عرضه أبوه على النبى يوم أحد وهو ابن ثلاث عشرة سنة ليكون مع الجيش. لكن رسول الله ﷺ رده لصغر سنه. توفى سنة (٦٤) هـ وقيل سنة (٦٣).

(٢) الحديث بمعناه ذكرى المنذرى فى الترغيبي والترهيب. الجزء رقم (٤). الصفحة رقم (٣٦٢).

(٣) جاء هذا المعنى فى الحديث الذى رواه الطبرانى بإسناد حسن عن ابن عمر أن رسول الله سئل عن أكيس الناس وأحزم الناس فقال: (أكثرهم ذكرا للموت واستعدادا له...) صدق رسول الله ﷺ.

(٤) سورة مريم. الآيتان رقم (٨٥، ٨٦).

من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب. فيضربون بالحلقة على الصفحة فيسمع لها طنين بأعلى فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل. فتبعث قيمها – خادمها – فيفتح له. فإذا رآه خر له. قال مسلمة: أراه قال: ساجدا. فيقول: ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه ثم تقول: أنت حبي وأنا حبك.. وأنا الخالدة التى لا أموت.. وأنا الناعم فلا أبأس وأنا الراضية التي لا أسخط.. وأنا المقيمة التى لا أظعن. فيدخل الجنة فيرى بيتا من أسه – أساسه – إلى سقفه مائة ألف ذراع. بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق أحمر وأصفر وأخضر ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفى البيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون حشية. على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة. يرى مخ ساقها من وراء الحلل. يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تطرد. أنهار من ماء غير آسن – قال: صافى لا كدر فيه – وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضروع الماشية. وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعتصرها الرجال بأقدامهم. وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل. فسيتجلى الثمار فإن شاءا أكل قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء متكئا – ثم تلا:{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً}» فيشتهى الطعام فيأتيه طير أبيض - وربما قال: أخضر - فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء ثم تطير فتذهب. فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم.**{تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**. ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سوادا فى نور - أى لصار نورها أسود من شدة نور شعر الحوراء[1].

هل استعد كل واحد منا لهذا اليوم لينال هذا النعيم ولينجو من عذاب الجحيم؟ أم ما نزال الشهوات تأخذ بخناق الكثيرين منا فيقترفون من الآثام ما يعرضهم لغضب الواحد العلام؟!! ينبغى ألا يغتر أحد بمكان صالح يعيش فيه.. ولا بكثرة العبادة.. ولا بملازمة الصالحين.. ولا بكثرة العلم. فإن إبليس عليه اللعنة كان يعيش فى الجنة وكان يعبد الله مع الملائكة وكان له علم. ولكنه حينما عصى الله وأبى أن يسجد لآدم طرده الله من الجنة وحلت عليه اللعنة. وآدم عليه السلام كان كذلك لولا أنه هو وحواء تابا

---

(١) قال ابن كثير عند تفسير الآيتين رقمى (٨٥، ٨٦) من سورة مريم - فقد رويناه من كلام على أو هو أشبه بالصحة.

إليه وأنابا. وقال:**{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ}**(١).

أنواع الخوف من الله

ذكر الإمام الغزالي فى كتابه " إحياء علوم الدين " أن الخوف على ثلاثة أنواع: نوع قاصر. ونوع مفرط. ونوع معتدل...

(١) **أما الخوف القاصر**: فهو الخوف الوقتى عند سماع آية تتحدث عن النار أو مطالعة كتاب فيه ما يبعث الخوف. ولكن هذا الخوف يزول بزوال سببه. ويشبهه بالعصا الضعيفة التى تضرب بها دابة قوية فلا هى تسوقها إلى مقصد ولا يصلح لرياضتها... وهذا خوف العامة.

(٢) **وأما الخوف المفرط**: فهو الذي يجاوز الحد إلى اليأس والقنوط - ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون. ولا يقنط من رحمة ربه إلا القوم الضالون.

(٣) **أما الخوف المعتدل**: فهو يلازم الخائف ويذكره بقدرة الله وبطشه وجبروته ويكون ذلك حاجزا له عن معاصي الله. قال حنظله - صاحب رسول الله ﷺ -: **«كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت بها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فدنت منى المرأة وجرى بيننا من حديث الدنيا. فنسيت ما كنا عليه عند رسول الله ﷺ من الخوف والرقة. فخرجت وجعلت أنادى: نافق حنظله. فاستقبلني أبو بكر الصديق فقال: كلا لم ينافق حنظله. قد خلت على رسول الله ﷺ وأنا أقول: نافق حنظله. فقال رسول الله ﷺ: كلا لم ينافق حنظله. فقلت يارسول الله: كنا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا. فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك. فقال رسول الله ﷺ يا حنظله.. لو أنكم كنتم أبدا على تلك الحال لصافحتكم الملائكة فى الطريق وعلى فرشكم. ولكن يا حنظله ساعة وساعة»** (٢).

هذا هو الخوف المعتدل الذى لا يقلع المسلم من دنياه الحلال ولا تحوله إلى قانط يائس. ولعلنا نذكر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبى ﷺ: **«يسألون عن عبادتهم. فلما أخبروا بها كأنهم قد تقالوها – أى عدوها قليلة – فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ**

---

(١) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٣).

(٢) حديث شريف رواه مسلم.

وقد غفر الله لـه ما تقدم مـن ذنبـه وما تـأخر. فقـال أحـدهم: أما أنـا فأصـوم الـدهر ولا أفطـر. وقـال الثـاني: وأمـا أنـا فـأقوم الليـل ولا أرقـد. وقـال الثالـث: وأمـا أنـا فـلا أتـزوج النسـاء!! وبلـغ خبـرهم رسـول الله فقـال: مـا بـال أقـوام قـالوا كـذا وكـذا.. أمـا والله إنـي لأتقـاكم لله وأخشـاكم لـه وإنـي أصـوم وأفطـر.. وأصـلي وأرقـد.. وأتـزوج النسـاء.. هـذه سـنتي ومـن رغـب عـن سـنتي فلـيس منـي». [١] مـا أحـوج أمتنـا إلـى أن تخـاف الله فنكـف عـن معاصـي الله وعندئـذ تختفـي كـل المظـاهر السـلبية... فهـؤلاء هـم الـذين يطففـون الكيـل ويبخسـون الميـزان أنـاس ألا يخـافون الله!! -**{أَلاَ يَظُـنُّ أُوْلَئِـكَ أَنَّهُـم مَّبْعُوثُـونَ * لِيَـوْمٍ عَظِـيمٍ * يَـوْمَ يَقُـومُ النَّـاسُ لِـرَبِّ العَـالَمِينَ}**[٢] - وهـؤلاء الـذين يـأكلون أمـوال النـاس بالباطـل وبالرشـوة أو بالسـرقة أو بـالاختلاس أنـاس لا يخـافون الله. فـالله يقـول:**{وَلاَ تَـأْكُلُوا أَمْـوَالَكُم بَيْـنَكُم بِالْبَاطِـلِ وَتُـدْلُوا بِهَـا إِلَى الحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}**[٣].

وهـؤلاء الـذين ينتهكـون أعـراض المسـلمين بالفعلـة الشـنعاء وبالكلمـة الجارحـة وبـالنظرة الفـاجرة أنـاس لا يخـافون الله... وغيـر هـؤلاء كثيـرون. وغيـر أننـى أقـول إن الخـوف مـن الله لـيس خاصـا بالعصـاة والمـذنبين فقـط. بـل إن الله أهـل لأن يخـاف وأن يتقـى. وفـى معنـى الحـديث القدسـي عـن رب العـزة: **«أفلـو لـم أخلـق جنـة أو نـار أفلسـت أهـلا لأن أتقـى؟»**... بلـى يـارب أنـت أهـل التقـوى وأهـل المغفـرة. ولقـد قـال رسـول الله ﷺ عـن صـهيب رضـي الله عنـه: **«نعـم العبـد صـهيب! لـو لـم يخـف الله لـم يعـص»**. وهـذا نهايـة المـدح فصـهيب لـو افترضـنا جـدلا أنـه لا يخـاف الله فلـن يعصـه أبـدا!! فكيـف وهـو يخاف الله.

على كل منا أن يخـاف الله تعـالى. ويستعد للحسـاب. وليسـأل نفسه بين الحين والحين كمـا كـان عمـر رضـى الله عنـه يسـأل: **«ماذا تقول لربك غدا يوم القيامة إذا وقفت للحساب بين يديه؟»**... وعمر رضي الله عنه أحد المبشرين بالجنة. فكيف بنا؟؟

هنـاك أنـاس يجترئـون علـى المـال العـام. فيسـرقون ويختلسـون. ولا علـيهم إذا قـدموا " الفـواتير" لتسـديد حسـاباتهم. ولـم يعلمـوا أن الأخـذ مـن المـال العـام أشـد وأنكـي مـن الأخـذ مـن المـال الخـاص. فصـاحب المـال الخـاص قـد تسترضـيه أمـا أصـحاب المـال العـام فمـا

---

(١) متفق عليه وهو من رواية أنس.
(٢) سورة المطففين. الآيتان رقم (٤، ٥).
(٣) سورة البقرة. الآية رقم (١٨٨).

أكثر عددهم. فكل المنتفعين به هم أصحابه فكيف ترضى هؤلاء جميعا؟!!

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: **«قام فينا النبي ﷺ فذكر الغلول – يعنى الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها – وهى مال عام للمسلمين – فعظمه وعظم أمره. ثم قال. لا ألفين – لا أجد – أحدكم على رقبته فرس له حمحمة يقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. وعلى رقبته بعير له رغاء يقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك. أو على رقبته رقاع – أقمشة – تخفق فتقول: يا رسول الله أغثني. فأقول: لا أملك لك شيئا قد أبلغتك»** [1].

عن عمرين الخطاب قال: **«لما كان يوم خيبر. اقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها أو عباءة. ثم قال رسول الله ﷺ يا ابن الخطاب اذهب فنادي فى الناس أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. قال فخرجت فناديت: ألا لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»**. وملائكة الله تعالى وهم**{لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}**[2] وفيهم الراكع والساجد إلى ان تقوم الساعة يخافون ربهم من فوقهم. قال تعالى عنهم:**{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}** [3].

نسأل الله الخوف منه. والرجوع إليه وأن يتقبل منا صالح أعمالنا. وأن يغفر لنا خطايانا.

إنه نعم المولى ونعم النصير

* * * * *

---

(١) رواه البخارى ومسلم.

(٢) سورة التحريم. الآية رقم (٦).

(٣) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٢٧، ٢٨).

من أخلاق المؤمنين:

الرجــاء

{قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّـذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَـى أَنفُسِـهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ}.

الرجـــاء

خلق الرجاء ملازم لخلق الخوف من الله تعالى. ولا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر. والحق أنهما جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود. وبلطتان يقطع بهما فى طريق الآخرة كل عقبة كَؤُود... فالخوف هو الذى يردع من ارتكاب المعاصي. والرجاء هو الحب الذى يدفع إلى فعل الطاعات. والرجاء فى عفو الله ورحمته سمة من سمات المؤمنين. ذلك أن المؤمن لا يكمل الإيمان فى قلبه إلا إذا كان على يقين من لقاء الله عز وجل. وهو سبحانه وتعالى موصوف بالعفو والمغفرة وسعة الرحمة. ولو شك إنسان فى ذلك لحظة واحدة كان - والعياذ بالله – كافرا؛ ولذلك حذر القرآن الكريم من اليأس والقنوط لأن ذلك ينافى الرجاء والطمع فى رحمة الله. ولقد قال نبى الله إبراهيم عليه السلام:**{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}**[١]. ولما جاءته الملائكة ليبشروه عليه السلام بغلام عليم. وكانت سنه قد تقدمت وأصبح بحيث لا يستطيع الإنجاب من امرأته التى أصبحت عجوزا كما وصفت نفسها فقالت:**{أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}**[٢] ولما كانت قدرة الله لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء قالت الملا ئكة للسيدة سارة:**{أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ}**[٣] وقالت الملائكة لإبراهيم عليه السلام**{بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ القَانِطِينَ}**[٤]. وأسرع إبراهيم فنفى عن نفسه القنوط فقال:**{وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ}**[٥].

(١) سورة الشعراء. الآية رقم (٨٢).
(٢) سورة هود. الآية رقم (٧٢).
(٣) سورة هود. الآية رقم (٧٣).
(٤) سورة الحجر. الآية رقم (٥٥) - ومعنى القانطين أى الآيسين من الخير أو الولد.
(٥) سورة الحجر. الآية رقم (٥٦).

الرجاء في القرآن والسنة

تعالوا بنا نستعرض الآيات التي تتحدث عن خلق الرجاء. ونجد من ذلك قوله تعالى:**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ}**[١]. وهذه الآية الشريفة - كما يقول العلماء - أرجى آية في كتاب الله تعالى.

ويذكر ابن كثير أن البخاري روى عن ابن عباس رضي الله عنه أن أناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا القتل. وزنوا فأكثروا. فأتوا محمد ﷺ فقالوا: **«إن الذي تقول وتدعو له لحسن. لو تخبرنا أن لما عملناه كفارة. فنزل قوله تعالى:{وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}**[٢]. ونزل أيضا قوله تعالى:**{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ}**... فأنت تجد أن هذه الآيات تفتح باب التوبة واسعا أمام كل من اقترف سيئة. فالله: **«يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار حتى تطلع الشمس من مغربها»** [٣].

ومن الآيات التي تحث على الرجاء قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ**{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}**[٤]. وورد أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أرضى وواحد من أمتي في النار»**. وصدق القائل حيث يقول:

ألـم يعطـك الـرحمن فـي سـورة الضـحى ::: فحاشـاك أن ترضـى وفينـا معـذب[٥]

وفي تفسير قوله تعالى:**{يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ}** [٦]أن الله قال لرسوله ﷺ: **«إني جاعل حساب أمتك إليك. قال: لا يارب.. أنت أرحم بهم مني. فقال: إذن لا نخزيك فيهم»**..وغير ذلك كثير.

---

(١) سور الزمر. الآية رقم (٥٣)... رأيت فضيلة الوالد - رحمه الله - بعد وفاته فسألته: ماذا فعل الله بك؟ فتلى علي هذه الآية: (إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم)... نسأل الله الرحمة والمغفرة... آمين.

(٢) سورة الفرقان. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠).

(٣) حديث شريف رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى رضى الله عنه.

(٤) سورة الضحى. الآية رقم (٥).

(٥) وقال آخر:

لقـد قرأنـا فـي الضـحى ولسـوف ::: تعطـى فسـر قلوبنـا هـذا العطـاء

وحاشـى يـا رسـول الله ترضـى ::: وفينـا مـن يعـذب أو يسـاء

(٦) سورة التحريم. الآية رقم (٨).

ومن السنة النبوية الشريفة ما ورد في الصحيحين ما معناه أن رجلا قتل تسعا وتسعين نفساً. ثم ندم وسأل عن أعبد أهل الأرض فدلوه على عابد. فقال له: هل لي من توبة؟ فقال له: لا. فقتله وأكمل المائة. ثم قال: دلوني على أعلم أهل الأرض. فدلوه على عالم فسأله: هل لي من توبة؟ فقال له: ومن يحول بينك وبين التوبة! ولكن اذهب إلى قرية أخرى واعبد الله مع أهلها، فذهب وفى أثناء سيره أدركته الوفاة. فنزلت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فاختصموا فيه. فأرسل الله ملكا وحكم بينهم أن قيسوا المسافة من مكان موته إلى القرية التي هاجر إليها. وإلى التي يهاجر إليها. فإذا وجد إلى أي الفريقين أقرب أخذته ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب. ولما قاسوا وجد أنه أقرب إلى القرية التي خرج مهاجرا إليها. فأخذته ملائكة الرحمة... فهذا رجل قد قتل مائة نفس. ولكنه تاب إلى الله. فقبل الله توبته وتولته ملائكة الرحمة(١)... فأى رجاء في رحمة الله بعد هذا. والله رب غفور بنا.

روى الإمام أحمد بسنده ما معناه: أن شيخاً كبيراً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يتكئ على عصاه. فقال: يارسول الله.. إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي. وقال ﷺ ألست تشهد ألا إله إلا الله؟ قال: بلى وأشهد أنك رسول الله. فقال ﷺ: قد غفرت لك غدراتك وفجراتك(٢).

وفى حديث قدسي: **«إن العبد إذا أذنب ذنبا فاستغفر الله. يقول الله لملائكته: انظروا إلى عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب. أشهدكم أنى قد غفرت له»** (٣).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله... إنى لا أصوم إلا الشهر - أي شهر رمضان - ولا أزيد عليه، ولا أصلى إلا لخمس ولا أزيد عليها. وليس لله في مالي صدقة - يعنى أنه فقير. ولا حج ولا تطوع. فأين أنا إذا أذنبت؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال نعم... معى إذا حفظت قلبك من اثنتين: الغل والحسد. ولسانك من اثنتين: الغيبة والكذب. وعينك من اثنتين: النظر إلى ماحرم الله. وأن تزدرى بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى سعيد الخدرى.

(٢) وفى رواية البزار والطبرانى أن رسول الله قال له بعد أن أقر الرجل بالشهادتين: (تفعل الخيرات. وتترك السيئات. فيجعلهن الله لك خيرات كلهن). فقال الرجل: (وغدراتى وفجراتى). فقال النبى: (نعم). فقال الرجل: (الله أكبر. فما زال يكبر حتى توارى).

(٣) حديث شريف متفق عليه ذكره النووى فى رياض الصالحين.

الرجاء المقبول

وليس معنى الدعوة إلى رجاء الله لرحمته أن نترك العمل وأن ننغمس فى الشهوات... لا. فهذا تجرؤ على الله وتعطيل لشعائر الله وشرائعه. فلا بد من العمل ولابد من التذلل لله والتقيد بأوامره. ولكن إذا زلت القدم وامتحن المؤمن فى ضعفه. فضعف أمام الدنيا وأمام النفس الأمارة بالسوء ووسوسة الشيطان الرجيم. فليس لـه أن ييأس من رحمة الله. ولكن عليه أن يتذكر أن عليه أن يعود إلى جناب الله وإلى طاعته تائبا نادما. وعندئذ يجد رحمة الله فى انتظاره - إن رحمة الله قريب من المحسنين - فليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل. وأن أناسا ألهتهم أماني المغفرة. وقالوا نحسن الظن بالله... وكذبوا لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل.

ويضرب الإمام الغزالي مثلا يفرق بين الرجاء وبين الحق في الاعتماد على رحمة الله تعالى بدون عمل. فيقول: (ينبغي أن يقاس رجاء العبد بالمغفرة برجاء صاحب الزرع. فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذراً طيباً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء في أوقاته. ثم نقى الأرض من الشوك والحشائش وكل مايمنع نبات البذور ويفسده. ثم جلس ينتظر من الله تعالى دفع الصواعق والآفات إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته... فهذا الذي يسمى انتظاره رجاء. وأما من بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء. ولم يشتغل بتعهد البذور أصلا. ثم انتظر إلى الحصاد.. سمى انتظاره حمقا وغرورا) فالأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ::: إن السفينة لا تجرى على اليبس

وقال أحد الصالحين: من أعظم الاغترار عندي. التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة. وتوقع القرب من الله بغير طاعة. وانتظار زرع الجنة ببذر النار. وطلب دار المطيعين بالمعاصي. وانتظار الجزاء بغير عمل. وما أكثر الحمقى في دنيا البشر. يحكم أحدهم على شهوته وتحاول أن تذكره بالحلال والحرام وبالجنة والنار فيقول لك - إن الله غفور رحيم. وربما يتحجج أحدهم فيقول: (خذني على جناحك)! ولهذا وأمثاله نقول: نعم إن الله غفور رحيم وهو أيضا شديد العقاب. يقول الله تبارك تعالى:**{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ}** (١). ويقول عز من قائل:**{إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ}** (١). إذن

---

(١) سورة الحجر. الآيتان رقم (٤٩، ٥٠).

فالدائرة التي يدور فيها الرجاء ذنب يرجو العبد غفرانه. وعيب يرجو إصلاحه. وعمل صالح يرجو قبوله. وتقرب إلى الله تعالى يرجو أن يحظى به. فهذا هو الرجاء الذي يتسق مع قول الله تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ}**. فقد وصفت الآية الراجين بأنهم مؤمنون... مهاجرون... مجاهدون. فلا يوجد رجاء بدون عمل. وقد ذكر القرآن الكريم أمثلة للراجين بدون عمل. ومن هؤلاء صاحب الجنتين الذي ورد ذكره فى سورة الكهف - قال تعالى:**{وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً}** - ماذا قال الرجل الغنى لصاحبه الذي قال له:**{أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً}**. ذكره بأن الله هو الذي خلقه من تراب وهو الذي رزقه.. فعليه أن يعبده. لكنه قال:**{أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً}**. وقد يكون ذلك صحيحاً. فهو أكثر مالاً وهو أعز نفرا. لكن غير الصحيح أن يقول له:**{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً}**[٢]. هذا هو الحمق بعينه. كيف يكفر بالله - فيقول:**{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}** - ثم يدعى بعد ذلك أنه إذا رجع إلى ربه فسوف يجد ما هو أفضل من جنته... هذا هو الرجاء بدون عمل. وهو مردود على صاحبه.

وهناك مثالاً ثانياً... وهو لليهود الذين يحرفون الكلم ويتعاملون بالربا ويستحلون الرشاوى. ثم يقولون:**{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}**. ويقولون**{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}**[٣]. والقرآن رد عليهم بقوله:**{قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}** ويقول الله تعالى:**{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الحَقَّ}**[٤]. ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: أن اليهود كانوا يستحلون الرشا. فكلما ولوا قاضياً أخذوا عليه العهد ألا يأخذ رشوة. فكان إذا سنحت له الفرصة أخذها وقال: سيغفر الله لى. وإذا عينوا قاضيا آخر أخذوا عليه نفس العهد. فأخذ الرشوة وقال: سيغفر الله لى.

وهناك مثال ثالث تشير إليه الآية الكريمة:**{أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً**

---

(١) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٧).
(٢) كافة تفاصيل القصة مذكورة بسورة الكهف بداية من الآية رقم (٣٢) وحتى الآية رقم(٤٤).
(٣) سورة البقرة. الآية رقم (٨٠).
(٤) سورة الأعراف. الآية رقم (١٦٩).

* **أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً}...** [١] والآية تتحدث عن العاص بن وائل والد سيدنا عمرو بن العاص. فقد كان عليه دين لخباب بن الأرت. ولما ذهب خباب ليتقاضي دينه قال له العاص: في الآخرة سوف يؤتيني الله مالاً كثيراً وأولاداً كثيرين وسوف أقضيك دينك. فنزل قوله تعالي: **«كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا»**[٢].

وخلاصة ما أريد أن أقرره أن العمل والرجاء مقترنان. وأن الرجاء وحده لا يغني عن العمل. قال تعالي: **«فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا»** [٣]. فقد أثبت لهم العمل الصالح والبعد عن كل مظاهر الشرك. وهكذا فالرجاء والعمل مطلوبان من المؤمن...

قال أحد محبي الإمام الشافعي: دخلت علي الشافعي أعوده في مرضه الذي مات فيه. فقلت له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً. ولإخواني مفارقاً. ولكأس المنية شارباً. ولا أدري إلي الجنة تسير روحي فأهنيها. أم إلي النار فأعزيها. ثم قال:

ولما قسي قلبي وضاقت مذاهبي ::: جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ::: بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وهنا قد يثور سؤال مؤداه: هل العبادة مع الخوف أفضل أم العبادة مع الرجاء؟ والجواب: أن العمل مع رجاء قبوله أفضل من العمل مع الخوف من رده. فالحب سبب الرجاء وأحب الخلق إلى الله أكثر له حبا. ونضرب لذلك مثلا فنقول: هب أن لك خادمين أحدهما يقوم بخدمتك بدافع الحب والآخر يقوم بنفس الخدمة ولكن لخوفه من أن تعاقبه. فلاشك أن الخادم الأول أفضل لأن الذي يدفعه لخدمتك حبه لك. وأما الثاني الذي يخدم بدافع الخوف من العقاب فإنه قد يقصر إذا أمن عقابك.

ويروى في ذلك أن رجلين كانا متساويين في العبادة فلما دخلا الجنة رفع أحدهما أعلى من الآخر. فقال الذي درجته أقل يارب: ما كان هذا بأكثر عبادة منى فلماذا رفع أعلى منى. فيقول الله له: هذا كان فى الدنيا يسألني الدرجات العالية وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل واحد ماسأله. وقد قال رسول الله ﷺ: **«سلوا الدرجات العلا فإنما تسألون كريما»**. وقال ﷺ أيضا: **«إذا سألتم الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاظمه شيء»**.

(١) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٧، ٧٨).
(٢) سورة مريم. الآيتان رقم (٧٩، ٨٠).
(٣) سورة الكهف. الآية الأخيرة.

ومع ذلك فينبغي للمؤمن أن ينظر في أمر نفسه. فإذا كان الغالب على نفسه اليأس والقنوط. فالرجاء أفضل. فإذا كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله والاعتزاز بما يفعل فالخوف أفضل... فهما متلازمان. ولتفضيل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا نقول: هل الخبز للإنسان أفضل أم الماء؟ ولا تستطيع أن تفضل أحدهما على الآخر تفضيلا مطلقا. فالخبز أفضل للجائع. والماء أفضل للظمآن. فهذا المثل يقرب لك معنى الخوف والرجاء غير أننا نقول: في حالة واحدة يحسن أن نفضل الرجاء على الخوف. وتلك هي حال الاحتضار حينما يحس الإنسان بدنو أجله عليه أن يحسن الظن بالله. ومما رواه مسلم عن جابر قال رسول الله ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى»** [1]... وحضرت الوفاة أحد الصالحين فسأله أحد عواده: كيف ظنك بالله يافلان. فقال: ظني بالله والله حسن. فقال له: أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: **«أنا عند حسن ظن عبدي بى.. إن ظن خيرا فله. وإن ظن شرا فله»**[2]. ولذلك لما حضرت الوفاة الإمام أحمد قال لابنه: (أذكر لي أحاديث الرجاء).

فيما عدا حال الاحتضار - وقت خروج الروح - فالعبد عليه أن يكون بين الخوف والرجاء. قال الإمام على - كرم الله وجهه: «خف الله خوفا ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك. وارج الله رجاء ترى لو أنك أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك». وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: **«لو يعلم المؤمن ماعند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد. ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من جنته»**.

ومن حديث أنس أن أعرابيا قال: **«يارسول الله.. من يلي حساب الخلق؟ فقال النبي ﷺ الله تبارك وتعالى. فقال الأعرابي: هو بنفسه؟ قال ﷺ: نعم. فتبسم الأعرابي. فقال النبي ﷺ مم ضحكت يا أعرابي؟ فقال: إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح. فقال النبي ﷺ: صدق الأعرابي. ألا لا كريم أكرم من الله. ثم قال ﷺ: فقه الأعرابي»**.. هذا هو حسن الظن بالله تعالى. أما سوء الظن به فسوء أدب مع الله تعالى. فقد عير الله قوما فقال:**{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الخَاسِرِينَ}**[3]. وقال تعالى:**{وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً}**[4]. إن

(١) الحديث رواه مسلم وأبو داود.
(٢) القصة رواها ابن حبان فى صحيحه والبيهقى وأحمد فى مسنده. والمحتضر هو أبو يزيد بن الأسود. والذى سأله هو واثلة بن الأسقع.
(٣) سورة فصلت. الآية رقم (٢٣).
(٤) سورة الفتح. الآية رقم (١٢).

الرجاء وحسن الظن بالله تعالى ينزل على قلوب البائسين بردا وسلاما. فيطفئ ما في قلوبهم من قنوط. إنه نسمة ندية ترطب جفاف حياتهم. وما أصدق من قال:

أعلـــل الـــنفس بالآمـــال أرقبهـــا ::: مـا أضـيق العـيش لـولا قسـمة الأمـل

وقال آخر:

لـــولا التعلـــق بالرجـــاء تقطعـــت ::: نفـــس المحـــب تحســـرا وتمزقـــا
لـولا الرجـاء يحـدو المطـى لمـا سـرت ::: بحمولهـــا لـــديارهم ترجـــو اللقـــا[١]

واستمع إلى هذه المناجاة من أحد الصالحين حيث يقول: (إلهي! أحلى العطايا في قلبي رجاؤك. وأعذب الكلام على لساني ثناؤك. وأحب الساعات إلي ساعة يكون فيها لقاؤك). [٢]

وإنـــي لأرجـــو الله حتـــى كـــأنني ::: أرى بجميـــل الظـــن مـــا الله صـــانع

---

(١) ليس الرجاء فقط فى مغفرة الله للذنوب. بل المسلم يرجو اليسر بعد العسر. والرزق بعد الفقر. والسعة بعد الضيق. والخير بعد الشر... وهكذا. قال الشاعر:
هـــى الأيـــام والغيـــر وأمـــر الله ينتظـــر ::: أتيـــأس أن تـــرى فرجـــا فـــأين الله والقـــدر؟

(٢) موسوعة أخلاق القرآن المجلد الأول. الصفحة رقم (٢٢٦).

ثمرات الرجاء

وأركز بعض ثمار الرجاء فيما يأتي:

١ - إن الرجاء يجعل قلب الراجي موصولاً بربه. بعكس الساخطين البائسين فإنهم انصرفوا عن جنات الله. وما أسهل أن يقعوا فريسة فى مخالب الشيطان حينما يطرح عليهم شباكه. إن الأمل في طلوع الفجر يهون مشاق المسير في ظلام الليل.

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ::: يكون وراءه فرج قريب

٢ - إن الرجاء في قبول الله العبادة من العابد تجعله يقبل عليها بحب. وهل شرع الدعاء إلا ليغرس بذرة الأمل في قلب نزلت به شدة. قال تعالى:**{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}**... فانظر كيف وصف الدعاء بأنه العبادة؟ بل ورد عن النبي ﷺ: **«أنه مخ العبادة. ومن لم يسأل الله يغضب عليه. و إذا أكرم الله عبده بقبول دعائه ازداد في الله حبا. وإليه قربا. وعليه اعتمادا»**...

أتاك على قنوط منه لطف ::: يمن به اللطيف المستجيب
فكل الحادثات إذا تناهت ::: فموصول بها الفرج القريب

٣ - أن الرجاء يصل بصاحبه إلى حب الله تبارك وتعالى. فليس من المعقول أن يرجو العبد من لايحبه... فكلما كثر رجاء العبد بربه ازداد حبه لله تعالى ورضي عنه وشكر له[١].

أسأل الله أن يمتعنا بنعمة الرجاء فيه والإنابة إليه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

* * * * *

(١) من ثمرات الرجاء أيضا مغفرة الذنوب... حكى أن القاضى يحيى ابن أكثم مات. فرآه أحد أصحابه وقال له: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر لى ووبخنى وقال لى: يا يحيى.. قد خلطت علي فى الدنيا. فقلت: يا رب... اتكلت على حديث: (إن الله يستحى من عبده وأمته يشيبان فى الإسلام أن يعذبهما). فقال لأى: عفوت عنك - الرسالة القشيرية. الصفحة رقم (٢١). وروى مالك بن دينار فى المنام فقيل له: ماذا فعل الله بك؟ قال: قدمت على ربى بذنوب كثيرة محاها عنى بحسن ظنى به تعالى.
ومن ثمرات الرجاء أيضا أن الله يكون مع الراجى. قال تعالى فى الحديث القدسى: (أنا مع ظن عبدى بى. فليظن عبدى بى ماشاء). فإذا ظن العبد بربه خيرا لقى خيرا. وغذا ظن به شر ناله سوءا.
وترك الرجاء مع العمل سوء أدب من العبد مع ربه. جاء فى معنى الحديث الشريف: (إن أعظم الذنوب عند الله أن يفيض الحاج من عرفة وهو يظن أن الله لن يغفر له).

من أخلاق المؤمنين:

الحلــم

{أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ يَعْلَـمُ مَـا فِـي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِـي الأَرْضِ مَـا يَكُـونُ مِـن نَّجْـوَى ثَلاثَـةٍ إِلاَّ هُـوَ رَابِعُهُـمْ وَلاَ خَمْسَـةٍ إِلاَّ هُـوَ سَـادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَـى مِـن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَـرَ إِلاَّ هُـوَ مَعَهُـمْ أَيْـنَ مَـا كَـانُوا ثُـمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَـا عَمِلُـوا يَـوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

الحلـــم

الحلم هو الأناة والتعقل وضبط النفس. والصبر عند هيجان الغضب. وهو احتمال الأذى ممن هو دونك مع القدرة عليه. ولا يسمى المرء حليما إلا إذا كان حلمه طبعا لا تكلفا، والخطوة الأولى للحلم هو التحلم كما قال النبي ﷺ: **«إنما العلم بالتعلم. والحلم بالتحلم»**. والحلم صفة من صفات الله. ومن أسمائه أنه الحليم... ومن مظاهر حلم الله على عباده أنه يراهم حيث نهاهم ويفتقدهم حيث أمرهم. ومع ذلك لا يعجل لهم العقوبة. وهم يتقلبون في نعمه حيث سخر لهم هذا الكون كله من مجرى الأفلاك في السماء إلى مسبح الأسماك في الأرض. ومع ذلك يعبدون غيره ويشكرون سواه!

انظر إلى الحبة التي تلقى في باطن الأرض. من الذي يوفر لها الدفء والحرارة؟ ومن الذي يمدها بأسباب النماء والبقاء؟ هل يستطيع إنسان أن يزعم غيره؟ قال عز من قائل:**{أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً}**(١). وانظر إلى شربة الماء واسأل نفسك من الذي أنزلها لك من السماء؟ واتل قول الله تعالى:**{أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً}** (٢)... فالطعام أخرجه الله من الأرض والماء أنزلــه من السحاب. ومع ذلك نعبد غيره ونشكر سواه. والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الحلم.. وضبط النفس.. وكظم الغيظ. وكلها معاً متقاربة تدعو إلى الأناة وعدم التعجل. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}**(٣). فهذا أسلوب كريم وتوجيه حكيم يدعو المؤمنين إلى أن يملكوا زمام أنفسهم عند سماع ما يهيج غضبهم ويثير حفيظتهم. وعليهم أن يتبينوا وإلا فإنهم إذا تسرعوا أصبحوا نادمين على ما فرط منهم... قد يسمع الإنسان كلمة طائشة من إنسان أخرق أو يقابل بتصرف أحمق. فيغضب ويثور وينفعل ويقابل السيئة بالسيئة. لكن الحليم هو الذي ينجو

---

(١) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٣، ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٦٨، ٦٩، ٧٠) - ومن بلاغة القرآن الكريم فى هذه الآيات: أن الله ذكر لام التوكيد فى مسألة الزرع فى قولــه: (لو نشاء لجعلناه) ولم يذكرها حين تحدث عن نزول الماء من السحاب (لو نشاء جعلناه)... والحكمة أن الإنسان ربما سولت لــه نفسه أن يزعم أنه هو الذى أنبت الزرع لأنه حارث الأرض وواضع البذور وساقيها. فجاء التأكيد باللام حتى لا يجرؤ أحد على هذا. وفى نزول الماء لم تذكر اللام لأنه من المستحيل أن يدعى أحد أنه قادر على تجميع السحاب أمره بنزول أمطار حيث شاء وأراد. وبالتالى لم تكن هناك للتأكيد. والله أعلى وأعلم.

(٣) سورة الحجرات. الآية رقم (٦).

من ذلك فلا يصبح ألعوبة في يد الشيطان. حيث يلقى في وجهه جمرة الغضب ويضله عن التفكير السليم. والتصرف الكريم الذي يليق بالمؤمن الذي رضي بالله رباً. وبالإسلام ديناً. وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

روى أبا هريرة أن النبى ﷺ قال: **«ليس الشديد بالصرعة**[١] **وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»** [٢]... ولقد كان رسول الله ﷺ القدوة المثلى في الحلم...: **«كان رسول الله ﷺ يقسم الغنائم يوم حنين فجاءه أعرابي. فقال يا نبي الله اعدل – أي اقسم بالعدل في توزيع الغنائم – فقال له النبي ﷺ: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدل؟! فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل. وغضب عمر لهذه الإهانة التي صدرت من هذا الأعرابي لرسول الله ﷺ الذي لم يتأدب هذا الأعرابي في مخاطبته. وقال: يا رسول الله ألا أضرب عنقه فإنه منافق. فقال النبي الحليم الكريم: معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابي»** [٣]...

هذا الأعرابي يوجه هذا الاتهام الباطل لسيد الخلق ﷺ أما الناس وعلى رءوس الأشهاد. ومع ذلك لم يقل لـه الرسول العظيم شيئا وإنما يقول عن نفسه: **«فقد خبت وخسرت إذا لم أعدل»**. وهو ﷺ لا يقابل السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح... ﷺ وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله. يا من أدبك ربك فأحسن تأديبك. لقد كنت قرآنا يمشي على رجلين. وكان خلقك القرآن كما وصفتك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها. أليس ما فعلته مع هذا الأعرابي تفسيرا عمليا راشدا لقولـه تعالى:**{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ}**[٤]. وكان هذا من الجاهلين للأدب الذي أدبنا الله به في حضرة رسول الله ﷺ. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ}** [٥]. وهذا لم يرفع صوته قط. وإنما رفع صوته واتهم الرسول ﷺ بعدم العدل. فقد أساء الأدب وتعدى طوره وجاوز حده الذي كان يجب عليه أن يقف عنده ولا يتخطاه.

يروى عن سليمان عليه السلام أنه قال: **«القاهر لنفسه أشد من أن يفتح مدينة لوحده»**.

---

(١) بضم الصاد المشددة وفتح الراء. وهو المصارع الذى يصرع الرجال ولا يصرعونه.
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) الحديث بمعناه فى الصحيحين من رواية أنس بن مالك.
(٤) سورة الأعراف. الأية رقم (١٩٩).
(٥) سورة الحجرات. الآية رقم (٢).

والمعنى أن الذي يستطيع أن يسيطر على نفسه عند الغضب. فيكفها عن آثاره يكون أقوى من إنسان استطاع أن يفتح مدينة واحدة. وهذا حق منه. ذلك لأن كثيرين ممن يفتحون المدن ويحصلون على الأوسمة والنياشين لبطولتهم وقوتهم قد لا يستطيعون أن يسيطروا على شهواتهم أمام إغراء امرأة تسحرهم بجمالها. أو أمام قدح من الخمر يذهب بلبهم... وبذلك يصبحون أسرى شهواتهم وعبيداً لنزواتهم. إن الإنسان الحليم الذي لا يعجل وإنما يتأنى. ولا يقابل السيئة بالسيئة. ولكنه يغفر ويصفح. هذا الإنسان يكون محبوباً من الله ومحبوبا من الناس. قال تعالى:**{وَلاَ تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**(١)... انظر كيف رتب القرآن على مقابلة السيئة بالحسنة. وكيف أن من يصفح عنه يكون صديقا حميما لمن أساء إليه. ثم يقول إن هذه منزلة عالية لا يصل إليها إلا الصابرون أصحاب الحظ العظيم. ويقول الرسول ﷺ: **«ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله. وحلم يكف به السفيه. وخلق حسن يعيش به في الناس»**.

وقد حدد النبي ﷺ ثلاث صفات من لم يتصف بواحدة منهن فلا قيمة لما عمله:

الأولى: تقوى الله التي تقف حاجزا بين العبد وبين معاصي الله. فالتقوى هي أن يجعل المتقى بينه وبين معاصي الله وقاية تمنعه من أن ينحدر إلى مستنقع الرذيلة لأنه على ذكر لله:**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ}**(٢).

الثانية: حلم يكف به السفيه. وما أكثر السفهاء الذين يقابلهم الإنسان في حياته. فلو أنه قابلهم بسفه يرد به سفاهتهم لتكدرت حياته وأظلمت معيشته وتدخل الشيطان بينه وبينهم. ولكنه إذا قابل ذلك بالحلم الذي يمنع هذا السفه لكان ذلك راحة لقلبه. حيث يعلم أن الله يقيض له ملكا يرد عليه. وهل يستطيع إنسان أن يرد كما يرد الملك؟... يروى أن أبا بكر - رضي الله عنه - كان جالساً مع رسول الله وكان في المجلس رجل يسيء إلى أبى بكر بالكلام. وسكت أبو بكر مرة ومرة. وفى الثالثة رد أبوبكر على الرجل. فقام الرسول ﷺ من المجلس. وفطن الصديق إلى أن الرسول ﷺ قد أغضبه ذلك. فقال: يا رسول الله... أغضبت علي لأني رددت على الرجل. فقال النبي ﷺ مامعناه: قد كان هناك ملك يرد عنك وأنت ساكت. فلما انتصفت لنفسك

---

(١) سورة فصلت. الآيتان رقم (٣٤، ٣٥).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٠٢).

ذهب الملك وجاء الشيطان. وما كنت لأجلس فى مكان به شيطان.

الثالثة: خلق يعيش به بين الناس. فصاحب الخلق الحسن محبوب من الله والناس. يقول النبي ﷺ: **«ألا أدلكم على أقربكم منى مجلسا يوم القيامة؟ أحسنكم أخلاقا. الموطئون أكنافا. الذين يألفون ويؤلفون»**(١).

وأولى الناس بحلمك أيها المؤمن إنما هم أهل قرابتك. فكن حليما معهم وتجاوز عن سيئاتهم وزين نفسك بخلق الحلم وتآلفهم به. جاء رجل إلى النبي وقال: **«يا رسول الله.. إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني. وأحسن إليهم ويسيئون إلي. وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال ﷺ: إن كنت كما تقول فكأنما تسفهم المل – أي كأنما تطعمهم الرماد الحار – ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك»** (٢). وقال رجل من صحابة رسول الله ﷺ: اللهم ليس عندي صدقة أتصدق بها. فأيما رجل أصاب من عرضي شيئا فهو عليه صدقة. فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ: أني قد غفرت لـه.

تذكر أخي المسلم أن الله تبارك وتعالى قال فى أوصاف عباد الرحمن:**{الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً}**(٣)... فإذا غضبت وقدرت على إنفاذ غضبك فدعه لله. فإذا ذكرت الله عند غضبك على الناس ذكرك الله عند غضبه عليك - كما جاء ذلك فى الحديث القدسي: **«عبدي إذا غضبت على الناس فاذكرني أذكرك عند غضبى»**.

والجزاء من جنس العمل. ولكن شتان بين ذكر العبد وذكر الرب. إن ذكر الله يكون بالعفو والصفح. والنجاة من نار وقودها الناس والحجارة. ودخول جنة عرضها السموات والأرض أكلها دائم وظلها ممدود.

تروى السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنه قالت: **«يا رسول الله... هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟ فقال ﷺ: لقد لقيت من قومي. وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال. فلم يُجيبنى إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهي. فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب – اسم مكان – فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أظلتني. فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام. فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك. وما**

---

(١) رواه الطبراني والبزار من حديث أبى هريرة.
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة الفرقان. الآية رقم (٦٣).

ردوا به عليك. وأن الله قد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيه. فناداني ملك الجبال فسلم على فقال: يا محمد.. إن الله قد سمع قول قومك لك. وأنا ملك الجبال. وقد بعثني ربى إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت.. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا» [(١)].

هذا بعض ما لقيه رسول الله ﷺ من قومه. وكيف مكنه الله تعالى أن ينتصف لنفسه بأن جعل ملك الجبال يأتمر بأمره. ولو لم يكن النبي ﷺ حليما لانتصر لنفسه. وكانت الجبال وما أثقلها وما أضخمها على رءوسهم بحيث لا تبقى ولا تذر منهم أحدا. لكنه الحليم الذي رجا أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئا. وقد حقق الله رجاء نبيه وهدى قومه. وحاربوا معه ﷺ. وأخرج الله من أصلابهم العباد والزهاد. وكل ذلك ببركة حلم رسول الله ﷺ. ولما نزل قوله:**{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ}**. قال النبي ﷺ: يا جبريل. ما هذا؟ فقال جبريل: لا أدرى حتى أسأل الله. ثم عاد جبريل وقال: يا محمد. إن ربك يأمرك أن تصل من قطعك. وتعطى من حرمك. وتعفو عمن أساء إليك.

يحكى أن أحد الصالحين دعا خادمه ليصب عليه الماء ليتوضأ. فوقع الإبريق من الخادم فى الطست فأصاب الماء الرجل. فلما ظهرت عليه أمارات الغضب وخاف الخادم وقال: يا سيدي. يقول الله تعالى:**{وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ}**. فقال كظمت غيظي. فقال الخادم:**{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}**. فقال: عفوت عنك. فقال الخادم:**{وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ}**. فقال: اذهب وأنت حر لوجه الله تعالى[(٢)]... والسيدة عائشة رضي الله عنها قد اغتاظت على خادم لها ثم رجعت إلى نفسها وقالت: (لله در التقوى ما تركت لدى غيظ شفاء) تعنى أن التقوى تجعل المتقى لا يشفى غيظه. وإنما يترك ذلك لله تعالى.

ويوم القيامة إذا جمع الله الأولين والآخرين. نادي مناد: أين أهل الفضل؟ فيقوم ناس وينطلقون سراعا إلى الجنة. فيقولون لهم نحن أهل الفضل: فتقول الملائكة: ما فضلكم؟ فيقولون: كنا إذا ظلمنا - ظلمنا غيرنا - صبرنا... وإذا أسيء إلينا عفونا.. وإذا جهل علينا حلمنا. فيقال لهم:**{ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}**[(٣)].

---

(١) القصة رواها البخارى فى صحيحه - كتاب بدء الخلق - ومسلم باب ما لقى النبى من أذى المشركين.

(٢) ما قاله الخادم هو الآية رقم (١٣٤) من سورة آل عمران.

(٣) رواه الأصبهانى من حديث عمر بن شعيب ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. وأشار إليه بصفة الضعيف.

من سير الحلماء

وما أحلى أن نذكر بعضا من سيرة الحلماء لتكون لهم بهم أسوة... فمن ذلك أن رجلاً ضرب رجلاً حليماً على رجله حتى أوجعه. فلم يغضب عليه. فقيل لـه في ذلك. فقال: أقمته مقام حجر تعثرت فيه، فذبحت الغضب... قال رجل لابن هبيرة كلاما بذيئا فأعرض عنه. فقال لـه الرجل: إياك أعنى. فقال ابن هبيرة: وعنك أعرض... وشتم رجل الشعبي. فقال الشعبي: إن كنت أنا كما قلت فليغفر الله لي. وإن لم أكن كما قلت فليغفر الله لك - فهل رأيت حلماً كهذا الحلم. إنه يدعو لمن يشتمه لو كان الرجل كاذباً ويستغفر لنفسه إذا كان الرجل صادقاً...

وقال رجل لضرار بن القعقاع: والله لو قلت كلمة واحدة لأسمعتك عشرا. فقال ضرار: ولكنك لو قلت عشرا ما أسمعتك كلمة واحدة... وجعل رجل يسب الأحنف بن قيس وهو يماشيه فى الطريق. فلما اقتربا من المنزل وقف الأحنف وقال لـه: يا هذا إن كان قد بقى معك شيء فقله هاهنا فإني أخاف إن سمعك فتيان الحي أن يؤذوك... وقيل لأحد الصالحين إن فلانا وقع فيك. فقال: لأغيظن من أمره - يعنى الشيطان - يغفر الله لي ولـه... وسب رجل ابن عباس رضي الله عنه. وكان جعفر ابن أبى طالب - وهو ابن عمه - موجودا فقال: يا جعفر. هل للرجل من حاجة فنقضيها لـه؟ فنكس الرجل رأسه وانصرف.

الحلم المذموم

وأحب أن أنبه هنا إلى أن للحلم مواضع يحسن فيها. ومواضع لا يحسن فيها بل إنه لا يسمى حلما وإنما يسمى جبنا أو نفاقا. فلا حلم مع أعداء الله ورسوله وأعداء الدين وأعداء الأمة الإسلامية. فهؤلاء يؤخذون بالشدة والقوة. ولقد وصف الله المؤمنين بأنهم**{أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}**(١). ويقول عن الزناة وهاتكي الأعراض حينما يقام عليهم الحد:**{وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}** (٢). وإذا أنقص الوالي سوطا من هذا الحد يسأله الله يوم القيامة لماذا نقصت هذا السوط؟ فإذا قال أخذتني الرأفة به. قال الله: وهل أنت أرأف به مني؟!. يقول الله لنبيه ﷺ**{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}**(٣). وكان رسول الله ﷺ إذا انتهكت حرمات الله يغضب حتى يعرف فى وجهه الغضب... قال الإمام على رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ لا يغضب للدنيا. فإذا غضب للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له. فالحلم قد يكون محموداً وقد يكون غير محمود. وليس معنى الحلم ألا يغضب الإنسان أصلاً. فهذا شيء ينافى الفطرة. ولكن الحلم هو الذي يتقيد بقيد الدين والعقل. قال الإمام الشافعي: (من استغضب فلم يغضب فهو حمار. ومن استرضى فلم يرضَ فهو شيطان). وقال القائل:

ولا يقيم على ضيم يراد به ::: إلا الأذلان: عير الحي والوتد(٤)

هذا على الخسف مربوط برمته ::: وذا يشج فلا يرثى له أحد

فالحليم يغضب ولا يسيطر على غضبه حينما تنتهك حرمات الله. ويسيطر على غضبه حينما يكون الأمر متصلاً بذات نفسه... جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ يطلب منه شيئا. فأعطاه وقال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه. فأشار إليهم أن كفوا. ثم قام ودخل منزله. وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي ﷺ إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابي منك شيء من ذلك. فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها إليك. قال: نعم. فلما كان الغد أو العشى جاء فقال النبي ﷺ: إن هذا الأعرابي

---

(١) سورة الفتح. الآية الأخيرة.

(٢) سورة النور. الآية رقم (٢).

(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٩).

(٤) عير الحى: الحمار - والوتد: العصى التى تثبت فى الأرض لتشد الخيام..

قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي. أكذلك يا أعرابي. فقال الأعرابي: نعم. فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا. فقال النبي ﷺ إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت لـه ناقة شردت عليه. فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا. فناداهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فإني أرفق بها وأعلم. فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ من قمام الأرض فردها هونا هونا. حتى جاءت واستنامت وشد عليها رحلها واستوي عليها. وإني لو تركتكم حيث قال ما قال فقلتموه دخل النار.

وفى تشريع الصيام ما يربى هذا الخلق وينميه عند الصائم. وقد علمنا الرسول ﷺ أن الصائم إذا سابه أحد أو شاتمه فلا يرد عليه. وإنما يقول: إني صائم.. إني صائم. وهذا تدريب عملي علي الحلم. ولكن كثيرا من الصائمين الذين لم يلتزموا بهذا الخلق الكريم نراهم يثورون لأتفه الأسباب. وربما اعتذر بعضهم عن سفاهته بأنه صائم. أو ربما اعتذر غيره عنه بنفس العذر. وهو عذر أقبح من ذنب لأنه نسب إلى الصوم أنه يجعل الخلق سيئا. وحاشا لتشريع من تشريعات الله تعالي أن تؤدي إلي ذلك. فالعكس هو الصحيح... فالصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر. والزكاة تزرع الحب والمودة بين الفقير والغنى. والصوم يدرب النفس على الحلم والأناة والصبر والمراقبة لله. والحج فيه منافع للناس. ومن أجل أهدافه ألا يرفث الحاج ولا يفسق... وهكذا. فليت المسلمين اليوم يتحلوا بمكارم الأخلاق. ويلتزموا بالآداب الإسلامية عامة وبخلق الحلم خاصة. وبدلاً من أن يلعنوا الظلام يوقدوا فيه شمعة تهدى الحائر وترشد الضال... وصدق القائل:

نعيب زماننا والعيب فينا ::: وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ::: ولو نطق الزمان لنا... هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ::: ويأكل بعضنا بعضا عيانا

* * * * *

من أخلاق المؤمنين:

الصدق

لا يكـذب المرء إلا مـن مهانتـه ::: أو فعلـة السـوء أو قلـة الأدب

لـبعض جيفـة كلـب خيـر رائحـة ::: من كذبة المرء في جد وفى لعب

الصــدق

الصدق خلق إسلامي رفيع. وفضيلة من أسمى الفضائل ترفع قدر من اتصف بها. فتجعله محل رضا الله سبحانه وتعالى ومحل ثقة الناس حتى من أعدائه. إذا تحدث اطمأنوا إلى حديثه. وإذا أخبر تأكد الناس من صدق خبره. وإذا عاهد وفى للناس بعهده. وإذا وعد اطمأن الجميع لوعده. وبحسب الصدق منزلة أن الله سبحانه وصف ذاته المقدسة بالصدق. قال تعالى**{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}**. ولقد كان رسول الله ﷺ صورة مشرفة للصدق. فلم يحدث أن جرب عليه أحد من الناس كذبا قط. ولقبه قومه - حتى من قبل البعثة الشريفة - بأنه الصادق الأمين. قالت زوجته الوفية الودود السيدة خديجة رضي الله عنها حين رجع إليها من غار حراء يرجف فؤاده وقال لها: لقد خشيت على نفسي. فقالت له: كلا. والله لا يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرحم وتحمل الكل[١] وتكسب المعدوم - الفقير - وتقرى الضيف[٢]. وتصدق الحديث...

وفى موقف مماثل مشهود من جميع أهل مكة شهد الجميع له ﷺ بالصدق. وذلك حينما أمر النبي ﷺ بالجهر بالدعوة. ونزل قول الله تعالى:**{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}**[٣]. ووقف رسول الله ﷺ علي الصفا ونادي بأعلى صوته: يا بني فلان.. يا بني فلان. وسرى نداؤه فيهم مسري النور في الظلمات. وجعلوا يقولون: محمد الأمين ينادي على الصفا. فجعل من لم يستطع الخروج يرسل من يأتيه بالأخبار. ولما اجتمع الناس أشهدهم علي أنفسهم فيه فقال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الوادي تريد أن تغير عليكم. أكنتم مصدقي؟. فقالوا جميعا: ما جربنا عليك كذباً قط. فقال ﷺ : «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. يا بني عبد المطلب. يا بني عبد مناف. يا بني زهرة. إني لا أملك لكم من الدنيا منفعة. ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله**».

وهكذا قامت عليهم الحجة من أنفسهم لاعترافهم صدق رسول الله ﷺ. إلا أن أبى لهب عمه - وكان رجلا بذيئا سريع الغضب - قال: تبا لك سائر هذا اليوم. ألهذا جمعتنا. فنزل قول الله تعالى:**{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}**[٤].

---

(١) الكل هو العجز عن الكسب.
(٢) تقرى الضيف أى تكرم الضيف.
(٣) سورة الحجرات. الآية رقم (٩٤).
(٤) سورة المسد.

وإذا كان الفضل ما شهدت به الأعداء فإننا نقول: لقد شهد أعداؤه ﷺ له بالصدق. فقد اجتمع أبو جهل وأخنس بن شريق يوم بدر. فقال الأخنس: يا أبا الحكم... ليس هنا أحد غيري وغيرك. اصدقني القول. أمحمد صادق أم كاذب؟. فقال أبو جهل: والله إن محمدا لصادق وما كذب قط. ويسأله الأخنس: فلماذا لا تصدقه؟ فقال: ماذا نقول لبني هاشم إذا قالوا منا نبي وليس منكم نبي؟!... ولقد صدق الله العظيم حيث يقول "**{فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}**.

إنه الحسد والحقد الأسود البغيض الذي أعمى أبصارهم وبصائرهم. فقد كانوا يرون النبوة زعام مغنما دنيويا يليق بفلان أو فلان كما قال الله سبحانه وتعالى عنهم في ذلك:**{وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}**(١). ويرون أن العظمة هي عظمة المال والأتباع، وما دروا أن العظمة الحقة هي عظمة الروح وعظمة الخلق. وبهذا المقياس وحده كان رسول الله ﷺ أعظم عظماء الدنيا. قال تعالى:**{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**(٢). وقال تعالى:**{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** (٣)... ولقد سأل هرقل أبا سفيان عن رسول الله فقال: قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله.

ولقد أثنى الله عز وجل على أنبيائه بالصدق. فقال عن نبي الله إدريس عليه السلام:**{وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِياًّ}**(٤). وقال عن إسماعيل عليه السلام:**{إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياًّ}**(٥). ووصف الله عز وجل المؤمنين الأبرار بأنهم هم الصادقون - قال تعالى:**{لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى المَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي البَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ البَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ}**. (٦)

---

(١) سورة الزخرف. الآية رقم (٣١).
(٢) سورة القلم، الآيه رقم (٤).
(٣) سورة الأنعام، الآية رقم (١٢٤).
(٤) سورة مريم، الآية رقم (٥٦).
(٥) سورة مريم، الآية رقم (٥٤).
(٦) سورة البقرة، الآية رقم (١٧٧).

ويوم القيامة يكون الصدق نافعا لأصحابه. قال تعالى:**{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}**[(١)].

أمثلة من صدق السابقين

يروى أن أحد الصالحين أراد الذهاب إلى بغداد لطلب العلم. فأعطته أمه أربعين دينارا هي كل ميراثه عن أبيه. وقالت له: ضع يدك في يدي وعاهدني على التزام الصدق فلا تكذب أبدا. فعاهدها على ذلك وخرج مع القافلة. وفى أثناء الطريق خرج اللصوص ونهبوا كل ما في القافلة. ورأوا ذلك الرجل رث الثياب فاستحقروا أن يكون معه شيء. ولما سألوه هل معك مال؟ قال نعم معي أربعون دينارا. فسخروا منه وظنوا أنه أبله[(٢)] فتركوه. ورجعوا إلى كهف كان يقيم فيه كبيرهم. فلما رآهم قال لهم: أخذتم كل ما في القافلة؟ فقالوا نعم إلا رجلا سألناه عما معه فقال: معي أربعون دينارا فتركناه احتقارا لشأنه. ونظن أن به خبلا في عقله.: فقال على به. فلما حضر بين يديه قال له: هل معك شيء؟ قال: نعم معي أربعون دينارا. فقال: أين هي؟ فأخرجها وسلمها له. فقال كبير اللصوص: هل أنت مجنون يا رجل؟ ترشد عن مكان نقودك وتسلمها بنفسك واختيارك!! فقال: لما أردت الخروج من بلدي عاهدت أمي على الصدق.. فأنا لا أنقض عهدي مع أمي. فقال كبير اللصوص: لاحول ولا قوة إلا الله. أنت تخاف أن تخون عهدك لامك ونحن لا نخاف أن نخون عهدا لله! ثم أمر برد ما أخذ من القافلة وقال: أنا تائب على يديك يا رجل. فقال من معه من اللصوص: أنت كبيرنا في قطع الطريق. واليوم أنت كبيرنا فى التوبة. تبنا إلى الله جميعا. فتابوا وحسنت توبتهم ببركة الصدق.

ويروى كذلك أيضا أن هاربا لجأ إلى أحد الصالحين وكان يعمل خواصا. فقال له: أخفني عندك. فقال له: نم هنا. فنام ووضع عليه بعض الخوص. ولما جاء طالبوه وسألوا الخواص عن الهارب فقال: إنه نائم هنا. وأشار إلى حزمة الخوض. فظنوا أنه يسخر منهم وانصرفوا. فتركوه وانصرفوا ببركة الصدق. وأطال الحجاج الخطبة مرة فاعترض عليه أحد الحاضرين. وهم الحجاج أن يبطش به. ولكن أهل هذا الرجل توسلوا إلى الحجاج وقالوا: إنه مختل العقل. فقال: إن اعترف بذلك تركته. ولما حضر قال له أهله قل إنك تعتريك بعض حالات لا تدرى فيها ما تقول. ولما وقف أمام الحجاج سأله: هل أنت مختل العقل؟ قال الرجل: لا. ما كنت لأكذب

---

(١) سورة المائدة، الآية (١١٩).

(٢) أبله اى مجنون.

وأجحد نعمة الله على. فقدره الحجاج وعفا عنه ببركة الصدق.

وأراد أخو بلال رضي الله عنه أن يتزوج امرأة من قريش. فذهبا معا إلى أهل الفتاة وقال بلال: نحن من قد عرفتم. كنا عبدين فأعتقنا الله. وكنا فقيرين فأغنانا الله. وأنا أطلب إليكم فلانة لأخي. فإن تزوجوه فالحمد لله تعالى. وإن تردونا فالله أكبر. فأقبل أهل الفتاة بعضهم على بعض وقالوا: بلال من عرفتم سابقته إلى الإسلام. وعرفتم حضوره المشاهد مع رسول الله ﷺ فزوجوه. ولما انصرفا قال له أخوه: يغفر الله لك يا بلال! أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول ﷺ وتترك ما عبدا ذلك. فقال له بلال: مه! صدقت فأنكحك الصدق.

ومن هنا أمرنا رسول ﷺ بالصدق فقال: **«عليكم بالصدق. فإن الصدق يهدى إلى البر. وإن البر يهدى إلى الجنة. وما يزال الرجل يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا. وإياكم والكذب. فإن الكذب يهدى إلى الفجور. وإن الفجور يهدى إلى النار. وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا»** (١).

إن الرجل الصادق واثق من نفسه. واثق في ربه أنه معه ينجيه مما قد يكون في الصدق ما يضره من وجهة نظره بعكس الإنسان الكذاب فإنه جبان ضعيف الثقة في نفسه وفى ربه. فهو يخشى الناس ولا يخشى الله. ولقد قيل بحق: تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلاك فإن فيه النجاة. وتجنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فأن فيه الهلاك (٢).

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث بن مسعود رضى الله عنه.

(٢) روى أبو الدنيا عن منصور بن المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ: تحرو الصدق وإن رأيتم فيه الهلاك فإن فيه النجاة.

أقسام الصدق

ويمكن تقسيم الصدق إلى ثلاثة أقسام هي صدق القلب. وصدق اللسان. وصدق الجوارح.

١ – صدق القلب:

فيتمثل في إخلاص النية لله تعالى. فلا يقصد بأعماله إلا وجه الله عز وجل. أما كذب القلب فهو أن يعمل عملا ظاهره وجه الله ولكن قلبه لا يريد ذلك. وإنما يريد متاع الحياة الدنيا ويريد الشهوة وحسن الأحدوثة بين الناس. وخير مثال على كذب القلب هم المنافقون. وقد ذكر القران الكريم قول المنافقين للرسول - ﷺ: إنهم إذا جاءوه شهدوا لـه بالرسالة وإذا انصرفوا نكصوا على أعقابهم وارتدوا على أدبارهم. قال تعالى:{إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد انك لرسول الله}. وهذه الجملة صادقة في ذاتها. فمحمد رسول الله ﷺ فعلا. ولكن هذه الجملة لم تكن صادرة عن قلب صادق فكذبهم الله فقال عز من قائل:**{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}**(١).

ويوم القيامة يؤتى بأناس لهم مكانة في الدنيا ومنهم العالم والمتصدق والشهيد ويكشف الله عما يخفونه في أنفسهم مما يعلمه الله ويجهله الناس... فيؤتى بالعالم ويسأله الله - وهو أعلم به منه: ياعبدى.. ماذا صنعت من أجلى؟ فيقول: يارب.. تعلمت العلم وعلمته الناس. ثم يقول: ابتغاء مرضاتك. فإذا كان كاذباً قال الله: كذبت - وقالت الملائكة لـه: كذبت إنما تعلمت ليقال عالم. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار لأن قلبه لم يكن صادقا... و يؤتى بالشهيد فيسأله الله وهو - أعلم به منه: ياعبدى: ماذا عملت من أجلى؟ فيقول: يا ربى.. قاتلت في سبيلك حتى قتلت. فإن كان كاذبا قال الله لـه: كذبت. وقالت الملائكة لـه: كذبت إنما قاتلت ليقال شجاع. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار... ويؤتى بالمتصدق فيقول: ياربى.. كنت أتصدق آناء الليل وأطراف النهار ابتغاء مرضاتك. فإن كان كاذبا قال الله: كذبت. وقالت الملائكة لـه: كذبت إنما تصدقت ليقا ل كريم. ألا فقد قيل: اذهبوا به إلى النار (٢).

فليكن كل منا صادق القلب مع ربه. فإن أحدا لا يتعامل بذلك مع أحد من الناس قد يعتبر بمظهره. أو بمنظره. لكنه يتعامل مع الله عز وجل الذي يعلم السر وأخفى وهو العليم بذات الصدور.. ولنا أن نوازن بين شخصين نوى كل منهما أن الله سبحانه وتعالى إذا أعطاه ما يتمناه أن يستعين بذلك على طاعة ربه جل جلاله... فواحد خان عهده وكذب في نيته. والآخر وفى

---

(١) سورة المنافقون الآية رقم (١).

(٢) الحديث بنصه رواه مسلم والنسائى وحسنه الترمذى - وهو من رواية أبى هريرة رضى الله عنه.

بما وعد به وعمل بما قاله. أما الأول فهو الذي ذكره الله في قولــه تعـالى:**{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}**(١).. فهذا رجل لم تصدق نيته ولم يكن قلبه صـادقاً. فحينمـا أعطـاه سؤله نكص وبخل. ومنع الزكاة التي فرضها الله وهى الحد الأدنى للصدقة. فقد كان عليه ألا يقف عند حدود الزكـاة فقط. بل كان عليه أن يتصدق أكثر من الزكاة. فقد أعطاه الله من فضله ولكن قلبه كان كاذبا.

والثاني هو نبي الله سليمان عليه السلام قال:**{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}**(٢)... فلم يغره هذا الملك. وإنما نسبه إلى ربـه فقـال:**{هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}**(٣).

لنذكر أيضا أن أنسا بن النضر رضي الله عنه(٤) حينما لم يشهد غزوة بدر وقال: والله لئن شهدت مع رسول الله ﷺ مشهدا آخر ليرن الله ما أصنع. وشهد غزوة أحد مع رسول الله ﷺ فاندفع في ميدان المعركة وهو يقول: واه لريح الجنة إني لأجد ريحها يأتي من ناحية أحد. وصار يقاتل ويتلقى الطعنات والضربات وهو ثابت في ميدان المعركة - وكأنه يتلقى قبلات الأحباب بعد طول غياب - حتى أسلم الروح إلى ربه. وصدق فى وعده مع الله. ولكن بعد أن تغيرت ملامح وجهه من كثرة ما تلقاه من الطعان و السهام. وما عرفه أحد غير أخته عرفته بشي كان في بنانه... وفيه وفى أمثاله نزل قول الله تعالى:**{مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}** (٥).

---

(١) سورة التوبة، الآيات أرقام (٧٥، ٧٦، ٧٧).

(٢) سورة ص، الآيات أرقام (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨). سورة النمل الآية رقم (٤٠).

(٣). سورة النمل الآية رقم (٤٠)

(٤) هو عم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ.

(٥) سورة الأحزاب الآية رقم (٣٣) - والقصة رواها البخارى ومسلم والنسائى من رواية أنس بن مالك، وفى الحديث وجد به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة رمح أو رمية سهم ومثل المشركون به - رحمه الله.

صدق اللسان:

ويكون بمطابقة الكلام للواقع. فإذا كان الإنسان يخبر عن شيء فليكن الكلام مطابقاً لهذا الشيء إيجابا وسلبا. فإذا كان يخبر عن حدوثه فلا بد أن يكون قد حدث وإذا أخبره عن عدم حدوثه فليكن غير حادث.

ويظهر ذلك في صور كثيرة... فالتاجر الصدوق الذي يلتزم الصدق يحشره صدقه مع النبيين والصديقين والصالحين. فيقول النبي ﷺ: **«التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»**... [١] وإذا سأله أحد النصيحة فليكن صادق وليعلم أن الدين النصيحة: فإذا كذب في تقديم المشورة والنصيحة كتب عند الله كذابا أما إذا قدم النصيحة وفق ما يعلم وما يرى كان له ثواب الصادقين حتى ولو ظهر الخير في غير ما نصح به. وحسبه أنه كان صادقا وفق علمه... وإذا دعي إلى الشهادة قال الحق. ونطق بالصدق الذي لا يضلل العدالة. وابتعد عن قول الزور الذي يعد من الكبائر. قال تعالى:**{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}**[٢].

عن عبد الرحمن بن الحارث قال: **«كنا عند النبي ﷺ فدعا بطهور – ما يتوضأ به فغمس يده فتوضأ فتتبعناه فحسوناه [٣]. فقال النبي ﷺ: ما حملكم على ما فعلتم؟ قلنا حب الله ورسوله. فقال: إن أحببتم أن يحبكم الله ورسوله فأدوا إذا ائتمنتم. وصدقوا إذا حدثتم وأحسنوا جوار من جاوركم»**.

روى عبد الله بن عامر قال: دعتني أمي يوما ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا وقالت لي: **«تعالى أعطيك. فقال رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ فقالت: أعطيه تمرا. فقال لها أما إنك لو لم تعطيه شيئا كتبت عليك كذبة»**[٤]. ومما يؤثر عن البخاري في تحريه عن الصدق فيمن يأخذ عنهم الحديث أنه خرج يوما يطلب الحديث من رجل. فرآه قد هربت فرسه وهو يشير إليها بردائه يوهمها كأن في حجره شعير فجاءته فأخذها. فقال البخاري للرجل: هل كان معك شعيرا؟ قال: لا. فقال البخاري: لا أخذ الحديث ممن يكذب على البهائم فقد يجره ذلك إلى الكذب

---

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن، وهو من رواية أبى سعيد الخدرى - والمعنى أن التاجر كثير الصدق المشهور بالأمانة تكون منزلته مع النبيين والصديقين - كأبى بكر الصديق رضى الله عنه - ومع الشهداء كذلك.

(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (١٥٢).

(٣) أى أنهم شربوا ما تبقى من ماء وضوء الرسول ﷺ. وهذا الحديث رواه الطبرانى وفى الحديث دلالة على مدى حب الصحابة لرسول الله وتقديرهم له وطلب الباقة من آثاره.

(٤) رواه أبوداود والبيهقى وعبد الله بن عامر مولى رسول الله ﷺ.

على رسول الله ﷺ. وكانت السيدة أسماء بنت عميس[١] ممن زففن السيدة عائشة رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ وقدم الرسول الكريم كوب لبن إلى عائشة فاستحيت أن تأخذه منه ﷺ فقالت النسوة: لا تردى يدي رسول الله. فأخذت وشربت وأعطى رسول الله ﷺ كوب اللبن بعد ذلك إلى النسوة. فقلن لا رغبة لنا فيه. فقال: ﷺ أتجمعن جوعا وكذبا. فقالت السيدة أسماء يا رسول الله إذا قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا تشتهيه أيكون ذلك كذبا؟ فقال رسول الله ﷺ: حتى الكُذَيْبَة تكتب كذبة[٢].

صدق الجوارح:

فهو أن يعمل الإنسان عملاً لا يكون مطابقا لما في قلبه... فالعابد يكون صادقا في عبادته إذا أداها حسبما شرع الله سبحانه وتعالى متبعا سنة رسول الله ﷺ. أما أن يتعبد المتعبد كيفما اتفق فإنها تكون عبادة كاذبة وليست صادقة... والمقاتل يكون صادقاً إذا أقبل على المعركة وقاتل بشرف وإخلاص دفاعا عن دينه أو ماله أو عرضه أو وطنه. أما إذا فر من الميدان كان قتاله قتالاً كاذباً... والموظف الذي يؤدى عمله المنوط به بأمانة ويحافظ على مواعيده ولا يعطل مصالح الأمة فهذا موظف صادق في وظيفته. أما الذي يعطل مصالح الناس ويتهرب من عمله فإن عمله يكون كاذباً. وفى معنى الحديث الشريف: **«الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم هكذا ورفع النبي ﷺ رأسه حتى سقطت قلنسوته[٣]. ورجل مؤمن جيد الإيمان إذا لقى العدو كأنما يضرب وجهه بشوك الطلح[٤] من الجبن أتاه سهم غرب [٥] فقتله فهو في الدرجة الثانية. ورجل مؤمن خلط عملاً صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة. ورجل مؤمن أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة»**.

---

(١) السيدة أسماء بنت عميس من المهاجرات الأولى. هاجرت مع زوجها جعفر الطيار إلى الحبشة فولدت له هناك عبد الله ومحمدا وعوفاً. ولما استشهد زوجها يوم مؤتة تزوجها أبوبكر الصديق وولدت له محمدا. ومات أبوبكر فغسلته بنفسها وتزوجها بعد ذلك على بن أبى طالب فولدت له يحيى وعوفاً. وعاشت بعد على.. ولها فى السنن أحاديث عن رسول الله. فهى صحابية ذات سبق وفضل - رحمها الله.

(٢) الكذيبة تصغير الكذبة - أى الكذب الصغير. وهذا يعلم أنه لا يوجد شيء اسمه كذب أبيض وكذب أسود.

(٣) أى عمامته.

(٤) شوك الطلح هو نوع من الأشجار ذات شوك. والطلح تنطق بفتح الطاء والمعنى الرجل خائف من الموت غير مقدم عليه.

(٥) سهم غرب أى لا يدرى من راميه ولا من أى اتجاه جاء. وغرب تنطق بفتح الغين وسكون الراء.

سؤال وإجابة

وهنا نعن لنا سؤال مؤداه: هل يكون الصدق مذموما؟ والجواب: إن الصدق إذا أحاطت به ملابسات مذمومة فإنها تجعله مذموما وذلك مثل الغيبة فلو أن إنسانا اغتاب إنسانا وذكره بما يكرهه وكان صادقا فيما قال فإن هذا الصدق بما أحاط به من سخرية يجعل هذا الصدق مذموما ولا يشفع للمغتاب أنه صادق. قال رجل لرسول الله ﷺ: أرأيت إن كان في أخي بما أقول. ﷺ: **«إن كان فيه فقد اغتبته. وإن لم يكن ما فيه فقد بهته»** (١).

ودخلت السيدة صفية أم المؤمنين على رسول الله ﷺ ولما خرجت قالت السيدة عائشة: يا رسول الله حسبك من صفية أنها هكذا! وأشارت إشارة يفهم منها أنها قصيرة. فقال لها: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته (٢).

ونسمع كثيرا بعض المغتابين فإذا قال لهم قائل: إن هذه الغيبة لا تجوز. قال: والله إني صادق فيما أقول! وما درى هذا أن الغيبة كلمة صادقة ولكن لأن المغتاب يكرهها كانت محرمة... والنميمة قد تكون بكلمة صادقة. فإذا سمع إنسان من آخر كلمة قالها في حق ثالث. فنقل هذه الكلمة من الصدق المذموم لأن ذلك يعتبر نميمة. أي نقل الكلام على جهة الإفساد بين الناس... والسعاية هي أن يسعى إنسان لدى رئيسه ويبلغه عن زميله شيئا على جهة إفساد العلاقة بين هذا الزميل ورئيسه ليحل هو محله. وقد يكون صادقا في كلامه ولكنه صدق أشر من الكذب. ورسول الله ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقا. فلنذكر ذلك ولنتأسى برسول الله ﷺ فإن كثيرا من الناس قد يترخص في الكذب إذا أراد أن يمزح. ولكن هذا ليس من شأن المؤمنين... وإذا ألقى واحد من الناس نكتة(٣) - مثلا - وقيل له: لم تقل ذلك وهذا غير صحيح؟ قال إني أمزح. وهو بهذا يخالف هدي رسول الله ﷺ حيث كان يمزح ولا يقول إلا حقا(٤).

جاءته ﷺ امرأة عجوز وقالت: يا رسول الله.. ادع الله أن يدخلني الجنة فقال لها مازحا: لا يدخلها عجوز. فقامت وهي تبكي. فقال الصادق الصدوق ﷺ أخبروها أنها لا تدخل وهي عجوز. إن الله يقول:**{إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لأَصْحَابِ الْيَمِينِ}**(٥).

ونختم حديثنا عن الصدق بقول الرسول ﷺ حيث يقول: **«اضمنوا لي ستا من أنفسكم**

---

(١) أى كذبت عليه. والحديث رواه مسلم من حديث أبى هريرة.

(٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح.

(٣) كلمة نكتة كلمة دارجة علمية تطلق على الطرفة التى يقولها شخص يتندرها مع غيره.

(٤) وفى هذا قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى مزاحه).

(٥) سورة الواقعة. الآيات أرقام (٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨). والحديث أخرجه الترمذى فى الشمائل عن الحسن رضى الله عنه.

أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم. وأوفوا إذا وعدتم. وأدوا إذا ائتمنتم. واحفظوا فروجكم. وغضوا أبصاركم. وكفوا أيديكم» [(١)]. ويقول ﷺ: **«المتشبع بما لا يعط كلابس ثوبى زورا»** [(٢)]. ومعنى الحديث والله أعلم أن الذي يتزين ويتجمل بمالا يملك ليرى أنه غنى يكون كمن يلبس ثوبين قديمين ليتظاهر بالزهد وهو ليس زاهدا ولا متقشفا. ولنعلم أن النية الصادقة يعطى صاحبها ثواب العمل الذي نراه ولو لم يعمله. قال ﷺ: **«من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»**[(٣)] والصدق يكون سببا في سعة الرزق قال ﷺ: **«ما أملق – افتقر – تاجر صدوق»** ويقول ﷺ: **«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا. فإن صدقا وبينا – العيوب التي في السلعة أو الثمن – بورك لهما فى بيعهما. وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»** [(٤)]. وقال ﷺ: **«حينما سئل: ما عمل الجنة؟ قال: الصدق. وسئل: وما عمل النار؟ قال الكذب.. إذا كذب العبد فجر. وإذا فجر كفر. وإذا كفر دخل النار»**. وسئل النبي ﷺ : **«أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم. قيل أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: لا»** [(٥)] وقال ﷺ: **«يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذبة»** [(٦)].

ومن شرف الصدق أن الصادق يقبل قوله فيعدوه. ومن دناءة الكذب أن الكاذب لا يقبل قوله في صديقه.

لا يكذب المرء إلا من مهانته ::: أو فعلة السوء أو قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة ::: من كذبة المرء في جد وفى لعب[(٧)].

* * * * *

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، والحديث من رواية عبادة بن الصامت.
(٢) رواه مسلم.
(٣) الحديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى.
(٤) رواه البخارى.
(٥) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. الجزء رقم (٣). الصفحة رقم (٥٩٥).
(٦) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب. من حديث سعد بن أبى وقاص.
(٧) قال آخر:
إذا عرف الإنسان بالكذب لم يزل ::: لدى الناس كذابا ولو كان صادقا
فإن قال لم تُصغ له جلساؤه ::: ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

من أخلاق المؤمنين:

الحيــاء

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«الحيـاء مـن الإيمـان والإيمـان فـي الجنـة والبذاء من الجفاء. والجفاء في النار»**.

الحيـــاء

الحياء رقة تعترى وجه الحيي فتغيره عند فعل ما يتوقع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله. والإغضاء والتغافل عما يكرهه الإنسان بطبعه. وكان رسول الله ﷺ " أشد حياء من العذراء فى خدرها "[١] وأشد الناس إغضاء عن العورات. فكان لا يشافه أحدا بما يكره حياء وكرم نفس.

تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: **«كان إذا بلغه ﷺ عن أحد شيئا يكرهه لم يقل: ما بال فلان يقول كذا وكذا. ولكن يعمم فيقول: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. ينهى عنه ولا يسمى فاعله»**. ولم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق. ولا يجزى بالسيئة السيئة. ولكن يعفو ويصفح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه ﷺ من حيائه لم يكن يثبت بصره في وجه أحد. وأنه كان يكنى عما يضطره الكلام إليه. وتقول عائشة: **«ما رأيت منه ولا رأى منى يعنى العورة»**. وهى امرأته وهو زوجها.

ولقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله.. عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال ﷺ: أحفظ عورتك إلا من زوجك أو ما ملكت يمينك. قلت يانبى الله إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ فقال ﷺ: إن استطعت ألا يرنها أحد فلا يرنها. قلت: إذا كان أحدنا خاليا؟ قال ﷺ: فالله أحق أن يستحى منه من الناس. يقول النبي ﷺ: **«الحياء والإيمان قرناء جميعا ، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»** [٢]. وورد فى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: **«ما أنصفني ابن آدم. يدعوني فاستحى أن أرده. ويعصينى فلا يستحى منى»**. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: **«دخلت على النبي ﷺ فوجدته يبكى. فقلت: يا رسول الله.. ما يبكيك؟! قال ﷺ: أخبرني جبريل عليه السلام أن الله يستحى من عبد يشيب في الإسلام أن يعذبه. أفلا يستحى الشيخ أن يذنب وشاب في الإسلام؟!»**. وقد ورد أيضا في السنة النبوية المطهرة وصف الله سبحانه وتعالى بالحياء. قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى حيى ستير يحب الحياء والستر. فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»**. وجاء أيضا: **«إن الله تعالى حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفرا... " وحياء الله سبحانه وتعالى ليس كحياء أحدنا. فهو عز وجل{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**

---

(١) حديث شريف رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى.

(٢) رواه الحاكم.

وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}[١].

وجاء في القرآن الكريم وصف النبي ﷺ بالحياء. قال تعالى:**{وَلاَ مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ}** [٢]. ولقد نزلت هذه الآية الشريفة في مناسبة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش. فقد كانت في حجرتها وجعلت وجهها للحائط. فقد أولم[٣] النبي وجعل الناس يدخلون فيأكلون ويخرجون. إلا نفرا حلا لهم الحديث في بيت رسول الله ﷺ. واستحيا الرسول الحيي أن يقول لهم قوموا. ولم يراعوا ظروف السيدة زينب وأنها لحيائها تجلس وجهها إلى الحائط. فخرج النبي ﷺ ثم دخل حتى أحسوا برغبته ﷺ في انصرافهم. فنزلت هذه الآية وفيها تأديب للمسلمين مع الرسول ﷺ بأن عليهم أن ينصرفوا إذا تناولوا طعامهم في بيت النبي. وفى القرآن الكريم كذلك وصف لبنت الشيخ الكبير الذي سقى الغنم لها ولأختها موسى عليه السلام حينما بعثها أبوها إليه ليعطيه أجر ما سقى لهما. يقول القرآن الكريم:**{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}**[٤].

وانظر إلى روعة النظم الشريف " تمشى على استحياء ". أي أنها تمشى وعليها سيما الوقار والحشمة - وكأن الحياء طريق تمشى عليه - ثم قالت:**{إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ}** ولم تقل: هلم معي. أو أنا أدعوك للذهاب إلى بيتنا. ثم أعلمته أن أباها هو الذي يدعوه حتى لا يطمع فيها إذا كانت الدعوة منها... فهل تقتدي نساؤنا وبناتنا بهذه المرأة الصالحة؟ فلا تدعوا المرأة إلى بيتها إنسانا بدون إذن زوجها أو ولى أمرها. إنما عليها إن وجهت الدعوة أن توجهها باسم رجلها. وكان موسى عليه السلام على هذا المستوى الرفيع من الحياء. فقد طلب منها أن تسير وراءه لا أمامه ولا إلى جواره. ثم تدله على الطريق بأن تلقى الحصاة إلى الناحية التي توصلها إلى البيت ولم يطلب منها أن تكلمه. وبذلك استحق الوصف بأنه " القوى الأمين ". فهو قوى لأنه سقى لهما وكان غطاء البئر الذي سقى لهما منه ثقيلاً جدا فرفعه موسى عليه السلام بمفرده.. فدل هذا على قوته وهو أمين على مروءته وحياته، وأمين على هذه الفتاة فأمرها أن تمشى خلفه حتى لا تعبث الرياح بثيابها. وألا تكلمه حتى لا يفتن بصوتها... فهل يفعل شبابنا كما فعل نبي الله موسى عليه السلام؟ وهل تفعل فتياتنا كما فعلت تلك الفتاة؟... فلو أن فتاة أرسلها أبوها إلى

---

(١) سورة الشورى. الآية رقم (١١).
(٢) سورة الأحزاب. الآية رقم (٥٣).
(٣) الوليمة هى طعام العرس.
(٤) سورة القصص. الآية رقم (٢٥).

شـاب لتبلغـه دعوة أبيهـا لخرجـت بكامـل زينتهـا وعطرهـا وأناقتهـا. وحينئـذ يخـرج معهـا الفتـى ويفتحان موضوعا يخجل منه الحياء. فلا حياء ولا خجل!!! ومن أحسن مـا قيل فـي الحيـاء من الله قول الشاعر:

أعصـــــيك تســـــترني	:::	**أنســـــاك تـــــذكرني**
أقلـــــوك تحببنـــــي	:::	**أجفـــــوك تعلينـــــي**
إذا ماقـــال لـــي ربـــى	:::	**أمـــا اســتحييت تعصـــيني**
أتخفـــى الـــذنب عـــن	:::	**وبالآثـــام تـــأتيني**
فمـــا قـــولي لـــه	:::	**يباعـــدني ويقصـــيني**

يروى أن امرأة جاءت إلى طاووس رضي الله عنه تراوده عن نفسه فلم يزل بها حتى أتى المسجد والنـاس مجتمعون. فقـال لهـا: أقضـى مـا تريـدين فـادخلي هنـا. فقالت: فـي هذا الموضـع والناس ينظرون! فقال: الحياء من الله أحق. ولقد جعل النبـي ﷺ الحيـاء شـعبة مـن الإيمـان فقـال: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة. والحياء شعبة من الإيمان»** [١]... وروى حسان بن عطية عن أبـى أمامـه قـال: قـال رسـول الله ﷺ: **«الحيـاء والعِيّ شعبتان من الإيمان. والبـذاء والبيـان شعبتان من النفاق»**[٢]. ولعل المراد من العي هنا ليس العجز عن الكلام بسبب عجز خلقـي أو خلقـي فذلك لا يستحق أن يمدح. وإنمـا المـراد - والله أعلـم - الصـمت الاختيـاري الـذي يلزمـه الإنسـان نفسـه بحيث لا يتكلم فيما لا يعنيه. ولربما وصف الناس بـالعي[٣] فيقولـون مثلا: لمـاذا لا يشـترك معنـا فـي الحـديث؟! ذلـك أن المـؤمن حينمـا يـرى النـاس يخوضـون فـي لهـوأو تبكيـت لا يـدع لسـانه يخوض مع الخائضين. فربمـا وصـفه النـاس بأنـه عيـي وهـو فـي الحقيقـة حيـى يربـأ [٤]بنفسـه أن ينزلق إلى هذا المنحدر.

كمـا ان المـراد بالبيـان لـيس القـدرة علـى التعبيـر عمـا فـي الـنفس فـذلك أمـر مـن الله: **{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}**[٥]. ولا يعقل أن يكون ذلك شعبة من شعب النفاق. وإنما المراد - والله أعلم - هو التصافح والثرثرة والتشدق والحديث أكثر مما هو مطلوب فذلك منهي عنه. قال رسول الله ﷺ: **«إن أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون المتشـددون»** وهذه

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة.
(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن غريب.
(٣) أى قلة الكلام.
(٤) أى يترفع.
(٥) سورة الرحمن. الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤).

صفات من يدعى النظر والتفقه. وذلك يكون عند عدم الحياء

إن الشخص الذي لا يتصف بالحياء رجلا كان أو امرأة يأتي ما يهوى ويفعل ما يشاء. لا يصده صاد عن القبيح ولا يزجره زاجر عن المحظور... تخرج المرأة عارية تكشف ما أمر الله بستره. ولو كان عندها حياء للزمت جانب الحشمة والوقار ولبست ثياب الحياء. ومن العجب أن ترى إحداهن تزعم أن ذلك حرية شخصية! وقد قالت لي ذلك مدرسة تربية دينية - وكنت أعمل موجها للغة العربية والتربية الدينية - وكانت تضع المساحيق والأصباغ في وجهها. ولما لفت نظرها إلى أن ذلك يفقد كلامها مصداقيته إذ كيف تعلم تلميذاتها شيئا هي لا تنفذه!! قالت: هذه من الحرية الشخصية. وربما كانت هذه الكلمة نوعا من الهروب من قول الحق الذي وجهت به. وربما تبجحت واحدة أخرى فقالت: هذا هو التقدم وتلك هى المدنية، ورمت أختها المحجبة بالتخلف والرجعية. وذلك ثمرة مرة من ثمار عدم الحياء وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: " إذا لم تستح فاصنع ما شئت "[١]. ولله در من قائل:

أذا لم تَخْش عاقبة الليالي ::: ولم تَسْتحِ فاصنع ما تشاء
فلا والله مافى العيش خير ::: ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحى بخير ::: ويبقى العود ما بقى اللحاء

ولله الدر من قال أيضا:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ::: فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا يظن ظان أن الحديث يحرض على المعاصي عند قلة الحياء. بل هو ذم وتحقير لمن خلع جلباب الحياء. وهو في قوله تعالى:**{فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}**[٢]. فالآية تهديد لمن ترك الإيمان واختار العمى على الهدى. ويكون معنى الحديث " من لم يستح " دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء لا يردعه رادع. فليستحِ المرء فإن الحياء يردعه... ولنا أن نفهم فهم آخر في الحديث " إذا لم تستح فاصنع ما شئت ". أي إذ ا عرضت عليك أفعالك التي هممت بها ولم تَستْحِ منها فاصنعها. وبذلك يكون الحياء هو المقياس الصحيح للفعل أو الترك. فإذا استحييت من فعل شيء فلا تفعله وإذا لم تَسْتحِ منه فاصنعه. وهذا الفهم قريب من قول رسول الله ﷺ: " ما أحببت أن تسمعه آذناك فائته. وما كرهت أن تسمعه فاتركه " [٣].

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى.

(٢) سورة الكهف. الآية رقم (٢٩).

(٣) وقيل فى معنى الحديث إن الأمر هنا بمعنى الخبر أى من لا يستحى يصنع ما أراد. وقيل: هو أمر تهديد

أقسام الحياء

والحياء على ثلاثة أقسام: الحياء من الله سبحانه وتعالى، والحياء من الناس، والحياء من النفس...

الحياء من الله سبحانه وتعالى: فيتمثل في أن يستشعر المؤمن رقابة الله وانه لا يغيب عن الله تعالى طرفة عين وما دونها. وتلك مرتبة الإحسان التي ذكرها النبي ﷺ حينما جاءه جبريل عليه السلام وقال: ما الإحسان؟ فقال الرسول ﷺ: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[١]. فالذين يرتكبون المعاصي لا يستحيون من الله تعالى. فإنهم كانوا يعتقدون أن الله لا يراهم فقد كفروا برب عظيم. وأن كانوا يعتقدون أن الله يراهم فقد استهانوا برب عظيم لأنهم جعلوه أهون الناظرين إليه.

روى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " استحيوا من الله حق الحياء. قال: قلنا يا نبي الله.. إنا لنستحي والحمد لله. قال: ليس ذلك.. ولكن الحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوي ولتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء[٢] ".

هذا هو الحياء من الله كما الذي لا ينطق عن الهوى. في هذه الوصية الجامعة المانعة التي لم تترك شيئا مما لا يتفق مع الحياء إلا ذكرته. ذلك أن حفظ الرأس يستدعى حفظ اللسان من الوقوع في أعراض الناس والتطاول عليهم. ومن الكذب وشهادة الزور والسخرية من الناس والهمز واللمز فى أعراضهم. ويستدعى أيضا أن يغض الإنسان بصره عن محارم الله وأن يحفظ سمعه عن سماع مالا يحل له أن يسمعه:

وسمعت حين سماع القبيح ::: كصوت اللسان عن النطق به

ثم حفظ البطن. فلا يدخل فيه شيء من الحرام. ذلك أن الرجل يقذف اللقمة الحرام في جوفه فلا يتقبل الله له صلاة أربعين يوما... وقد ذكر أن أبا بكر رضي الله عنه قدم له خادمه كوب لبن. ولما شرب سأل عن مصدر هذا اللبن. فقال الخادم: كنت

ومعناه إذا نزع منك الحياء فافعل ما شئت إن الله مجازيك عليه.

(١) جزء من حديث صحيح رواه البخارى عن عمر بن الخطاب.

(٢) رواه الترمذى ورواه الطبرانى مرفوعا من حديث السيدة عائشة.

أتكهن[١] لقوم في الجاهلية فمررت بهم فتكهنت لهم فأعطوني هذا اللبن. وإذا بأبي بكر يضع إصبعه في فمه ويتقيأ هذا اللبن. ويقول. لو لم يخرج إلا مع نفسى لأخرجته. ثم يعتذر إلى الله عما قد يكون خالط الأمعاء ذلك لأنه يعلم أن كل جسد نبت من حرام فالنار أولى به [٢].

ومن الحياء من الله كما بينت الوصية النبوية حفظ الفرج. ولقد منح الله المؤمنين بقوله:**{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}**[٣]. وتكمل الوصية الحياء من الله بعدم الركون إلى الدنيا والاغترار بها. ولكنه يذكر الموت وما بعده من الحساب والعقاب. والميزان والصراط. والجنة والنار... ولقد صدق رسول الله ﷺ حين قال: **«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»** [٤].

روى أن علقم بن علاثة قال: يا رسول الله.. عظني. فقال ﷺ: **«استحى من الله تعالى استحياءك من ذوى الهيبة من قومك»** [٥]. وقال ﷺ: **«الحياء نظام الإيمان. فإذا اختل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق»**. فشبه رسول الله ﷺ الحياء وأنه يجمع كثيرا من الفضائل بالسلك الذي يجمع حبات العقد. فإذا انقطع السلك تبددت الحبات. وإذا ظل السلك متماسكا ظلت الحبات مرتبة منظمة.

---

(١) الكهانة نوع من السحر. وهى حرام فى الإسلام.

(٢) ومما يذكر عن أبى بكر الصديق أنه كان يطرق سبعين بابا من الحلال خشية الوقوع فى باب من الحرام.

(٣) سورة المؤمنون. الآيتان رقم (٥، ٦).

(٤) رواه الترمذى وقال حسن. وهو عن رواية شداد إن الأوس.

(٥) حديث ذكره ابن رجب فى كتاب جامع العلوم والحكم.

الحياء من الناس

فيكون بترك المجاهرة بالقبيح. فبعض الناس يأتي بالمعاصي جهاراً نهاراً ولا يخجل أن يراه غيره. فهو إما عاكف على لعب القمار أو النظر إلى الغاديات والرائحات. يشيع هذه بكلمة فاجرة ويستقبل الأخرى بنظرة جائعة.

ويتوعد رسول الله ﷺ هؤلاء بأنهم بعيدون عن المغفرة بقوله ﷺ: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرين»**. لأنهم يكونون قدوة سيئة لغيرهم. ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا. بعكس من يتصفون بالحياء. فإذا ذلت بهم القدم ووقع في لحظة ضعف في حبائل الشيطان فإنه لا يجاهر. بل يبادر بالندم والتوبة على ما فعل. قال النبي ﷺ: **«من تقوى الله اتقاء الناس»**. وروى أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا فتنكب الطريق من الناس وقال: **«لا خير فيمن لا يستحى من الناس»**.

قال بعض الحكماء: " من كساه الحياء ثوبه لم يبى الناس عيبه ". وقال بعضهم: " حياة الوجه في حيائه كما أن حياة الغرس في نمائه وهذا الحياء من كمال المروءة ". قال رسول الله ﷺ: **«من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»** [1]. لأنه يكون فاسقا يجاهر بمعصية الله. ميت الضمير لا يسمع له صوتا ولا يحس له وخزا. يقول النبي ﷺ: **«إن من مروءة الرجل: ممشاه ومدخله ومخرجه. ومجلسه وإلفه وجليسه»**.

---

(١) حديث ضعيف.

الحياء من النفس

وذلك يكون بالعفة وصيانة الخلوات. فلا يقدم على عمل في السر لا يفعله في الجهر. بل يستوي عنده العملان: عمل السر وعمل الجهر. لأنه يستحى من نفسه إكراما لها.

وأكـــرم نفســـي إننـــي إن أهنتهـــا ::: وحقــق لــم تكــرم علــى أحــد بعــدى

قال بعضهم: " ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحياؤك من غيرك. ومن عمل عملاً في السر يستحيى من عمله في العلانية فليس لنفسه عنده قدر ".

ولقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الله يحب الحليم الحيي ويبغض الفاحش البذيئ»**... هؤلاء الذين يظهرون أمام الناس بالتقوى والورع والحياء. فإذا ما خلو بأنفسهم استباحوا لها ما تورعوا عنه أمام الناس ينقصهم الحياء من النفس.

قال رسول الله ﷺ فيما روته عنه السيدة عائشة: **«لو كان الحياء رجلا لكان رجلا صالحا. ولو كان الفحش رجلا لكان رجلا سيئا»** (١). وقال يحيى بن معاذ: " من استحيا من الله مطيعا استحيا الله منه مذنبا. فلا ينظر إليه وهو على تلك الحال إكراما له. وإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وهو يخونه فإنه يلحقه من الإطلاع عليه أمر عجيب حتى كأنه هوالجانى "... وفى بعض الأخبار أن الله يقول: " عبدي إنك ما استحييت منى أنسيت الناس عيوبك؟ أنسيت الأرض ذنوبك؟ ".

---

(١) رواه الطبرانى وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.

الحياء وتغيير المنكر

ولكن هل من الحياء أن يرى الإنسان المنكر ولا ينهى عنه؟ أو يرى المعروف ولا يأمر به؟

الجواب: لا... فعن مالك بن أنس رضي الله عنه قال: " بعث إليَّ أبو جعفر المنصور وإلى بن طاووس فدخلنا عليه وهو على فراش قد نضدت وبين يديه أنطاع [١] قد بسطت. وأطرق عنا طويلا ثم التفت إلى ابن طاووس فقال له: حدثني عن أبيك. قال: نعم سمعت أبى يقول: قال رسول الله ﷺ عن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله. قال مالك: فضممت على ثيابي مخافة أن يملأني دمه[٢]. ثم قال له: عظني يابن طاووس. فقال: نعم. أما سمعت قول الله تعالى:**{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}**[٣]. فقال مالك: فضممت على ثيابي مخافة أن يملأني دمه. فأمسك المنصور ساعة ثم قال: يابن طاووس.. ناولني الدواة. فأمسك بها ابن طاووس ولم يناوله إياها وهى في يده. فقال: ما يمنعك أن تناولني إياها؟ فقال: أخشى أن تكتب بها معصية فأكون شريكا فيه. فلما سمع المنصور ذلك قال: قم عنى ن فقام وقال: ذلك ماكنا نبغي. قال الإمام مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس بعدها فضله.

نقدم هذا الموقف النبيل الشجاع لأحد علمائنا ومحدثينا في خليفة فعل ما فعل بأعدائه من بني أمية ولم يخف منهم. وكان من الممكن أن يلف عظاته في كلام عام. ولكنه ذكره بمصير الطغاة من عاد وثمود وفرعون. وكيف أن الله لبالمرصاد لكل من سار سيرتهم واقتفى أثرهم. أين هذا من فتاوى بعض من ينتسبون إلى العلم وهم يغلفونها في كلمات مبهمة؟ بل ربما كانت حسبما يراد منه أن يقول ولو خالف ما عنده!! [٤].

---

(١) أنطاع جمع نطع وهو البساط من الجلد.

(٢) أى خاف أن يقتله أبو جعفر لأنه يعرض به.

(٣) سورة الفجر. من الآية رقم (٦) إلى الآية رقم (١٤).

(٤) لقد جاء معنى الحديث الشريف: إن الله سيعاتب المقصرين فى الدعوة إليه بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (لايحقرن أحدكم نفسه. قالوا: كيف يحقرن أحدنا نفسه؟ قال: يرى أن عليه مقالا ثم لايقول فيه. فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا؟ قال خشية الناس. فإياى كنت أحق أن تخشى) رواه ابن ماجة ورواته من الثقات.

أما علماء السلف فكانوا يستحيون من الله تعالى أن يحصى عليهم أنهم يقولون مالا يرضى الله ولا يرضى رسوله محمدا ﷺ. ومع ذلك فلم يحدث لابن طاووس شيء إنه خاف الله فأخاف الله منه هذا الجالس على فرشه وبين يديه النطع والسياف.

الحياء والاعتراف بالخطأ

وخلق الحياء لا يمنع الإنسان أن يعترف بخطئه إذا علم أنه قد أخطأ. روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب مرة فعرض بمغالاة الرجال في المهور. وأراد منهم أن يقتصدوا في ذلك. فأقلهن صداقا أكثرهن بركة. ولكن امرأة قامت من وسط النساء وقالت: يا عمر.. أيعطينا الله وتمنعها أنت يا عمر. ألم يقل الله:**{وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً}**(١)... فهذه المرأة لم يمنعها الحياء أن تعترض على عمر وهو من هو قدراً وجلالاً. ولم يمنع الحياء عمر أن يرجع عن رأيه ويقول: كل الناس أفقه منك يا عمر.. أصابت امرأة وأخطأ عمر. وكان عمر وقافا عند حدود الله. وكان يخطب مرة وعليه ثوبان. وكان قد وزع على الناس أعطيتهم من الثياب ثوبا فقال: أيها الناس.. اسمعوا وأطيعوا. فقال أحد الناس: لا سمع ولا طاعة. فقال عمر: ولما يا أخا العرب؟ فقال: لأنك أمرت بإعطاء كل واحد ثوبا وأرى عليك ثوبين. فنادي عمر ابنه وقال له: أنشدك الله لمن هذا الثوب الثاني؟ فقال ابنه: إنه لي. وثوبك كان لا يكفيك لأنك رجل طويل فأعطيته لك. عندئذ قال الرجل: الآن نقل نسمع ونطع. فلم يمنع الحياء الرجل أن يقول رأيه وفيه تعريض لعمر أمام الملأ. ولم يمنع الحياء عمر كذلك أن يبين ذلك له... إنهم أناس يستحيون من الله أن يراهم ساكتين عن شيء يرون أنه يخالف ما يعلمون. فإذا علموا سمعوا وأطاعوا... إنه الحياء من الله:

يا من يرى مد البعوض جناحه ::: في ظلمة الليل البهيم الأليل (٢)
ويرى نياط عروقها في نحرها ::: والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى من دونها ::: في قاع بحر زاخر متجندل(٣)

---

(١) سورة النساء. الآية رقم (٢).
(٢) الليل البهيم الاليل يعنى شديد الظلمة.
(٣) تكملة الأبيات:
أمنن علي بتوبة تمحو بها ::: ما كان مني في الزمان الأول

الحياء... والسؤال

ولا يمنع الحياء الإنسان أن يسأل عما لا يعلم ولو كان المسئول دونه في المنزلة أو السن إذا كان عنده علم ما يسأل عنه. فليس من الحياء أن يأنف الإنسان عما يجهله ويقول مثلا: كيف أسأل ابنا من أبنائي أو من هو في سن أحفادي؟ ليس السؤال عيبا فالله سبحانه وتعالى قال:**{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}**(١). ولكن العيب الحقيقي هو أن هذا الكبير لا يعلم وقد بلغت به السن ما علمه من هو أصغر منه من أمر دينه وكانت المرأة تأتى رسول الله ﷺ فتسأله عن أمور خاصة بالنساء. قالت السيدة عائشة ": نعم النساء نساء الأنصار. لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين. فكن يسألن عن الحيض والنفاس وكيف يغتسلن ". وقالت له واحدة مرة: " هل على المرأة من غسل إذا هي احتملت؟ فقال ﷺ: نعم إذا هي رأت الماء ".

وأخيرا... روى عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتا. فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة. فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة. فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعونا. فإذا لم تلقه إلا رجيما نزعت منه ربقة الإسلام**» (٢).

* * * * *

---

(١) سورة النحل. الآية رقم (٤٣).

(٢) رواه ابن ماجة والربقة هى عرى فى حبل تشد به البهائم وتنطق بكسر الراء وفتحها... وفى نفس المعنى ورد حديث آخر عن رسول الله قال فيه: الحياء والإيمان قرناء جميعا. فإذا رفع أحدهما رفع الآخر - رواه الحاكم وقال حديث صحيح.

من أخلاق المؤمنين:

العــدل

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}

العـدل

العدل هو المساواة بين أبعد النـاس وأقربهم فـى الحكم. ويترتـب علـى ذلـك إعطـاء كـل ذى حق حقه. لا ميلا مع الهوى. ولا انحيازا ًلقرابة أو عصبية. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِياًّ أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}**(١).

وقـد أمـرت الآيـة الكريمـة المؤمنين أن يـؤدوا الشـهادة خالصـة للحـق وحـده لا لقرابـة ولا لعصبية. وقد كانت العصبية هى المسيطرة على أقوال النـاس وأفعـالهم قبـل أن يستضـىء النـاس بنور الإسلام. وشعارهم فى ذلك انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. وليس ذلك من العدل فـى شـيء. فقد يكون الأخ معتدياً باغياً وحينئذ لا ينبغـى أن يُعـان علـى اعتدائـه وبغيـه. وممـا يسـير فـى هذا الفلك المظلم " فلك العصبية أو القبيلة " قول القائل:

وهـــل أنـــا إلا مـــن غزيـــة إن غـــوت ::: غويـــت وإن ترشـــد غزيـــة أرشـــد

يقول أنه تابع لقبيلته غزيه فإن سلكت طريقا كان معها وأن سلكت طريقـا آخـر كـان معهـا وما هكذا يكون المسلم. إنه يـدور مـع الحـق حيـث دار ولقـد ذكـر رسـول الله ﷺ الشـعار الجـاهلي ولكنه أعطاه بعد آخر يتناسب مـع جـلال الحـق الـذى ينشـده فقـال انصـر أخـاك ظالمـا أو مظلومـا فقالوا يا رسول الله ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما؟ فقال تأخذ على يده أو تمنعه فان المسلم ليس إمعة يقول إنا مع الناس إذا أحسن الناس أحسنت وان أساءوا أساءت ولكنـه يـوطن نفسـه إن أحســن النــاس وإن أســاءوا أن يجتنــب إســاءتهم ولــذلك حــارب المســلمون آبــاءهم وإخــوانهم وعشـيرتهم الكـافرين قـال تعـالى**{لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}**.

ولذلك فإن الإسلام الذى يدعو إلى العدل يحـذر مـن الانسـياق وراء المشـاعر الفطريـة التـى فطر الإنسان عليها من حب النفس والعمل على تجنبها أية أضرار تلحق بهـا وكـذلك أيضـا حـب الدين أو الأقربين كما يحذر من الانسياق وراء الهوى. والهـوى صـنوف شـتى.... فحـب التـراث هوى. وحب الأهل والأقـارب هـوى. ومجاملـة الغنـى لغنـاه الهـوى. والعطـف علـى الفقيـر إذا لـم يكـن صـاحب حـق هـوى... وتلـك كلهـا مـداخل يـدخل منهـا الشـيطان ليحطم فـى الـنفس الإنسـانية ميزان العدل ليقيم على أنقاضه فوضى الظلم وجبروتـه وقهـره. فمـثلا قـد يكـون الإنسـان شـاهدا فـى

(١) سورة النساء.

قضيه طرفها غنى وفقير. ويكون الحق مع الغنى فيأتى الشيطان بفتواه الإبليسيه ليلبس على الشاهد فيقول لـه: إن الغنى لا يضره إن تشهد ضده لصالح الفقير المحتاج وذلك الغنى عنده ما يغنيه. أما الفقير فهو فى حاجه إلى هذا المبلغ مثلا. وبهذا يجر الشيطان هذا الشاهد إلى هذا المستنقع البغيض... مستنقع الظلم. وقد يميل الشاهد مع الغنى مجاملة ولكن القرآن الكريم يقول**{إِن يَكُنْ غَنِياًّ أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الهَوَى أَن تَعْدِلُوا}** بل فى الحق يتساوى المؤمن وغير المؤمن قال تعالى**{وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}**[(١)].

أمثلة من عدل المؤمنين

ومن الأمثلة التى نذكرها لتؤكد صفة العدل مثال عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه حين تولى الخلافة قال جليسة: " إذا رأيتنى ملتُ عن الحق فضع يدك فى تلابيبى ثم هزنى. ثم قل: ماذا تصنع؟ " وبدأ بتطبيق الحق على نفسه وأهل بيته فنظر إلى ما تحت يده من عقار أو مال أو متاع وبدأ برد ذلك وقال قولته المشهورة: "لا أبدأ بأولى من نفسى ". ودخل على امرأته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان فأخذ منها الثوب الذى كان قد جهزها به أبوها الخليفة وكان منسوجاً بالذهب منظوماً بالدر والياقوت وقال لها: "ردى الثوب إلى بيت المال. وإن أخذت الثوب فلست لك بصاحب. فإنى أكره أن أكون أنا وأنت وهو فى بيت واحد". وكانت الزوجة على نفس هذا المستوى الرفيع من الطهر والنقاء وقالت: " أعوذ بالله يا أمير المؤمنين من فراقك. بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لى. لا حاجة لى بالثوب فخذه إلى بيت المال ".

هذا موقف عمر بن عبد العزيز من ثوب امرأته وكيف أنه قام برده إلى بيت المال كما رد ما كان تحت يده من مال أو عقَار. وله موقف آخر حيث دخلت عليه بناته فى ليله عيد وطلبن منه ثياب العيد الجديدة - ومثلهن مثل بنات المسلمين - ولكنه يعتذر إليهن بأنه لا يملك ثمن هذه الثياب ولا يستطيع إلى ذلك سبيلاً. ويطلب من خازن بيت مال المسلمين أجر شهر مقدماً ليشترى لبناته ثياب العيد - كما نفعل نحن الآن حينما نقترض بضمان المرتب مثلاً - ولكن خازن بيت المال يقول " أو ما تملك حياتك يا أمير المؤمنين إلى الشهر القادم ". وكأنى بأمير المؤمنين يجهش بالبكاء ويعتذر إلى بناته. وانظر إلى أن الله تبارك وتعالى كيف إذا وفق عبداً

---

(١) - سورة المائدة. الآية رقم (٨).

لطاعته أن يهيئ لـه بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. فلو أن خازن المال غير هذا لفتح الباب على مصراعيه أمام رغبات الخليفة وزين لـه أن يأخذ ما يشاء... وهكذا الحاكم المسلم الذى يرى الله سبحانه تعالى رغبة منه فى إقامة العدل ونشره والقضاء على الظلم وشره. وفيه يقول القائل:

ألـــيس مــــن العجائـــب أن مثلـــى ::: يـــرى مـــا قـــل ممتنعـــاً عليــــه
وتؤخــــذ باســــمه الــــدنيا جميعـــاً ::: ومــا مـــن ذلــك شـــيء فـــي يـــده

نعم كان الخراج يدفع باسم أمير المؤمنين. وكانت الزكاة تأتى إلى أمير المؤمنين. وكانت الجزية تفرض باسم أمير المؤمنين. وكذلك الغنائم والأنفال... ولكنه لعدله لا يستطيع أن يأخذ من ذلك كله مرتب شهر مقدم ليشترى لبناته ثياب العيد. وكان بعض الخلفاء قبله يفعلون ويفعلون. ويهبون ويعطون. ويصرفون ويسرفون.

هل ترى هذا النموذج الفذ إلا ابناً من أبناء المسلمين. قيد نفسه ورغباته وشهواته بقيود العدل التى لا تحابى ولا تجامل. وما أحوج الأمة الإسلامية فى شرق الدنيا وغربها إلى هذا النموذج العادل. فلا نرى أبناء ملوك المسلمين ورؤسائهم وأمرائهم يقيمون الحفلات الحمراء و السوداء. ويقطنون الضياع و العقارات. وإذا غضب الله على قوم رزقهم من حرام. وإذا اشتد غضبه عليهم أكثر لهم منه. وصدق الله إذ يقول:**{سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [٢].

ولنتحدث عن جده العظيم عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكيف كان حاله مع أولاده. دخل السوق مرة فوجد إبلاً سماناً فسأل عن صاحبها فقيل لـه: إنه ابنك عبد الله ابن عمر. فأخذ نصف أرباحها وضمه إلى بيت المال. وفى رواية أنه أمر ابنه أن يبيع هذه الإبل وأن يأخذ رأس ماله فقط وأن يرد ما زاد عن ذلك إلى بيت مال المسلمين؛ لأنه خاف أن يكون ابنه قد أرعاها فى خير مراعى المسلمين وتخلى عنها الناس لـه لأنه ابن أمير المؤمنين. وقال لـه لم تصل إبلك إلى حالتها إلا أن الناس حين يرونها يقولون ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين. اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين ويربوا ربحك ".

ويدخل على ابنه مرة فيجده وأهله يأكلون اللحم - وكان فى المسلمين مجاعة - فيصرخ فيه: "كيف تأكل ما لا يأكله سائر المسلمين " و يحاوره ابنه فيقول: " إنه تاجر وأنه يربح و يؤدى زكاة ماله فما باله لايتمتع بهذا الحلال " ولكن عمر يقول لـه: إنك ابن الخليفة وعليك أن تعيش كما يعيش سائر المسلمين. وأن تتحمل ما يتحمله سائرهم وأن تعطى فوق ما هو مطلوب

منك. فإن فى المال حقاً سوى الزكاة ". ويذهب إلى الشام ليتسلم مفاتيح بيت المقدس ويذهب معه خادمه ومعهما بعير واحد ويتقاسمان الركوب عليه... يا لجلال الإسلام ويا لعظمة الحاكم المسلم حينما يقود بعيراً يركب عليه خادمه وتأتى نوبة الخادم أن يركب وهما على أبواب المدينة التى يذهبان إليها ويدخل عمر ماشياً آخذاً بزمام البعير والخادم راكب. وعمر صاحب الجيوش المظفرة التى تنتصر هنا وهناك وأمام زحفها تتهاوى التيجان. وتهتز العروش. وتتغير خرائط الدول. ومع كل هذا يعدل بينه وبين خادمه فى الركوب على البعير... وهل عمر إلا ابن الإسلام الذى يأمر بالعدل ولو كان هذا الحكم على النفس أو الوالدين أو الأقربين. وهل عمر إلى تلميذ من تلاميذ محمد ﷺ الذى قال لأسامة بن زيد وهو الحب ابن الحب حينما جاء يشفع فى حد من حدود الله يقام على امرأة سرقت فيقول له: " يا أسامة أتشفع فى حد من حدود الله. والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد "[١]. لقد ولدت الإنسانية فى ظلال الإسلام لأنها عرفت الحق والعدل نظرياً من كتاب الله وعرفته علمياً من سيرة الرسول وسيرة أتباعه وصحابته وتلاميذه من بعده. ويوم أن يتطابق القول والعمل وأن تتحول النظرية إلى تطبيق ويوم أن يكتبُ لها النجاح ينتصر المسلمون ويكون الفوز. ولكم سمعنا ألف هاتف وهاتف يهتفون للعدل والطهارة. وتردد أجهزة الإعلام ذلك ولكن هذا الهتاف لا يهز الضمائر ولا يفرض نفسه على القلوب فليس المهم الكلام ولكن المهم مَن وراء الكلام. لقد قرأت وسمعت عن حاكم من حكام الدول النامية - وإن شئت فقل المتخلفة - أنه حينما عزله شعبه وخرج من بلاده وكانت أمواله فى بنوك أجنبية أكثر من مال أمته كلهم بما فى ذلك الدولة نفسها وتترك زوجته عشرات الآلاف من أزواج الأحذية وأدوات التجميل وما أعف عن ذكره وأربأ بقلمى عن ذكر مخازيه... وابن الإسلام عمر بن عبد العزيز لا يجد لبناته ثمن ملابس العيد!! ألم أقل إن الإنسانية ولدت حينما جاء الإسلام. وعرفت الحق والعدل حينما عرفت الإسلام. وهل كان ممكن أن يقول عمر بن الخطاب وهو الشريف القرشى عن بلال وهو العبد الحبشى: إنه سيدنا؟ وهل كان ممكن أن نسمع عمر بن الخطاب يقود البعير لخادمه وهو يركب... هذا هو الإسلام الذى يريد له العلمانيون أن يكون داخل جدران المساجد وتحت قبابها وفى تجاويف محاربها. وعلى أن يترك هذا الإسلام عند الخروج من عتبات المساجد. إن الذين يريدون ذلك ليسو مؤمنين وليسوا وطنيين وإن أوسمة الوطنية منهم لبعيدة.

---

(١) الحديث رواه البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها.

أين - لولا الإسلام - من ينصف رجلاً عادياً من أهل مصر من ابن عمرو بن العاص. حينما ضرب المصرى وقد كان يسابقان بين فرسيهما. ولما سبقت فرس المصرى ضربه ابن عمر وقال له: خذها وأنا ابن الأكرمين. ولثقة المصرى فى عدل عمر يذهب من مصر إلى المدينة ليعرض شاكيته على أمير المؤمنين عمر. ويرسل عمر إلى عمرو وابنه ويوقفهما مع المصرى موقف الخصومة. وحينما يتبين له أن الشكوى حق يعطى الدرة للمصرى ويقول له: اضرب ابن الأكرمين. وحينما ينتصف المصرى لنفسه ويقول له عمر اجعلها على صلعة عمرو. ولكن الرجل يقول: لقد ضربت من ضربني. ثم يقول عمر لعمرو: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرار؟!

وكان جبلة بن الأبهم قد دخل الإسلام بعد أن كان نصرانياً وجاء لأداء فريضة الحج. وفى أثناء الطواف داس أعرابي على إزار جبلة فألتفت جبلة إلى الأعرابي وضربه على أنفه لأنه داس على أزاره. وذهب الأعرابى وشكا جبلة إلى عمر أمير المؤمنين. وأمر عمر بإحضار جبلة وتأكد لديه صدق الشكوى. فطلب من الأمير جبلة أن يُمكن هذا الأعرابى من القصاص. ولكن هذا الأمير فزع من ذلك فقال: يا أمير المؤمنين. وكيف يقتص منى وأنا أمير وهو من السوقة؟! فقال عمر: لقد سوى الإسلام بينكما. وطلب الأمير أن يعطيه فرصة إلى الغد فأمهله. ولكن جبلة فرّ تحت ستار الليل وعاد إلى النصرانية.

يقول المستشرقون إن عدل عمر عدل الموازين التي لا تفرق بين الجوهر وبين غيره. كان على عمر أن يسترضى الأعرابى ويبقي على جبلة وعلى رعيته فى الإسلام. ونقول: إن الإسلام لم يخسر شيئاً بتنصر هؤلاء فهم ليسو مسلمين. ولو كانوا مسلمين حقاً لخضع جبلة للقصاص وهو أمر نادى به القرآن الكريم حينما قال:**{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}**(١)". ويقول فى آية أخرى:**{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**(٢)". إن الإسلام كسب مبدأ العدل فى ذاته. وكسب ثقة الضعفاء الذين دخلوا فيه وهم آمنون من أن يظلمهم الكبار. أين - لولا الإسلام - من ينصف امرأة عادية من ابنه وهو خليفة المسلمين وأميرهم... حدث أن الخليفة المأمون كان يجلس يوماً للمظالم فكان آخر من تقدم إليه امرأة على هيئة السفر فى ثياب رثة. فوقفت بين يديه وسألها عن حاجتها فقالت: إن لى خصماً ظلمنى فى ضيعة لى. فسألها من هذا

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم (٤٥).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم (١٧٩).

الخصم؟ فأشارت إلى العباس ابنه هذا هو ولم يتردد المأمون لحظة فقد قال لمن معه: خذ بيده وأوقفه معها موقف الخصومة. وجعلت المرأة تتكلم وصوتها يعلوا على صوته فقال لها بعض الحاضرين: يا أمه الله.. إنك بين يدي أمير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير. فقال الأمير دعها فإن الحق أنطقها وأخرسه. إن لصاحب الحق مقالاً. ثم قضى لها برد ضيعتها وأمر لها بنفقة وأن تعفى ضيعتها من الخراج.

إن دائرة العدل فى الإسلام ليست مغلقة على من يشاركونا فى الدين أو الجنس. ولكنها منفتحة تشمل الناس جميعاً. قال تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}**[(١)]" فأنت تجد أن كلمة " الناس " كلمة جامعة تشمل بنى البشر جميعاً. وأن علينا أن نحكم بالعدل لأى صاحب حق يطالب به مهما كان دينه أو جنسه.

نعلم جميعاً. أن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر بأمر من الخليفة العادل عمر بن الخطاب. وكان من دأب المسلمين أن يبنوا مسجداً فى أى بلد يفتحونها ليكون مقراً لمصالحهم ولأمر شوراهم واجتماعاتهم. وأقام عمرو بن العاص المسجد فى المكان الذى يعرف الأن بمسجد عمرو بن العاص. وكانت إلى جوار المسجد دار صغيرة أراد عمرو أن يضم هذه الدار إلى المسجد وأن يعوض هذه المرأة صاحبة الدار عن دارها. ولكنها رفضت وتمسكت بدارها وذهبت إلى عمر بن الخطاب تشكو عمرواً فكتب رسالة إلى عمرو يقول لـه فيها: " نحن المسلمين أحق بالعدل من كسرى أنو شروان. أعد للمرأة دارها ".

وعمر يشير إلى قصة حدثت أيام كسرى ملك الفرس وهى أنه حينما أراد أن يبنى الإيوان "مقر الحكم" كان إلى جدار الإيوان دويرة صغيرة. وأراد المشرفون على بناء الإيوان أن يضحوا بهذه الدويرة ليستقيم الإيوان ويعتدل. ولكن صاحبتها تمسكت بها ورفضت أن تتركها ولو بملئها ذهباً. وأمر كسرى بعدم ضم الدويرة. فصار الناس يعجبون من الإيوان وحسن بنائه ويقولون ما أحسن البناء لولا هذا الاعوجاج عند هذه الدويرة. وكان كسرى يقول هذا الاعوجاج هو الذى ضمن لنا الملك يشير إلى الحكمة التى تقول: " إن العدل أساس الملك ". ولقد بلغ العدل أقصى ما يمكن أن يبلغه فى ظلال الحكم الإسلامي حيث عرضت قضية طرفها أمير المؤمنين على بن أبى طالب والطرف الآخر يهودى ثم يحكم القاضى لليهودى مع احتمال الكذب فى كلامه على أمير المؤمنين على بن أبى طالب المُبشر بالجنة والذى لا شك فى صدقه. وصدق

---

(١) سورة النساء الآية رقم (٥٨).

الشهود الذين استشهد بهم...

ونذكر هذه القصة لأن شأنها عجب. رأى على بن أبى طالب درعه التى افتقدها مع يهودى. فقال له: هذه الدرع درعى. ولكن اليهودى قال: بل الدرع درعى يا أمير المؤمنين. فاختصما إلى القاضى. ووقفا - أمير المؤمنين واليهودى - أمام القاضى وطلب القاضى من على بن أبى طالب البينة باعتباره المدعى. فقال على: يشهد بذلك أبنائي الحسن والحسين وخادمى قنبر. ولكن القاضى يرفض هذه الشهادة - لأن شهادة الابن لا تقبل لأبيه. وكذلك الخادم لا تقبل شهادته لمخدومه - وقال القاضى: هل معك شهود غير هؤلاء. يقول الإمام على: لا. فطلب القاضى من اليهودى أن يحلف فحلف كذباً أن الدرع درعه. وحكم القاضى لصالح اليهودى. فأخذها اليهودى وانصرف. ولكن ضميره قد استيقظ - أو قل أراد الله الخير لهذا اليهودى فأيقظ ضميره - وقال أمير المؤمنين يخاصمنى إلى قاضيه والقاضى يحكم لى عليه. أشهد أن هذه الأحكام أحكام أنبياء. وأنا أشهد أن لا الله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. الدرع درعك يا أمير المؤمنين لقطها يوم صفين. فقال له الإمام على: أما وقد أسلمت فهى لك. ونقول: هل القاضى عنده ذرة من الشك فى صدق الإمام أو صدق الحسن والحسين وقنبر؟ والجواب: لا. ولكن القاضى لا يُحكّم علمه. فلو علم القاضى شيئاً ما فإنه لا يجوز أن يحكم به إذا لم يوجد شهود. والقاضى طبق النصوص الإسلامية ومنها البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. ومنها أن شهادة الابن لا تقبل إذا كانت لصالح أبيه وكذلك الخادم.

يتحدث الفقهاء الدستورين فيقولون: إن مفاخر العصر الحديث استقلال القضاء. بمعنى أنه لا تتدخل السلطة التنفيذية فى شؤون العدل وعمل القاضى. وأن يستغنى عن الناس فى حياته الخاصة فلا يشتغل بحاجاته فى تحقيق العدل؛ ولذلك يجعلون للقضاة كادراً خاصاً بهم يضمن لهم الحياة الكريمة. ويحسبون أن ذلك من مفاخر هذا العصر. ونقول: لقد سبق الإسلام م ذلك بكثير. وارتقى بالقضاة وأعمالهم إلى أعلى درجة من الرقى والاستقلال. فكان القضاة المسلمون عبر كل العصور يحكمون بالعدل الذى يرونه ويسوون بين الناس جميعاً أياً كانت درجاتهم ومنازلهم تطبيقاً للآية الكريمة " وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل " ومما لا جدال فيه أن القضاء كان وما يزال وسيظل مقياساً للشعوب فى تقدمها ورقيها أو تأخرها وانحطاطها. لأنه يؤمن الفرد على مستقبله فيقبل على مجالات العمل مبدعاً منتجاً. بعكس ما إذا فشا الظلم فى أمة من الأمم. فإن الفرد يصاب بالإحباط حينما يرى أن من بعده يسبقه لأنه نسيب أو قريب أو حسيب. وسوف أسوق هذه القصة لأحد القضاة المسلمين وكيف كانوا لا يخشون أحداً إلا الله.

فجاءت أحكامهم قاطعة كالسيف مضيئة كالصبح. وخضع لها من كان يتربع على قمة السلطة التنفيذية. وهذه القصة ذكرها صاحب كتاب العقد الفريد. قال: جاءت امرأة إلى القاضى شُريك قاضى الكوفة وهو فى مجلس الحكم. ثم قالت: أنا بالله ثم بالقاضى. فقال لها: من ظلمك؟ قالت: الأمير موسى بن عيسى عم أمير المؤمنين. فقال لها: كيف ظلمك؟ قالت كان لى بستان على شاطئ الفرات فيه نخل ورثته عن أبى وقاسمت أخوتى وبنيت بينى وبينهم حائطاً. وجعلت فيه رجلاً فارسياً يقوم على حفظ البستان ورعايته. واشترى الأمير من أخوتى وأراد أن يشترى منى فرفضت. فبعث غلمانه فهدموا الحائط واختلط نخلى بنخله وطرد الرجل الفارسى. وأرسل القاضى رسالة إلى الأمير ليحضر مجلس الحكم. فأخذته العزة بالإثم وأبى أن يحضر وبعث رسالة مع رئيس حرسه إلى القاضى يقول فيها ما رأيت أعجب من أمرك! امرأة ادعت دعوى لم تصح أعديتها - أخذتها - علىّ. فما كان من القاضى إلا أن أمر حاجبه بوضع رئيس الحرس فى السجن لأنه أعان ظالماً. وعلم الأمير موسى بما حدث لرئيس حرسه فبعث حاجبه الخاص إلى القاضى لنفس الغرض فسجنه القاضى أيضاً. فبعث جماعة من وجهاء البلد فحبسهم القاضى كذلك. ولم يجد الأمير بداً َمن أن يذهب بنفسه إلى السجن وفتحه بالقوة إطلاق سراح المسجونين. فجمع القاضي أوراقه وهو يقول: والله ما طلبنا هذا الأمير بينهم ولكنهم أكرهونا عليه وضمنوا لنا فيه الإعزاز - الاستقلال - إذا تقلدناه. وركب دابته وخرج من البلد يريد الذهاب إلى الخليفة فى بغداد. وعلم الأمير موسى بالأمر وهو يعلم مسبقاً أن الخليفة سوف ينصر القاضي واعتذر إليه وقال إنما أحذننى أنك حبست من أرسلت إليك! الرسول لا يُحبس. فقال القاضي: بل أحبسه لأنه أعان ظالماً على ظلمه. وأبى أن يرجع القاضي حتى يعود جميع الذين أطلقهم الأمير إلى السجن. ولم يجد الأمير بداً من إرجاعهم إلى السجن. وجلس الأمير والمرأة أمام القاضي وتعهد ببناء الحائط فوراً كما كان. وهنا قال القاضي للمرأة: ألك حاجة بعد ذلك قالت: لا. وبارك الله لك وجزاك خيراً... ثم انظر إلى أدب القاضي بعد ذلك. فبعد أن انصرفت المرأة قام من مجلسه وأخذ بيد الأمير وأجلسه فيه وقال لـه السلام عليك أيها الأمير. أتأمر بشىء؟ فقال الأمير وأي شىء آمُر به بعد أن فعلت ما فعلت؟ فقال القاضي: يا أمير إن ما فعلت هو حق الشرع وما قلته الآن: حق الأدب، وأنا أعطيت كل ذي حق حقه. فقام الأمير وهو يردد " من عظّم أمر الله أذل الله لـه عظماء خلقه ".

وما أحلى الحديث وما أعذبه عن قضاة الإسلام ونزهاتهم وحكمهم بالحق... يروى أنه وقع خلاف بين الخليفة العباسي المنصور وبين امرأته. وارتضيا الإمام أبا حنيفة حكماً فيما شجر بينهما من خلاف. واستمع الإمام إلى كل منهما فرأى الحق بجانب الزوجة قام يتردد فى الوقوف إلى جانبها ضد الخليفة. فلما انصرف الإمام أرسلت إليه الزوجة بعض الهدايا فردها الإمام مع حاملها وقال له: أقرئها منى السلام وقل لها: إنما حكمت حكمي قياماً بحق الدين ولم أرد بذلك تقرباً إلى أحد ولا التمست به الدنيا... وهكذا كان قضاة الإسلام فى أحكامهم حسبما تعلموها من الإسلام.

كما تعلموا أن الله تبارك وتعالى من أسمائه العدل. وأنه سبحانه وتعالى يمسك بيده موازين العدل ويقتص من كل ظالم لكل مظلوم حتى لا يفلت أحد بجريمته... يُروى أن موسى عليه السلام قال: " يارب أرني عدلك فى عبادك. فقال: يا موسى إنك لا تستطيع أن ترى ذلك.: فقال يارب إذا أعنتني استطعت.: قال اذهب إلى العين - البئر - واختف وراع شجرة هناك وانظر عدلي فى عبادي. فذهب واختفى وراء الشجرة فجاء فارس نزل من على فرسه وحل حزاماً كان فى وسطه ونزل إلى البئر وقضى حاجته من الماء فشرب وتوضأ. ثم خرج وركب فرسه وانطلق وترك الحزام وجاء غلام صغير أخذ الحزام وأنصرف. ثم جاء رجل مكفوف البصر فتحسس طريقه إلى البئر وشرب وتوضأ ثم خرج. وهنا تذكر الفارس أنه نسى الحزام فعاد مسرعاً فرأى الرجل الضرير فقال له: هات الحزام الذى أخذته. فقال له أنا يا سيدي لم آخذ شيئاً وأنا ضرير كما ترى. فقال له: بل أنت الذى أخذته وإن لم تعطه لى قتلتك. ولما لم يأخذ الفارس الحزام فقد قتل الأعمى. وهنا قال موسى أرني العدل فيما رأيت فهذا الأعمى قتل ظلماً. وهذا الغلام أخذ ما ليس حقه. والفارس ضاعت أمواله. وشرح الله عز وجل لموسى هذا العدل الذى أجراه الله بين عباده: أما الفارس فكان قد غصب والد هذا الغلام مبلغاً من المال يساوى المبلغ الذى تركه فى الحزام وأخذه الطفل فهذا عدل. وأما الرجل الضرير فقد قتل والد هذا الفارس فيكون قد قُتل قصاصاً فهذا عدل(١).

(١) القصة مذكورة في كتب الإسرائيليات، غير أن معناها سليم لا بأس به.

أقسام العدل

وقد يقول قائل ومالي وللعدل. وللعدل وزارة تحمل اسمه وتعمل على حمايته ونشره. وله قضاة يمسكون بأيديهم موازينه أن تختل وهم مسؤولون عن ذلك.. وأقول بل أنت مطالب بالعدل مع ربك. ومطالب بالعدل مع نفسك. ومطالب بالعدل مع غيرك - **فالعدل ثلاثة أقسام**:

١ - العدل مع الله. ٢ - العدل مع النفس. ٣ - العدل مع الغير.

أولاً العدل مع الله: قلنا فى تعريف العدل أنه إعطاء كل ذي حق حقه. وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به كما ورد ذلك فى معنى حديث رسول الله ﷺ حيث سأل أحد أصحابه فقال: «**أتدرى ما حق الله على عباده؟ فقال: الله ورسوله أعلم! فقال رسول الله: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً**» ومن ثم فعبادة غير الله ظلم لله؛ لأن فاعل ذلك لا يكون قد أعطى الله حقه. فالله مستحق للعبادة باعتباره الخالق والرزاق وهو الذى سخر هذا الكون كله من مجرى أفلاكه إلى مسبح أسماكه.

أليس عجباً أن يصنع معي أحد الناس معروفاً فأظل ألهج بشكره والثناء عليه. ويسخر الله لى الليل والنهار. والشمس والقمر. والبحار والأنهار. ثم أنسى ذلك وأعبد غيره؟!

قال تعالى فى الحديث القدسي: «**إني والإنس والجن لفي نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر سواى. خيري إلى العباد نازل. وشرهم إليّ صاعد**» بل إن الله أجلّ أن يُعبد حتى لو لم يخلق جنة أو ناراً. وفى الحديث القدسي: «**أفلو لم أخلق جنة ولا ناراً أفلست أهلا لأن أتقى... بلى يا رب أنت أهل التقوى وأهل المغفرة**».

ولقد سُئل النبي: «**أي الذنب أعظم؟ فقال: أن تجعل لله نداً وقد خلقك**» ومن هنا فإن الشرك هو أعظم الذنوب على الإطلاق لأنه الذنب الذى لا يُغفر. قال تعالى**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً}** [(١)].

ومن وصايا لقمان لأبنه:**{يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}**[(٢)] وقال تعالى**{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}** [(٣)]... قال عطاء بن دينار: " الحمد لله الذى قال: " والكافرون هم الظالمون " ولم يقل الظالمون هم الكافرون:. والفرق بين معنى الآية ومعنى الجملة التى قالها

---

(١) - سورة النساء. الآية رقم (١١٦).
(٢) - سورة لقمان. الآية رقم (١٣).
(٣) - سورة البقرة. الآية رقم (٢٥٤).

عطـاء أن الآيـة تقصـر الظلـم علـى الكـافرون - فالكـافرون وحـدهم هـم الظـالمون - أمـا الجملـة فمعناها أنها تصف الظالمين بالكفر. ومن منا لم يظلم نفسه؟

وإذا كان الله يعاملك بالعدل على سيئاتك فإنه يعاملك بالفضل على حسناتك. فلا أقل من أن تعامله بالعدل فى عبادته مختصة بالعبادة لله وحده. وإذا كان الله قد عصمنا من الشرك الأكبر وهو عبادة غير الله. فلا أقل من أن نجاهد الهوى والشيطان والشهوة والسمعة وحب ثناء الناس. فالشرك أخف من دبيب النمل على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء. ولتعلم أن عبادتك كلها لا تساوى نعمة واحدة من نعم الله عليك. وقد قال رسول الله ﷺ: **«لن يدخل أحداً الجنة بعمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»** [١].

ويُحكى أن عبداً صالحاً توفاه الله إليه فقال الله لملائكته: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. فقال العبد: بل أدخل الجنة بعملي. فقال الله زنوا أعمال عبدي التى عملها وزنوا نعمى التى أنعمت بها عليه. فوزنوا أعماله فإذا هى لا توازى نعمة من نعم الله. فقال الله: أدخلوا عبدي النار. فقال العبد أدخل الجنة برحمتك.

وعبادة الله تعالى وحده هى الهدف الذى من أجله خلقنا. قال تعالى**{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ}**[٢] واقتصرت الآية الكريمة على ذكر الإنس والجن ولم تذكر الملائكة لأن الملائكة مفطورون على طاعة الله لا اختيار لهم فى ذلك أما الإنس والجن لهم اختيارات فى عباداتهم ثم يسألون عن هذه الاختيارات فى ضوء الرسالات التى نزلت لهم على ألسنة رسلهم.

ولقد شرف الله أنبيائه بالعبودية. فقال عن رسول الله**{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حوله لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير}**[٣] وقال**{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل له عِوَجاً}**[٤]... وقال رسول الله ﷺ عن نفسه: **«إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد. وأشرب كما يشرب العبد»** وقال عيسى عليه السلام عن نفسه - كما ذكر القرآن الكريم - قال**{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً**

---

(١) حديث صحيح.
(٢) - سورة الذاريات. الآيتان رقم (٥٦، ٥٧).
(٣) - سورة الإسراء. الآية الأولى.
(٤) - سورة الكهف. الآية الأولى.

أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياًّ}[١] وتجد أن عيسى عليه السلام أثبت فى هذه الآية عبوديته لله ونفى عن نفسه أن يكون شريكاً لله. ومع ذلك قالوا عنه إنه ابن إله أو ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - ثم نفى التهمة بعد ذلك عن والدته فقال**{وَبَراًّ بِوَالِدَتِي}** وبذلك يكون قد قدم الأهم وهو وحدانية الله تعالى على المهم وهو نفى التهمة عن أمه. فقد اتهمت فى عرضها كما قال تعالى**{وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً}**[٢] وشرف الله الملائكة بأنهم عباد فقال تعالى عنهم**{بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}**[٣]. والعبادة لله هى القاسم المشترك بين رسالات الرسل جميعاً. وهى الأمانة التى عرضها الله على**{السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}**[٤] وللعبادة لذة لا يشعر بها إلا العباد المخلصون لله. قال أحدهم: " نحن فى لذة لو شعر بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم". وقال رسول الله ﷺ: **«وجعلت قرة عيني فى الصلاة»** وكان يقول لبلال: **«أرحنا بها يا بلال»**.

وعروة بن الزبير رضى الله عنه قطع منه أحد أعضائه وهو يصلى فلم يشعر بذلك. ولا يستغربن أحداً ذلك فإن بؤرة الشعور إذا استولى عليها مؤثر فإنها لا تشعر بسواه... فالنسوة التى دعتهم امرأة العزيز لتريهن جمال يوسف عليه السلام قطعن أيديهن ولم يشعرن بذلك. وكان أبو حنيفة يصلى وسقطت حيه من سقف المسجد إلى جداره وفزع الناس وخرج بعضهم من الصلاة لكن أبا حنيفة لم يفعل. ولما سُئل عن ذلك قال: إنه لم يرها لأنه كان مستغرقاً فى لذة المناجاة لله تعالى.

---

(١) سورة مريم. الآيتين (٣٠، ٣١).
(٢) سورة النساء. الآية رقم (١٥٦).
(٣) سورة الأنبياء الآية رقم (٢٧).
(٤) سورة الأحزاب. الآية رقم (٧٢).

ثواب العابدين

ويحسن أن نتحدث عن بعض ثواب العابدين لله. ومن ذلك:

جعل الله سبحانه وتعالى لهم البشرى... قال تعالى**{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}**(١) فقد وصف الله العابدين بأن لهم البشرى وأضافهم إلى ذاته المقدسة - وهى إضافة تشريف. وبأنهم يتبعون أحسن ما يسمعون. وبأنهم هم الذين هداهم الله. وهم أصحاب العقول وكفى بذلك تشريفاً وتكريماً.

لم يجعل للشيطان عليهم سبيلاً... فقال عز وجل**{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}**(٢). أن الله جعل لهم الأمن يوم القيامة... قال تعالى**{يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}**(٣) جعل العبادة سبباً لانشراح الصدور... قال تعالى**{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}**(٤) والعبودية لله شرف وعز. بعكس العبودية للبشر فإن العبودية للبشر تعنى القهر والإذلال بعكس العبودية لله:

ومما زادنى شرفاً وتيهاً ::: وكدت بإخمصى أطأ الثريا(٥)
دخولى تحت قولك: يا عبادى ::: وأن صيرت "أحمد " لى نبياً

ثانياً – العدل مع النفس:

وقد يستغرب إنسان هذا التعبير فيقول: وهل يتصور أن يظلم الإنسان نفسه وكل منا حريص على أن يوفر لها الطعام والشراب والملبس والمسكن وقضاء الشهوة؟ وأقول أن كثيراً من الآيات ذكرت أن الإنسان قد يظلم نفسه. وكذلك ذكر رسول الله أن الإنسان قد يظلم نفسه.

فمن الآيات القرآنية نقرأ قول الله تعالى**{وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً}**(٦). فأثبتت الآية أن الإنسان يظلم نفسه. وذلك يكون بفعل المعاصى وتعريضها

---

(١) سورة الزمر الآية رقم (١٨).
(٢) سورة الإسراء. الآية رقم (٦٥).
(٣) سورة الزخرف الآية رقم (٦٨).
(٤) سورة الحجر. الآيات (٩٩، ٩٨، ٩٧)... والمراد باليقين هنا هو الموت. أى أعبد الله حتى تموت.
(٥) الثريا: نجم فى السماء.
(٦) سورة النساء. الآية رقم (١١).

لغضب الله... وقال تعالى{**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**}[١] فظهر من مجموع هذه الآيات أن العدل مع النفس يكون بالابتعاد عن معاصي الله وإلزامها طاعته. فقد قال النبي ﷺ: «**إن لربك عليك حقاً ، وإن لبدنك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، فاعط كل ذي حق حقه**». وتحضرني واقعة وقعت مع سلمان الفارسي وأخيه أبى الدرداء رضى الله عنهما - فقد آخى بينهما رسول الله - فقد ذهب سلمان الفارسي لزيارة أبى الدرداء فوجد امرأته فى ثياب مبتذلة. ولما سألها عن سبب ذلك قالت: إن أخاك أبا الدرداء، يصوم النهار ويقوم الليل [٢] وقدم أبو الدرداء الطعام لأخيه سلمان واعتذر عن الأكل معه بأنه صائم - صيام تطوع - فامتنع سلمان أن يأكل حتى يأكل معه. فأكل ولما صليا العشاء ذهب أبو الدرداء ليقيم ليله مصلياً كما هي عادته فأقسم سلمان عليه أن ينام ففعل أبو الدرداء. وقاما قبيل الفجر وصليا ما قدر لهما أن يصليا. وشكا أبو الدرداء أخاه سلمان إلى رسول الله بأنه جعله يفطر وهو صائم. وأنه جعله ينام عن قيام الله. وذكر سلمان لرسول الله أن أبا الدرداء مقصر فى حق زوجته. فقال رسول الله لأبى الدرداء: «**سلمان أفقه منك**» [٣].

ثالثا – العدل مع الغير:

ويضع النبى ﷺ ميزاناً لذلك فيقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٤].

ومن الممكن أن نقسم هذا العدل إلى ثلاثة أقسام:

١ - العدل مع من هو فوقك.

٢ - العدل مع من هو دونك.

٣ - العدل مع من يناظرك.

* فأما العدل مع من هو فوقك: فيتمثل فى طاعة الرئيس وطاعة الابن لوالديه.

* وأما العدل مع من هو دونك: فيتمثل فى عدل الرئيس مع مرؤوسيه وعدل الأبوين مع أولادهما. وأما العدل مع النظير فيتمثل مع الباقى.

---

(١) سورة التحريم. الآية رقم (٦).

(٢) تعنى بقولها أنه أنشغل بالعبادة عنها. وقد رآها قبل فرض الحجاب عليهن.

(٣) الحديث رواه البخارى.

(٤) حديث صحيح رواه الشيخان.

فالعدل مع الرئيس يتمثل ذلك فى طاعته إلا إذا أمر بمعصية. فإذا أمر بها فلا طاعة لـه. قال تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ}**[١].

فأنت تجد أن أمر أطيعوا تكرر مع لفظ الجلالة ومع الرسول ولم يتكرر مع أولى الأمر منكم للدلالة على أن طاعته مرتبطة بأن يكون أمره لا يخالف أم الله ولا أمر الرسول ﷺ. ومن العدل مع الرئيس تقديم النصيحة لـه. وتكون بالرفق واللين وبعدم التعالي عليه وإنما تكون بدافع الحب لـه ومساعدته على القيام بالمسؤولية المنوطة به. قال رسول الله: **«الدين النصيحة. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**[٢] والأئمة جمع إمام وهو الرئيس الأعلى للأمة.

فمن النصح للإمام تنبيهه عند الغفلة وإرشاده عند الهفوة وتحذيره ممن يريد به وبالأمة شراً. روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله قال: **«ثلاث لا يغفل عنهم قلب رجل مسلم: العمل لله ومناصحة ولاة الأمر والاعتصام بجماعة المسلمين»**. وقال رسول الله أيضا: **«إن الله يرضى لكم ثلاثاً: يرضى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا. وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم. ويكره لكم: قيل وقال. وكثرة السؤال. وإضاعة المال»**.

وطاعة الوالدين نوع من العدل مع من هو فوقك. ولقد قرن الله حق الوالدين بحقه تعالى. وقال عز من قائل**{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}**[٣] وقال بعض الصالحين: " أن الله قرن ثلاثا بثلاث لا تقبل واحدة دون الأخرى: الأولى.. إن الله قرن الصلاة بالزكاة - قال تعالى**{أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}**[٤] وقرن الله طاعته بطاعة رسوله فقال تعالى**{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}**[٥] وقرن شكره بشكر الوالدين قال تعالى**{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}**[٦]. ثم إن الوالدين لهما حق على الإنسان حتى بعد وفاتهما.: **«جاء رجل إلى رسول الله وقال: يا رسول**

---

(١) سورة النساء الآية. رقم (٥٨).
(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن تميم الدارى رضى الله عنه.
(٣) سورة الإسراء. الآيتان رقم (٢٣، ٢٤).
(٤) سورة المزمل. الآية رقم.
(٥) سورة النساء. الآية رقم (٥٨).
(٦) سورة لقمان. الآية رقم (١٠).

الله.. هل بقى على من البر شيء أبر به والدى بعد وفاتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما. فقال الرجل: ما أكثر هذا وأكثره يا رسول الله وأطيبه. قال: فاعمل به» [(١)].

روى الإمام مسلم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه لقيت رجل من الأعراب بطريق مكة. فسلم عليه عبد الله وحمله على حمار كان يركبه. وأعطاه عمامته التى كانت على رأسه قال ابن دينار: قد أصلحك الله إنهم أعراب ويرضون باليسير! فقال ابن عمر: إن أبا هذا كان ودوداً لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله يقول: **«إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه»**. وقال: **«من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان إلى الجنة. ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحد لواحد وإن ظلما وإن ظلما. وإن أصبح مسخطاً لوالديه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار. ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحد فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما»**.

وأما العدل مع من هو دونك فمثل عدل الرئيس مع المرؤوسين. ويكون هذا العدل بأن بعامل الرئيس مرؤوسيه بالسوية. وأن قريبهم وبعيدهم سواء فلا يجامل أحداً على حساب أحداً. ولا يحمل بعضهم على رقاب بعض.. وقال أحد القضاة لأهله: موتوا جوعاً ولا تذبحونى. فأنا مثلى ومثلكم كمثل قوم لهم بعير يأكلون من كسبه. فلما كبروا نحروه. ولكنى لا أمكنكم من ذلك " وقال محمد بن على بن الفضيل: " ما كنت أعلم أن أمور الرعية تجرى على عادة ملوكها حتى رأيت لناس فى أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكروم والبساتين واهتموا ببناء الدور والقصور. ورأيتهم فى زمن عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخير وإعطاء الصدقات "... وقد قيل فى تعليل ذلك: إن السلطات كالسوق وكل واحد يجلب إلى السوق ما يعلم أنه نافع فيه. ومن عدل الأب مع أولاده أن يسوى بينهم فى العطاء فلا يفضل أحدهم على أخيه. وكان بعضهم يساوى حتى فى القُبلة بينهم وكان يضع أحدهم على فخذ والآخر على الفخذ الآخر ثم ينقل هذا وهذا مكان هذا. وأما العدل مع من يناظرك فيتمثل فى أن تعطيه حقه قبل أن تطالب بأن تأخذ حقك منه. ويتمثل ذلك فى أن تحب له من الخير مثل ما تحبه لنفسك. وأن تكره له ما تكرهه لها.

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه. وهو من رواية أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى.

يقول بعض الحكماء: الظلم ثلاثة أنواع:

١- ظلم لا يغفره الله أبداً.   ٢- وظلم لا يتركه الله أبداً.

٣- وظلم لا يأبه الله به.

فأما الظلم الذى لا يغفره الله أبداً فهو الشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. وأما الظلم الذى لا يتركه الله أبداً فظلم العباد فيما بينهم. وأما الظلم الذى لا يأبه به فظلم العبد فيما بينه وبين الله يعنى تقصيره فى بعض العبادات؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه. فلنكن عادلين مع الناس ولنحذر ظلمهم. وبخاصة من لا يجد له ناصراً إلا الله وهم الضعفاء. فبعض الناس يظلم وهو آمن أن هذا المظلوم لن يفعل معه شيئاً لأنه ضعيف وفقير ولا حول له ولا قوة معه... ولقد قال أحد العارفين ما هبت شيئاً قط هَيبتى رجلاً ظلمته وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله ويقول: " حسبى الله. الله بينى وبينك ". قال الحسن البصرى: أوصى الله إلى آدم بأربع خصال: وقال جماع الأمر لك ولولدك من بعدك: واحدة لى. وواحدة لك. وواحدة بينى وبينك. وواحدة بينك وبين الخلق... فأما التى لى فتعبدنى ولا تشرك بى شيئاً. وأما التى لك فعملك أجزيك به أفقر ما تكون إليه. وأما التى بينى وبينك فعليك الدعاء وعلى الإجابة. وأما التى بينك وبين خلقى فتصحبهم بالذى تحب أن يصحبوك به. اللهم بغض إلينا الظلم واكفنا شر الظالمين... إنك على ما تشاء قدير.

* * * * *

من أخلاق المؤمنين:

المسارعـــة

فـــى الخيــرات

{وَسَـارِعُوا إِلَـى مَغْفِـرَةٍ مِّـن رَّبِّكُـمْ وَجَنَّـةٍ عَرْضُـهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}

المسارعة فى الخيرات

المؤمن كيس فطن. يعلم علم اليقين أنه سوف يرحل يوماً عن هذه الحياة الدنيا طال عمره أو قصر. وعليه أن يستغل هذا الوقت فى طاعة الله. ذلك أن الإنسان لا يملك إلا وقته الذى يعيش فيه كما قيل بحق: " المؤمن ابن وقته ". فالوقت الذى مضى لن يعود أبداً. والوقت الذى يستقبله لا يضمن هل يعيش ليدركه أم لا؟ فوقته الذى يحياه هو الذى يملكه من الزمن. فمن اشتغل فيه بطاعة ربه أداءً للصلاة ودفعاً للزكاة. وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر. فهو السعيد حقاً. ومن قضى هذا الوقت فى طاعة الشيطان واتباعاً للهوى وانشغالاً بالدنيا عن الآخرة فهو الشقى المحروم.

فالدنيا مزرعة للآخرة. فمن زرع خيرا حصد سلامه. ومن زرع شرا حصد ندامة ولكن لا تنفع ساعة ندامة - "لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه؟ وعن علمه ماذا عمل به"[١]... وكما قلنا قبل ذلك الحساب بمثاقيل الذر - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره "[٢].

وعمر الإنسان هو رأس ماله؛ ولذلك فالعجب من الإنسان يقول لآخر: هيا بنا نقتل الوقت!! والحق إن هذا الإنسان يقتل نفسه. أو يقول: هيا بنا نضيع الوقت!! كأن الوقت شيء تافه لا مانع من إضاعته! بينما الوقت فى الحقيقة أنفس شيء فى هذه الحياة. ويوم القيامة سوف لا يندم الناس كما يندمون على أنهم أضاعوا أوقاتهم فيما لا ينفعهم... يُروى أن عبداً صالحاً قال: تخيلت نفسى فى الجنة أعانق أبكارها. وآكل ثمارها وأشرب من أنهارها. وقلت لنفسى: يا نفسى.. ماذا تشتهين؟ فقالت: أن أعود إلى الدنيا لأستزيد من العمل الصالح حتى أستزيد من هذا الثواب... قال وتخيلت نفسي فى النار أعانى من أغلالها وقيودها. وآكل من زقومها وأشرب من حميمها وغسيقها. وقلت لنفسى. يا نفسي.. ماذا تشتهين؟ فقالت: أن أعود إلى الدنيا مرة ثانية لأعمل عملا صالحا حتى أنجو من هذا العذاب. فقال لها: يا نفسي هاأنذا فى الدنيا فاعملي.

والقرآن الكريم يقص علينا طُرفاً من أقوال أهل النار وكيف يتمنون العودة إلى الدنيا ولكنهم لا يجابون. قال تعالى:**{وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}**. ويأتي الرد من الله الذي يزيدهم يأسا وقنوطا:**{أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ**

---

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى بسند صحيح.

(٢) سورة الزلزلة.

وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ [(١)]. والرد عليهم برفض طلبهم وعدم إجابتهم رد عادل. فقد أعطاهم الله العمر وأرسل إليهم الرسل. ولكنهم أفنوا أعمارهم فى مخالفة الله. وعصوا رسلهم برغم وضوح الآيات وظهور المعجزات... فويل لهم مما كانوا يعملون. وفى آية أخرى يقول عنهم:**{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ}**. ويأتى الرد أيضا فى تكملة الآية:**{كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**[(٢)]. وقد وضع الله المنهاج الذى يجب أن يتبعه المؤمن فى قضاء وقته. فقال عز من قال:**{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}**[(٣)].

فالمؤمن إذا فرغ من عمل بدأ فى عمل آخر. وإذا فرغ من عبادة ربه وأداء فرضه عليه أن ينصب وأن يتعب فى تحصيل رزقه. وهذا العمل الذى للدنيا - كما يرى البعض - ينقلب عملا صالحا للآخرة إذا نواه ليستعين به على طاعة ربه.

المؤمن يعلم أن عمره يسير به سير السفينة بركابها - فهو فى الحقيقة مسافر - أول منازله حلته فى دنيا المهد. وآخر محطة الوصول هى اللحد. ووطنه بعد الرحلة جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين. فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... أو نار وقودها الناس والحجارة. وعمر الإنسان مسافة سفره من المهد إلى اللحد. تبين السنون مراحله وتكون الشهور فراسخه. وتحدد الأيام أمياله وتعين الأنفاس خطواته... وطاعة الله زاده ونوره قرآن ربه وسنة نبيه ﷺ. وشهواته قطاع طريقه. وربحه فى النهاية الفوز بلقاء الله وجنته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

المؤمن فى صراع مع الزمن يبادره بعمله الصالح قبل فوات الأوان. ودافعه إلى ذلك قول الله تعالى:**{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}** [(٤)]. ويقول فى آية أخرى:**{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ}** [(٥)].

ومعنى المسارعة إلى المغفرة والجنة المسارعة إلى أسباب ذلك بفعل الطاعات واجتناب السيئات. فاللسان يسارع إلى كلمة الحق شهادة به ودلالة على الخير أمرا بالمعروف ونهيا عن

(١) سورة فاطر. الآية رقم (٣٧).
(٢) سورة المؤمنون. الآيتان رقم (٩، ١٠).
(٣) سورة الشرح.
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (١٣٣).
(٥) سورة الحديد. الآية رقم (٢١).

المنكر. واليد تسارع إلى إعطاء الصدقة ومعاونة المحتاج. والعين تسارع إلى صفحات العلم والتأمل فى آيات الله فى كونه. والقلب يسارع إلى مشاعر الخير ينفعل بها ويحض عليها.

ولقد أثنى الله على أنبيائه بأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات. فقال عن زكريا عليه السلام:**{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ}** (١). وكذلك أثنى الله تعالى على بعض أهل الكتاب بأنهم كانوا يسارعون فى الخيرات. قال تعالى:**{مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ}** (٢).

والقرآن الكريم - كذلك - لا يسوى بين من أنفق من قبل الفتح - فتح مكة - وبين من أنفق بعد ذلك. قال تعالى:**{لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** (٣).

وهكذا تفيض آيات القرآن الكريم ثناء ومدحا للذين يسارعون فى الخيرات وإليها يتسابقون. إذ هى دعوة قوية للتحلي بفضيلة المبادرة. وتحث آيات أخرى على المنافسة للفوز برضا الله. قال تعالى:**{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنَافِسُونَ}** (٤). والآية الكريمة تشير إلى ثواب الله المذكور فى الآيات السابقة وذلك فى قوله تعالى:**{إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ}** (٥)... وفى النظم الشريف قصر للمنافسة وأنها على هذه الأشياء: التنعم. الجلوس على الأرائك. نضرة الوجه. الشراب من الرحيق المختوم الذى ختامه مسك... وكأن الله قال: المنافسة لا تكون إلا فى هذه الأشياء. وإذا رجعنا إلى سنة رسول الله ﷺ فإننا نجده ﷺ يقول: **«بادروا بالأعمال فإنه ستكون فتنا تقطع الليل. يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا. ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا. يبيع دينه بعرض الدنيا»** (٦). ويحض على إتيان الصلاة فى وقت الفضيلة فقد سئل ﷺ: **«أي العمل أفضل يا رسول الله؟**

---

(١) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٨٨، ٨٩).
(٢) سورة آل عمران. الآيتان رقم (١١٣، ١١٤).
(٣) سورة الحديد. الآية رقم (١٠).
(٤) سورة المطففين. الآية رقم (٢٦).
(٥) سورة المطففين. الآيات أرقام (٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦).
(٦) رواه مسلم عن أبى هريرة.

فقال: الصلاة لوقتها. قيل: ثم أى؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أى؟ قال: الجهاد فى سبيل الله» [١]. ويقول ﷺ فى حديث آخر: **«أول الوقت رضوان الله. ووسط الوقت رحمة الله. وآخر الوقت مغفرة الله»** [٢]. ويعلق أبو بكر الصديق على ذلك فيقول: رضوان الله أحب إلينا من عفو الله. لأن رضوان الله للمحسنين وعفوه للمقصرين.

ويدعو ﷺ إلى أداء الحج متى تحققت الاستطاعة. فقد يمرض الإنسان. وقد تذهب الاستطاعة. وقد يكون الطريق مخوفا بعد ذلك فقال ﷺ: **«حجوا قبل أن لا تحجوا»**[٣]... ويدعو ﷺ إلى إخراج الصدقة. وقد سئل ﷺ: **«أى الصدقة أفضل؟ فقال: أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم. قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان كذا»** [٤]. ولعل السائل كان يسأل عن نوع الصدقة. وهل بالمال أفضل أم بالطعام؟ ولكن رسول الله ﷺ بين أن أفضل الصدقة أن يتصدق الإنسان وهو صحيح بكامل صحته وله آمال وله طموحات يريد أن يحققها ومع ذلك يتصدق. فهذه الصدقة أفضل من الصدقة التى يخرجها الإنسان حينما يعاين منيته وتصل الروح إلى الحلقوم. كما يدعو رسول الله ﷺ إلى المبادرة بالتوبة فيقول: **«إن الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل. و يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار. حتى تطلع الشمس من مغربها»** [٥]. ويرحم الله القائل:

إذا هبت رياحك فاغتنمها ::: فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها ::: فما تدرى السكون متى يكون
إذا ظفرت يداك فلا تقصر ::: فإن الدهر عادته يخون

والتبكير فى الذهاب لصلاة الجمعة مسارعة فى الخيرات: **«فمن راح فى الساعة الأولى فكأنما قدم بدنة. ومن راح فى الساعة الثانيه فكأنما قدم بقرة. ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قدم كبشا. ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قدم دجاجة. ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قدم بيضة»** [٦]... فانظر - رحمك الله - إلى الفرق بين البدنة والبيضة. هذا الفارق الضخم سببه

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) الحديث رواه الدارقطنى وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.
(٣) الحديث رواه الأصبهانى عن ابن عباس.
(٤) حديث صحيح... ومعنى بلغت الحلقوم أى وقت خروج الروح.
(٥) الحديث رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى.
(٦) حديث شريف رواه البخارى ومسلم. وهو من رواية أبى هريرة - وفى أول الحديث: (من اغتسل يوم الجمعة غسل جنابة). وفى آخره: (فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر).

المسارعة فى الخيرات. وذلك بالذهاب مبكرا إلى المسجد لصلاة الجمعة.

هؤلاء الذين يجلسون فى بيوتهم حتى يصعد الإمام المنبر وربما كانت بيوتهم فى مقابلة باب المسجد! بل هؤلاء الذين يأتون والخطيب يدعو للمؤمنين والمؤمنات فى آخر الخطبة الثانية!! هؤلاء وأولئك أى ثواب قد حرموا أنفسهم منه بسبب عدم المسارعة فى فعل الخيرات؟

ولقد كان رسول الله ﷺ مثلا أعلى فى المسابقة إلى الخيرات... يروى أبو سروعة عقبة بن الحارث قال: **«صليت العصر فى مسجد المدينة مع رسول الله ﷺ. فلما فرغ من صلاته قام مسرعا إلى إحدى حجرات نسائه فمكث قليلا ثم خرج ثم قال: تذكرت شيئا من تبر وخشيت أن يحبسني فأمرت بقسمته وعدت إليكم»** (١). فأنت ترى أن رسول الله ﷺ بعد أن فرغ من الصلاة قام مسرعا على خلاف عادته من ختام الصلاة ثم رجع. ذلك لأنه تذكر شيئا من تبر - يعنى قليلا من ذهب - فأمر بقسمته لأنه خشي أن يلحق بالرفيق الأعلى وعنده هذا القدر من الذهب. وهذا عمير بن الحمام كان فى يده بعض تمرات. والمعركة بين أنصار الله وبين أنصار الطاغوت على وشك الانفجار. ويسأل رسول الله ﷺ عن مصيره إذا استشهد فى هذه المعركة. ويخبره الرسول ﷺ بأن مصيره الجنة. فينظر إلى التمرات فى يده ويقول: أأعيش حتى آكل هذه التمرات؟ إنه لعمر طويل. ولماذا أتأخر عن دخول الجنة؟ ويلقى بهن بعيدا وهو يقول:

ركضا إلى الله بغير زاد ::: إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد ::: وكل زاد عرضة للنفاذ

إلا التقى والبر والرشاد

ويدخل المعركة يضرب بسيفه لنصرة رسوله ولنصرة دينه. فيلقى الشهادة ويدخل الجنة كما وعده رسول الله ﷺ إن الذين يسارعون فى الخيرات قوم لم تغرهم الحياة الدنيا ولم يخدعهم الأمل الكاذب. يعلمون أن الأعمار محدودة والأنفاس معدودة. وأن الخوف من الله تعالى هو السبيل إلى نجاتهم... قال ﷺ: **«من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة»** (٢). فلأنهم يخافون الله يمشون مسرعين أول الليل. ولذلك يصلون إلى

---

(١) رواه البخارى وقال حديث صحيح وهو من رواية أبى هريرة - ومعنى الحديث أن من خاف من الله التجأ إليه وبادر بالأعمال الصالحة حتى يدخل الجنة. فالجنة سلعة غالية لا تنال بالكسل والتقصير... قال أحدهم:

الحياة الجد والجد الحياة ::: موت من يكسل أولى من بقاه

(٢) رواه الترمذى.

غـايتهم قبـل المتثـاقلين المتبـاطئين. إنهـم يطلبـون سـلعة الله. وسـلعة الله غاليـة إنهـا الجنـة. ومـن يخطب الحسناء لم يغلها المهر. يقول النبى ﷺ: **«بادروا بالأعمال الصالحة سبعاً: هل تنظرون إلا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال.. فشر غائب ينتظر. أو الساعة والساعة أدهى وأمر»**(١). نعم هذه عقبـات تحـول بـين الإنسـان وبـين فعل الخير. فعلى الإنسان أن يبادر هذه العقبات ويسبقها قبل أن تـأتى... فـالغنى هـو الـذى يكـون سـببا فى الطغيان والبخل به وعدم إخراج زكاته عقبة كأداء على المسلم أن يتخطاها ولا يقف عندها. قال تعالى:**{كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}**(٢) .

والفقر الذى يشغل صـاحبه بالبحث هنا وهناك. يسعى على رزقه وينسى ما عليه من حقوق يجـب أن يؤديهـا نحـو ربـه عقبـة أخـرى... والمـرض الـذى يفسد البـدن ولا يسـتطيع صـاحبه أن يؤدى عبادته كما كان يؤديها وهو سليم عقبـة ثالثـة... والشـيخوخة التـى تقعد الإنسـان عن أداء الحج أو شهود الجماعـة عقبـة رابعـة... والخامسـة تتمثـل فـى المـوت الـذى يـأتي فجـأة ولـيس لــه ميعـاد محـدد يسـتعد لــه الإنسـان فيـه بـل يمـوت الصـغير قبـل الكبيـر ويمـوت الحفيـد قبـل الجـد. والعاقل من يتخطى هذه العقبـة بـأن يأخـذ مـن حياتـه لموتـه. ومـن شـبابه لهرمـه... ومـن العقبـات ظهور الدجال - نعوذ بالله منه ومن فتنته(٣) - وكذلك أيضا مجـيء السـاعة وقد ظهـرت أمـاراتها واقتربت كما قال تعالى:**{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ}**(٤).

يروى أن أبا موسى الأشعري اجتهد فى آخر عمره اجتهادا شديدا فى العبادة. فقيل لـه: لو رفقت بنفسك ببعض الرفق. فقال: إن الخيل إذا أرسلت فقاربـت نهايـة الشـوط أخرجـت جميـع مـا عندها من القوة والعدو. والذى بقى من عمرى أقل من ذلك. يقول النبى ﷺ: **«اغتنم خمسا قبـل خمـس: شـبابك قبـل هرمـك. وصـحتك قبـل سـقمك. وغنـاك قبـل فقـرك. وفراغـك قبـل شـغلك.**

(١) أو كمـا قـال ﷺ.. رواه الترمـذى وقـال حـديث حسـن - وفـى الحـديث (تقـديم الفقـر المنسـى علـى الغنـى المطغى).

(٢) سورة العلق. الآيتان رقم (٦، ٧).

(٣) المسيخ الدجال شخص ابتلى الله به عباده. يدعى الألوهية. وهو أعور العين. مكتوب بين عينيه كافر ولا يقرأهـا إلا المـؤمن. يقدره الله علـى إحيـاء المـوتى. ويمـده بكثيـر مـن خـوارق العـادات حتـى يكـون فتنـة للناس. يدخل البلاد بفتنته إلا مكة والمدينة المنورة. وستكون نهايته على يد نبـى الله عيسـى عليـه السـلام الذى سينزل آخر الزمان ويكون فى صفوف المؤمنين من أمـة محمـد ﷺ. ومـن السـنة أن يسـتعيذ المسـلم بربـه من شره ومن شر فتنته.

(٤) سورة القمر. الآية رقم (١).

وحياتك قبل موتك» [١].

وكأنى بسائل يسأل: ألا تتناقص دعوتك إلى المسارعة مع الحديث الذى يقول: **«العجلة من الشيطان»** [٢]. وقول من قائل: " فى التأنى السلامة. وفى العجلة الندامة "؟ وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن الأمور تتفاوت فمنها ما يحمد فى التأخير لكونه مما يحصل على تأن وتؤده وتمهل لأنه يحتاج إلى دراسة وإعادة نظر. ومنها ما يحمد فيه التعجيل والسرعة وانتهاز الفرصة لأن ضياع الفرصة غصة كما يقولون. ومن هذا القبيل ما أمر رسول الله صهره وابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه به. حيث يقول: **«ثلاثة لا تؤخرها: الصلاة إذا حان وقتها. والجنازة إذا حضرت. والأيم إذا وجدت كفئا»**[٣] .

وهذا حق فالصلاة تؤدى فى أول وقتها أفضل منها حينما تؤخر. وقد يموت الإنسان وهو غير مؤد لها ويسأل عنها لماذا لم تؤد الصلاة المفروضة عليك؟... والجنازة إذا حضرت يصلى عليها وتدفن. فكرامة الميت دفنه كما يقال إلا إذا كانت هناك ضرورة... والمرأة التى لا زوج لها متى وجدت الكفء الصالح، فالخير كل الخير فى تزويجها ولا تؤجل. والمسارعة التى يدعو إليها هى المسارعة فى فعل الخير. أما المسارعة فى فعل الشر فهذا أمر مرفوض. ندعو إلى تركه بالمرة وعدم فعله لا على وجه السرعة ولا على وجه البطء [٤]. وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على الذين يسارعون فى الخيرات فإن القرآن قد ذم الذين يسارعون فى الإثم والعدوان وإيذاء الناس ومعصية الله تعالى. قال تعالى:**{قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً}** [٥].

قال تعالى مخاطبا رسول الله ﷺ:**{وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}** [٦]. فالله يسلى رسوله ويأمره بعدم الحزن لأن هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر لن يضروا الله شيئا. إنما يضرون أنفسهم حيث يجدون العذاب العظيم ينتظرهم فى الآخرة. ويقول فى سورة المائدة:**{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ**

---

(١) رواه الحاكم وقال حديث صحيح. وراوى الحديث هو الصحابى الجليل ابن عباس رضى الله عنه.

(٢) رواه أبو يعلى عن أنس. ورواته رواة الصحيح.

(٣) الأيم: هى من لا زوج لها.

(٤) جاء فى حديث رسول الله ما يؤكد هذا المعنى: (التؤدة فى كل شيء إلا فى عمل الآخرة) - رواه أبو داود.

(٥) سورة الكهف. الآيتان رقم (١٠٣، ١٠٤).

(٦) سورة آل عمران. الآية رقم (١٧٦).

يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}(١).

يذكر ابن كثير فى تفسيره أن هذه الآية الكريمة نزلت فى المسارعين فى الكفر الخارجين عن طاعة الله ورسوله. المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله من المنافقين الذين اظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية. ومن أعداء الإسلام وأهله وهم لذلك حينما احتكموا إلى رسول الله ﷺ فى إقامة الحد على زان وزانية - وفى التوراة الرجم - ولكنهم قالوا نحتكم إلى محمد فإن حكم بالجلد ننفذ حكمه وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه. فلما حضر أمرهم بإحضار التوراة وأن يقرءوا فيما جاء فيها. فقرأ واحد منهم ما قبل الرجم وما بعده. ولكن رسول الله ﷺ أمر القاريء أن يرفع يده عن الرجم. فرفع فإذا آية الرجم تلوح " انتهى بتصرف ". وهؤلاء اليهود والمنافقون الذين يسارعون فى الإثم والعدوان وصف الله قلوبهم بالنجاسة فلم يرد الله أن يطهر قلوبهم بل جعلها كما هى مأوى للكفر والنفاق ولقد أخزاهم الله فى الدنيا وفضح أمرهم. وفى الآخرة لهم عذاب عظيم.

روى عن جابر بن عبدالله قال خطبنا رسول الله ﷺ فقال: **«يأيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا. وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا. وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم وكثرة الصدقة فى السر والعلانية. ترزقوا وتنصروا وتجبروا»**. (٢)

وعن عبدالرحمن السلمى قال: نزلنا من المدائن على فرسخ. فلما جاءت الجمعة. فخطبنا حذيفة قال: إن الله يقول اقتربت الساعة وانشق القمر. ألا وإن الساعة قد اقتربت. ألا وإن القمر قد انشق. ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق. ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق.. فقلت لأبى أيستبق الناس غدا؟ قال: يا بنى إنك جاهل! إنما يعنى العمل اليوم والجزاء غدا. فلما جاءت الجمعة الأخرى حضرنا. فخطبنا حذيفة فقال: إن الله يقول اقتربت الساعة وانشق القمر. ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق. ألا وإن اليوم المضمار وغدا السباق. ألا وإن الغاية النار والسباق من سبق إلى الجنة (٣).

---

(١) سورة المائدة. الآية (٤١).

(٢) رواه ابن ماجة.

(٣) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد.

من أخلاق المؤمنين:

التوبــة

أوحى الله إلى داود عليه السلام (يا داود: لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود.. هذه إرادتي فى المدبرين عنى فكيف إرادتي بالمقبلين على).

التوبـــة

خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة من النور الصافى. فكانوا روحانيين ليس لهم شهوة فى طعام أو شراب أو نكاح. فهم عباد مكرمون**{لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}**[(١)]. **{لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}**[(٢)]... وخلقت البهائم من الشهوة الخالصة. همها الأكل والشرب والنسل... والشياطين خلق أبوهم إبليس من النار. واعتز الملعون بذلك وزعم أنه أفضل من آدم فحقت عليه اللعنة. وطرد من رحمة الله وصار همه إغواء بنى آدم[(٣)]... وخلق الله آدم من تراب ونفخ فيه من روحه. وركب فيه العقل والشهوة. فمن غلبت روحه شهوته اتصل بعالم النور - عالم الملائكة. ومن غلبت شهوته روحه انحط إلى درك البهائم وصار ألعوبة فى يد الشيطان.

والأصل الأصيل فى خلق الإنسان أنه مخلوق على الفطرة ولكنه إذا انساق وراء شهوته وشيطانه وهواه خرج عن تلك الفطرة: **«كل مولود يولد على الفطرة. فأبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»** [(٤)] وكان رسول الله ﷺ يقول لمن أتاه مستفتيا: **«استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، الإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس. والبر ما اطمئن إليه القلب»** [(٥)].

فإذا زلت القدم. ووقع الإنسان فى شرك المعصية وألقى حبله فى يد الشيطان. فصار ألعوبة يصرفها كيف يشاء. فإن الله لا يترك عبده ولا يتخلى عنه وإنما يفتح له باب التوبة على مصراعيه فيدخل فيه: وإذا تاب وأناب غفر له وكانت دموعه أحب إلى الله تعالى من رجل المسبحين.: **«وإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»** [(٦)]. وقد قيل بحق: (إن التجرد للخير المحض دأب الملائكة المقربين. والتجرد للشر

---

(١) سورة التحريم. الآية رقم (٦).

(٢) سورة الأنبياء. الآيتان رقم (٢٧، ٢٨).

(٣) جاء هذا المعنى فى أكثر من آية فى القرآن الكريم. قال تعالى:**{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}**... إلى أن قال:**{قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}** سورة الأعراف. من الآية رقم (١٢) حتى الآية رقم (١٨).

(٤) حديث شريف.

(٥) الحديث رواه أحمد والدارقطنى بسند صحيح.

(٦) حديث شريف رواه مسلم والنسائى عن أبى موسى الأشعرى. وفى آخر الحديث: (حتى تطلع الشمس من

المحض شجية الشياطين المرجومين. والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين). فقد ازدوجت فى طينة آدم شائبتان: التراب والروح. فأما أن ينزع الإنسان إلى الأرض. وأما أن يسموا إلى الملائكة.

مضار المعصية

المسلم الخير ينفر من المعصية نفوره من أى شيء يؤذيه كالسبع والحريق والمرض. وبالتالى فعليه أن يفر من المعاصى كما يفر من مجذوم - فإن سوء الخلق معدى - بل أن المعصية أشد فتكا من أى مرض فالمرض إذا قوبل بالصبر والرضا كان كفارة لذنوبه. والرضا بالمعصية قد يؤدى بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله. فيكون قد خسر الدنيا والآخرة - وذلك هو الخسران المبين.

من مضار المعصية وشؤمها ما يلى:

١ - الحرمان من العلم... ذلك لأن العلم نور والمعصية ظلام وهما لا يجتمعان. قال الإمام مالك للشافعى حينما رأى ذكاءه المتقد: أرى أن الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية. ولقد شكا الشافعى إلى شيخه وكيع سوء حفظه برغم ذكائه وسرعة حفظه! فأرشده شيخه إلى ترك المعاصى. وقال إمامنا[١] فى ذلك:

شكوت إلى وكيع سوء حفظى	:::	**فأرشدنى إلى ترك المعاصى**
وأرشدنى بأن العلم نور	:::	**ونور الله لا يهدى لعاصى**[٢]

فالمحروم من العلم محروم من خير كثير: **«ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين»** [٣]: **«وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب. ودرس علم خير من عبادة ستين سنة»** [٤]. ونهمس فى آذان أبنائنا وبناتنا طلاب وطالبات العلم فنقول: إذا استقصى عليكم فهم مسألة من مسائل العلم فجدد نشاط ذهنك بالوضوء وصل لربك ما استطعت أن تصليه ثم

مغربها).

(١) كان فضيلة الشيخ عبد العاطى - رحمه الله - شافعى المذهب معتزا بآراء الإمام الشافعى محبا لـه جدا ومقتفيا به فى كثير من آرائه وأفعاله. رحمه الله تعالى.

(٢) قال تعالى:{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} سورة البقرة. الآية رقم (٢٨٢).

(٣) حديث شريف رواه البخارى ومسلم عن معاوية رضى الله عنه.

(٤) قال تعالى مؤكدا هذه الأحاديث الشريفة:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ} سورة الزمر الآية رقم (٩).

عد إلى كتابك وسوف يفتح الله مغاليق ما استصعب عليك.

٢ - السيئة تغرى بالسيئة. كما أن الحسنة تغرى بالحسنة... فإذا وجدت من إنسان سيئة فاعلم أن عنده أخوات من السيئات مثلها. فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر بقطع يد سارق. فجاءت أمه وقالت: هذه أول مرة يسرق فيها يا أمير المؤمنين. فقال: كذبت إن الله لا يؤاخذ عبده فى أول مرة.

ومن المعلوم أن الشيطان لـه حيلـه ووسوساته. وهو لا يجر الإنسان إلى المعصية مرة واحدة. وإنما يقوده إليها خطوة خطوة. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}**[١]... فهو يخرجه من الشيء الأفضل إلى الفاضل. ثم تأتى الخطوة الثانية فيدخله فى الجائز مستوى الطرفين. ثم يغرقه فى المباحات. ثم إلى الصغائر. ثم إلى الكبائر. ثم إلى الشرك إن استطاع.

وتذكرون قصة المرأة التى كانت تصرع وزين الشيطان لأهلها أن دواءها عند العابد. فذهبوا إليه بها وحاولوا إقناعه ومازالوا به حتى قبلها. وزين الشيطان لهم الخطيئة حتى حملت منه. ثم خوفه من ظهور الفضيحة فأمره بقتلها ودفنها إخفاء لمعالم الجريمة. ولقنه الحجة أن يقول لأهلها: لقد جاءتها نوبة الصرع فماتت. فذهب اللعين إلى أهل الفتاة وأخبرهم بأمر العابد مع ابنتهم. فذهبوا إليه وعرفوا الحقيقة وأسقط فى يد العابد فوسوس لـه الشيطان أن يسجد لـه سجدتين حتى ينجيه مما هو فيه فسجد. فتبرأ منه الشيطان -**{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ}**[٢].

بل إن الشيطان قد يدعو الإنسان إلى فعل الخير ولكن بقصد أن يوقعه فى الشر بعد ذلك. فمثلاً قد يقول الشيطان للمصلى: أطل الركوع والسجود والقيام حتى يراك الناس ليقتدوا بك. ولكنه إذا صلى وحده لا يفعل ذلك - وهذا نوع من أنواع الرياء.

وإذا ألف الإنسان المعصية هانت عليه بعد أن كان يفر منها. ويصبح ذلك أمرا عاديا[٣].

---

(١) سورة النور. الآية رقم (٢١).

(٢) سورة الحشر. الآيتان (١٦، ١٧)... ومن هذه القصة نتعلم حرمة الخلوة بالنساء. جاء فى الحديث: (ما خلا رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان). وتحرم هذه الخلوة حتى لو كانت فى مجلس علم أو مدارسة قرآن - فليت قومنا يعلمون ذلك. وليتهم إذا علموا عملوا حتى لايكون الندم فى وقت لا يفيد فيه بكاء.

(٣) يقولون فى الحكمة القديمة: (كثرة المساس تفقد الإحساس).

فبعض الشباب المسلم يسافر إلى الخارج ومعه قيمه وأخلاقه - ويرى هناك ما لم يره هنا - فينفر من ذلك أول الأمر. ولكن بعد مدة يكون إحساسه بالمعصية قد تبلد. وهكذا ينطفيء نور الإيمان فى قلبه.

يقول النبى ﷺ: **«إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال: هكذا – يعنى أبعده – فطار»**. وإذا وصل الحال بالمسلم إلى ذلك كان هذا هو الران الذى يغطى القلب. قال تعالى:**{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** (١)... فإذا أذنب العبد ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء. فإذا تاب من هذه النكتة عاد القلب كما كان. وإن لم يتب غطت هذه النكات على القلب وانطفأ نور الإيمان فى القلب (٢) - نعوذ بالله من ذلك.

٣ - من مضار المعصية أن بعض الذنوب يؤدى إلى اللعن - والعياذ بالله - فقد لعن الله بعض مخلوقاته لعصيانهم لـه... فقال عن اليهود:**{وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً}** (٣)... ولعن إبليس فقال تعالى:**{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}**(٤) - فقد لعن الله اليهود لأنهم نسبوا الله إلى البخل وحاشاه عما يقولون علوا كبيرا. ولعن كذلك إبليس لأنه عصى ربه واستكبر وأبى أن يكون مع الساجدين.

ولعن رسول الله ﷺ الخمر وبائعها وشاريها. وعاصرها ومعتصرها. وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها... كما لعن رسول الله ﷺ الربا وكاتبه وشاهده... كما لعن الواشمة والمستوشمة. والواصلة والمستوصلة. والنامصة والمتنمصة... كما لعن ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال. واللعن هو الطرد من رحمة الله - فأى شؤم للمعصية أكبر من هذا؟!... بل إن البهائم تلعن عصاه بنى آدم. ولقد استأذنت البهائم ربها أن تخسف الأرض بابن آدم. فقد طعم خير الله وجحد شكره. واستأذنت الجبال أن تخر عليه. واستأذنت البحار أن تغرقه... وهذا من شؤم المعصية.

٤ - المعصية تحرم صاحبها من استغفار الملائكة. كما قال تعالى:**{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ**

---

(١) سورة المطففين. الآية رقم (١٤).

(٢) جاء هذا المعنى فى حديث شريف عن رسول الله رواه الترمذى وصححه.

(٣) سورة المائدة. الآية رقم (٦٤).

(٤) سورة ص. الآيتان رقم (٧٧، ٧٨).

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ**} [١].

٥ - الحرمان من الرزق...: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**» [٢]. وإن ما عند الله لا ينال بمعصيته. ولقد أخرج أبونا آدم من الجنة بأنه أكل من الشجرة المحرمة عليه بعد أن قال الله تعالى لـه**{إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى}**. وخدع آدم عليه السلام بوسوسة الشيطان حينما قال لـه:**{يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى}**[٣].

ولا يقولن أحد: نرى بعض العاصين وأرزاقهم كثيرة والخيرات عندهم وفيرة! ونرى بعض الطائعين مقترا عليهم الرزق! فكيف يتفق هذا مع ما تقول؟ فنقول إذا رأيت بعض العصاة موسعا عليهم فى أرزاقهم فاعلم أن ذلك استدراج لهم كما قال تعالى:**{سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}** [٤]. والاستدراج أن يصب الله النعم على العباد رغم نسيهم شكرها حتى يكونوا قد استنفدوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا واستمتعوا بها. ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر - وهذا هو الكيد المتين المذكور فى الآية [٥]... فهذا قارون أعطاه الله من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولى القوة. فلما جحد وكفر خسف الله به وبداره الأرض. فما كان لـه من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين[٦] .

والمؤمنون حقا هم الذين ينسبون الفضل لله ويتورعون عن الحرام. ومع ذلك يداومون على الاستغفار كما قال الله تعالى لنبيه محمدا ﷺ - وقد غفر الله لـه ما تقدم من ذنبه وما تأخر:**{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}** [٧]... سئل أحد الصالحين عن التوبة فقال للسائل: هل مشيت يوما فى طريق فيه شوك؟ قال: نعم. قال: فماذا كنت تعمل؟ قال: كنت أتقى

---

(١) سورة غافر. الآية رقم (٧).

(٢) حديث شريف رواه أحمد والنسائى وابن ماجة وأبويعلى.

(٣) سورة طه الآيات أرقام (١١٨، ١١٩، ١٢٠).

(٤) سورة القلم الآيتان رقم (٤٤، ٤٥).

(٥)أكد الله هذا المعنى فى القرآن الكريم فقال:**{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ}** سورة الأنعام. الآيتان رقم (٤٤، ٤٥).

(٦) ذكر الله قصة قارون بالتفصيل فى سورة القصص. من الآية رقم (٧٦) وحتى الآية رقم (٨٣).

(٧) سورة النصر..

مواضع الأشواك. قال لـه: كن كذلك مع المعاصى[١]...

خـــل الذنـــوب صـــغيرها ::: وكبيرهـــا فهـــو التقـــى
واصـــنع كمـــاش فـــوق أرض ::: الشـــوك يحـــذر مـــا يـــرى
لا تحقـــرن صـــغيرة ::: إن الجبـــال مـــن الحصـــى

وقال آخر:

فـــوا عجبـــا كيـــف يعصـــى الالـــه ::: وأم كيـــف يجحـــده الجاحـــد
وفـــى كـــل شـــئ لـــه آيـــة ::: تـــدل علـــى أنـــه الواحـــد

وقد قلت فى هذا المعنى: [٢]

عجبـــت لجاهـــل عـــاص ::: يبـــارزه بعصـــيانه
ويســـمع صـــوته الحـــانى ::: يناديـــه بقرآنـــه
أنـــا التـــواب يـــا عبـــدى ::: ومـــن ترجـــو لإحســـانه
فيعـــرض مـــن شـــقاوته ::: مطيعـــا وحـــى شـــيطانه
ولـــو يـــدرى لعـــاد إليـــه ::: يســـكب مـــاء أجفانـــه

وقال آخر:

تصـــل إلـــى الـــذنوب وترتجـــى ::: درج الجنـــان ونيـــل فـــوز العابـــد
أنســـيت ربـــك حـــين أخـــرج آدم ::: منهـــا إلـــى الـــدنيا بـــذنب واحـــد[٣]

---

(١) يبين الله لنا فى سورة العنكبوت نهاية العاصين من قوم لوط عليه السلام. وما أحله الله على قرى مدين من العذاب. وما حل بعاد وثمود من الخزى. وعاقبة قارون وفرعون وهامان. وكيف أن الله أهلكهم بسبب ذنوبهم... قال تعالى:**{فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** سورة العنكبوت. من الآية (٣٣) وحتى الآية (٤٠).

(٢) فضيلة الشيخ عبد العاطى - رحمه الله - كان من الشعراء المعدودين الذين برعوا فى تطويع اللغة وصبها فى قالب شعرى رائع. ولـه قصائد كثيرة فى مجالات الشعر المختلفة وأهمها وأكثرها الشعر الدينى... انظر كتاب عبد العاطى سليم شاعرا وأديبا).

(٣) ومن شؤم المعاصى أيضا أنها سبب فى بطش وجبروت الحكام والزعماء وتسلطهم على رعيتهم يسومونهم سوء العذاب. قال مالك بن دينار: كلما أحدثنا ذنبا أحدث الله لكم من سلطانكم عقوبة... وصدق الله القائل:**{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}**.

باب التوبة مفتوح

إن للتوبة بابا يفتحه الله تبارك وتعالى أمام المخطئين من عباده ليصححوا المسيرة إليه. فالله يعرف ضعف عبده. ويعلم أن الشيطان توعد بنى آدم وأنه سوف يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم. وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليصرفهم عن شكر اللهو عبادته. وما كان الله الرحيم بخلقه أن يتركهم فريسة للشيطان يتلاعب بهم. ففتح لهم باب التوبة... وفى الحديث القدسى عن رب العزة كما روى ذلك سيدنا محمد ﷺ: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى. يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى. يا ابن آدم لو أتيتنى بتراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة»** (١).

ومن أسماء الله أنه التواب. وجاء هذا الاسم الشريف بصيغة المبالغة التى تدل كثرة توبته على عباده... يروى عن الحسن قال: **«لما تاب الله على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط جبريل وميكائيل فقالا: يا آدم قرت عينك بتوبة الله عليك. فقال آدم عليه السلام: فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه: ورثت بنيك التعب والنصب وورثتهم التوبة. فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك. ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب. وأحشر التائبين من قبورهم مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب»** (٢).

والله يفرح بتوبة عبده المؤمن كما جاء فى الحديث الشريف: **«الله أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته – تاهت منه – بأرض مهلكة دوية. عليها طعامه وشرابه. فطلبها حتى آيس من حصولها فنام فى أصل شجرة ينتظر الموت. ثم استيقظ فإذا هى على رأسه قد تعلق خطامها بالشجرة. فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته»** (٣). وفى بعض الروايات أنه أراد أن يشكر الله فقال: **«اللهم لك الحمد أنت عبدى وأنا ربى»**. يريد أن يقول: (أنت ربى وأنا عبدك) ولكن من شدة فرحه قال ما قال(٤)... وهذا تصور لرضاه عن عبده التائب. من الذى طرق باب ربه تائبا بصدق فلم يقبله؟ من الذى ذرفت عيناه دمعا على ما فرط منه فلم تطفىء هذه الدموع غضب ربه عليه؟ من الذى أتى ليلا أو نهارا ماشيا فلم يأتيه مهرولا؟ من الذى تقرب إلى الله تعالى

---

(١) رواه الترمذى. وقال حديث حسن - وقاب الأرض أى ملؤها.

(٢) نقلا عن: كتاب إحياء علوم الدين. الجزء رقم (٤). الصفحة رقم (٤).

(٣) رواه البخارى ومسلم.

(٤) هذه الرواية رواها مسلم فى صحيحه.

شبرا فلم يتقرب إليه ذراعا؟ من الذى تقرب إلى الله تعالى ذراعا فلم يتقرب إليه باعا؟ [(١)]

وفى الحديث القدسى عن رب العزة ما معناه: **«عبادى يبارزوننى بالعظائم وأنا أكلؤهم على فرشهم. إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم! أخلق ويعبد غيرى. وأرزق ويشكر سواى. خيرى إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد. أتحبب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصى وهم أفقر شيء إلي. من أقبل إليّ تلقيته من بعيد. ومن أعرض عنى ناديته من قريب. ومن ترك لأجلى أعطيته المزيد ومن أراد إرضائى أردت ما يريد. ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد. أهل ذكرى أهل مجالستى. وأهل شكرى أهل زيارتى. وأهل طاعتى أهل كرامتى وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى. إن تابوا إلى فأنا حبيبهم. أحب التوابين وأحب المتطهرين. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب. من آثرنى على ما سواى آثرته على ما سواه. الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والسيئة عندى بواحدة فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له»** [(٢)].

يارب: آمنت أنك الإله الحق وأنت التواب الرحيم تتوب على العصاة والمذنبين. وتنسى الملائكة الحفظة الكرام ذنوبهم، وتنسى الأرض معاصيهم. فما أعظمك ياربى وما أحلمك. لك العتبى حتى ترضى. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[(٣)]... أيها العاصى لربه: لا غنى لك عن الرجوع إلى مولاك. فلا مهرب منه إلا إليه. ولا نجاة من عذابه إلا بالإنابة إلى بابه.

يحكى عن بعض العارفين أنه حصل له إباق وشرود. فرأى فى بعض الطرق باباً قد فتح وخرج منه صبي صغير يستغيث ويبكى. ورأى خلفه أمه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب فى وجهه ودخلت!! فذهب الصبى غير بعيد ثم وقف مفكرا فلم يجد مأوى غير البيت الذى اخرج منه ولا من يأويه غير والدته. فرجع مكسور القلب حزيناً فوجد الباب مغلقا بالرتاج. فنام أمام الباب ووضع خده على عتبته. وخرجت أمه فوجدته على تلك الحال فلم تملك نفسها أن ارتمت عليه والتزمته وجعلت تقبله وتبكى وتقول: يا ولدى. أين تذهب منى؟ ومن يأويك سواى؟ ألم أقل

---

(١) هذا المعنى جاءفى حديث عن رسول الله رواه الإمام مسلم فى صحيحه وهومن رواية أبى هريرة.

(٢) نقلا عن: مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٢١٦).

(٣) جاء هذا المعنى فى حديث شريف رواه الأصبهانى عن أنس أن رسول الله قال: (إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعاصيه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب).

لك لا تخالفنى ولا تحملنى بمعصية على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك؟.. [١]. فإذ كانت هذه رحمة أم بوالدها فكيف رحمة الله تعالى بعبده؟

ويضرب الإمام ابن القيم مثلا يصور به فرح الله تعالى بعبده التائب: بمحبوب لك تحبه حباً شديداً. وأسره عدوك وحال بينك وبينه. وأنت تعلم أن العدو يسومه سوء العذاب وهو غرسك وتربيتك. ثم إنه انفلت من العدو وأتاك على غير موعد ثم عاد يترضاك ويعتذر إليك. فكيف يكون فرحك به؟

والآيات القرآنية التى جاءت تدعو إلى التوبة كثيرة فى القرآن الكريم. قال تعالى:**{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}** [٢]. فالآية الكريمة ربطت بين التقوى وبين الفلاح... وقال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}** [٣].

وفى الأحاديث النبوية حشد هائل يدعو إلى التوبة ويحض عليها. فمن ذلك قوله: **«التائب حبيب الرحمن»** [٤]...: **«والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»**... [٥] ويقول ﷺ: **«يأيها الناس توبوا إلى الله. فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»** [٦].

ولقد رافقت التوبة الإنسانية فى تاريخها الطويل من لدن آدم عليه السلام وسوف تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولكن قبيل القيامة وحين تطلع الشمس من مغربها يغلق باب التوبة. ولا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل [٧]... فآدم أبو البشر تاب إلى الله هو وزوجه حواء بعد أن تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم[٨]... وهذا خليل الرحمن إبراهيم وابنه إسماعيل يقولان:**{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا**

---

(١) مدارج السالكين. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٢٣٦).
(٢) سورة النور. الآية رقم (٣١).
(٣) سورة التحريم. الآية رقم (٨).
(٤) قال تعالى مؤكدا هذا المعنى:**{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}**.
(٥) الحديث رواه ابن ماجة والطبرانى عن عبدالله بن مسعود.
(٦) رواه البخارى عن أبى هريرة. وفى رواية للإمام مسلم: (فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة).
(٧) جاء هذا المعنى فى حديث شريف عن رسول الله رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه). وفى حديث رواه الترمذى عن عمر بن الخطاب أن رسول الله قال: (إن الله يقبل توبةالعبد مالم يغرغر).
(٨) هذا المعنى ذكرته سورة البقرة. فى الآية رقم (٣٧).

مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[١]. وجميع الأنبياء يقولون لأممهم: استغفروا ربكم ثم توبوا إليه. ولقد تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك - وهم: كعب بن مالك. وهلال بن أمية. ومرارة بن الربيع وأمر النبى ﷺ بمقاطعتهم وأمرهم بالابتعاد عن زوجاتهم. فلما تابوا وأنابوا وأقروا بذنوبهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت تاب الله عليهم. قال تعالى:**{وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}**[٢]. والتوبة واجبة على الفور -**{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا}** [٣] - ومن لم يتب بعد المعصية يعتبر مصرا عليها. والإصرار على المعصية ذنب عظيم ويقلب الصغيرة إلى كبيرة - كما قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار - وقال بعضهم: العجلة من الشيطان إلا فى خمس: إطعام الطعام إذا حضر الضيف. وتجهيز الميت إذ مات. وتزويج البكر إذا أورقت - بلغت - وقضاء الدين إذا وجب. والتوبة من الذنب إذا أذنب. قال تعالى:**{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً}** [٤]... ومن الآثام التى يقترفها العاصي بعد معصيته أنه يجاهر بها. فهذا سوء أدب وقلة دين وحياء. ودليل على موت القلب وفحش الطبع.

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم (١٢٨)

(٢). سورة التوبة. الآية رقم (١١٨) - وحديث الثلاثة الذين خلفوا بطوله رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن كعب بن مالك.

(٣) سورة الأعراف. الآية رقم (١٠٢).

(٤) سورة النساء الآية رقم (١٧).

شروط قبول التوبة

التوبة فى معناها هى الرجوع عما ذمه الشرع من الأقوال والأفعال إلى ما حمده الشرع وأمر به. فإذا زلت قدم المؤمن وتورط فى المعصية فعليه أن يقلع عنها وأن يعود إلى طاعة ربه. فهى مبدأ طريق السالكين إلى الله. وأول أقدم المريدين ورأس مال الفائزين. وبعض الذنوب قد تكون بينك وبين ربك - كتقصير المسلم فى أداء الصلاة المفروضة. وصيام رمضان... وما أشبه ذلك - وبعض الذنوب قد تكون بينك وبين غيرك من الناس - كقذف المؤمن وسرقة ماله وبعضها الآخر يتعلق بحق الله وحق العبد - كعدم إخراج الزكاة لأنها حق معلوم للسائل والمحروم. فإذا كانت المعصية تتعلق بحق الله وحده فإن من شروط قبول التوبة...

الشرط الأول

الإقلاع عن الذنب وتركه كلية... فلا يعقل أن يريد الإنسان التوبة فى معصية ما وهو يمارسها ويصر عليها - وإلا كان هذا الإنسان كالمستهزئ بربه - وترك كل ما يذكره بها من بعيد أو قريب(١).

الشرط الثاني

الندم على ما اقترفه... فبعض الناس يذكر ذنوبه التى اقترفها فى معرض الفخر والمباهاة وليس فى معرض الذلة والندم - ولقد قال النبى ﷺ: **«الندم توبة»** (٢). والندم يكون على الذنب الصغير والكبير فلا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من تعصه بها ونار الندم تحرق الذنب وتمحوه. ونور الحسنة يمحو ظلام المعصية... يقول النبى ﷺ: **«لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب عليكم»**. وقال: **«إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة. فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يكون نصب عينيه تائبا منه فاراً حتى يدخل الجنة»** - قال أنس ابن مالك: **«إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق من الشعرة فى أعينكم كنا نعدها على عهد رسول**

---

(١) قال الشاعر فى هذا المعنى:

تعصى الإله وأنت تزعم حبه ::: هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كنت حقا صادقا لأطعته ::: إن المحب لمن يحب مطيع

(٢) رواه الحاكم. وقال صحيح الإسناد - وهو من حديث عبدالله بن معقل.

الله ﷺ من الموبقات» [١].

والندم يستدعى الاعتذار إلى الله تعالى. فبعض الحمقى يرتكبون الآثام و الخطايا وينسبون ذلك الى الله فيقولون: نصيب أو حظ أو قدر قدره الله على لا مفر منه. وهذا من سوء الأدب والجهل بما يجب لله تعالى. ولكن الاعتذار المقبول إنما يكون بالاعتراف بغلبة الشيطان وأنه أوقع فى حبائله. وبأن الشيطان هو الذى زين لــه هذه المعصية. وأن نفسه الأمارة بالسوء هى التى أوقعته فيها.

وعلى ذلك فالمعتذر إلى الله من معصيته ينسب ذلك إلى نفسه كما قال عز من قائل:**{مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ}** [٢]. وحينما يعتذر الإنسان إلى ربه وينسب الشر إلى نفسه يكون ذلك اعترافا بالعجز وإقرارا بالربوبية. وفى الحديث: **«تملقوا الله»** أى انسبوا الخير إليه والشر إلى أنفسكم. ويقول أيضا: **«من اعتذر إلى الله قبل عذره»**.

وفى بعض الآثار أن العبد إذا أذنب فقال: يا رب هذا قضاؤك وأنت حكمت علي وأنت كتبت علي. يقول الله: وأنت عملت وأنت كسبت وأنت أردت واجتهدت وأنا أعاقبك عليه... وإذا اعتذر العبد فقال: يا رب أنا ظلمت وأنا أخطأت وأنا اعتديت وأنا فعلت. يقول الله عز وجل: وأنا قدرت عليك وأنا قضيت وأنا كتبت عليك وأنا أغفر لك... وإذا عمل العبد حسنة فقال: يا رب أنا عملتها وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعت. يقول الله: وأنا أعنتك وأنا وفقتك... وإذا قال: يا رب أنت أعنتنى ووفقتنى وأنت مننت على. يقول الله: وأنت عملتها وأنت أردتها وأنت كسبتها[٣]. وبالجملة فإن الاعتذار بقدر الله وقضاؤه مخاصمة لله واحتجاج من العبد على ربه. وجعل الأقدار شماعة يعلق عليها أخطاؤه وهو اعتذار أقبح من ذنب.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) سورة النساء. الآية رقم (٧٩).
(٣) مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (١). الصفحة رقم (٥٠٢).

الشرط الثالث:

رد المظالم إلى أهلها... وذلك إذا كان الذنب يتعلق بحق من حقوق العباد. فلا بد من رد هذا الحق إذا كان موجوداً. أو الطلب من صاحب الحق أن يجعله فى حل - يقول النبى ﷺ : **«من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم»** [١].

س: هل يشترط فى طلب الحل أن يذكر ما وقع منه بالتفصيل؟

ج: إن الرأى الراجح أنه لا داعى لأن يذكر ذلك بالتفصيل وإنما يكون بطريق الإجمال والتعميم. فربما كان الذنب يتصل بالعرض وذكر ذلك بالتفصيل يشيع العداوة والبغضاء. وربما تعقدت الأمور وليس ذلك من مقاصد الشريعة التى تدعو إلى الألفة والمحبة بين الناس... وعلى الذى ارتكب ذنبا من هذا القبيل أن يكثر من الدعاء والاستغفار من الدعاء لصاحب الحق [٢].

علامات قبول التوبة

التوبة إذا استوفت شروطها يرجى لها القبول كرما من الله وفضلا... ومن هذه العلامات:

١- يتغير سلوك التائب فيكون بعد التوبة خيراً منه قبلها. بمعنى أن يكثر من الطاعات وان يرتاد المساجد وأن يحرص على حضور مجالس العلم. أما من تاب بلسانه واستمر على سوء صنعه فهذا دليل على أن التوبة غير مقبولة... سأل رسول الله ﷺ سيدنا الحارث فقال: **«كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت بحمد الله مؤمنا. قال النبى ﷺ: انظر ما تقول فان لكل شيء حقيقة. فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسي عن الدنيا. فاستوى عندي ذهبها ومدرها – طينها – وأظمات نهاري وأسهرت ليلى. وأصبحت كأنى أرى عرش ربى بارزا. وكأنى أرى أهل الجنة فى الجنة يتناغون فيها. وأهل النار فى النار يتضاغون فيها. فقال النبى ﷺ: عرفت فالزم – ثلاثا**[٣] **فرسول الله ﷺ لم يقبل من الحارث قوله: أصبحت بحمد الله مؤمنا حتى بين له حقيقة هذا الإيمان»**.

٢- ألا يزال خائفاً من ذنبه. فبعض الناس من يظن انه ما دام قد تاب فقد أخذ صكا على الله

---

(١) الحديث رواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة.

(٢) أرى والله أعلى أعلم - أن الذنب إذا كان خاصا بقذف عرض أو غيبة أو ماشابه ذلك فله بدلا من أن يوغر صدر من قذفه وأهانه فى غيبته عند الاعتذار إليه أن يذكر محاسن هذا الشخص ويكذب نفسه أمام المجلس الذى اغتاب فيه أو فى مجالس أخرى... والاعتراف بالحق فضيلة.

(٣) الحديث مذكور فى كتب السنة.

أن ذنبه قد غفر وأخذ عهدا بالإيمان من عذاب الله. وإنما يظل خائفا حتى يجعله الله آمنا يوم القيامة... وفى الحديث القدسي: لا أجمع على عبدي أمنين ولا خوفين. فمن أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة. ومن أخافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة[1]... ولنذكر قول أبى بكر الصديق رضي الله عنه لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة.

٣- أن يظهر ذلة ومسكنة بين يدي ربه ويسال بعزته أن يرحم ضعفه وذله. وأن يتوسل إليه بغناه سبحانه عنه. وبفقره هو إليه. ويسأله مسألة المسكين. ويبتهل إليه ابتهال الخاضع الذليل. وأنه ليس أمامه غير إلا بابه فإذا طرد عنه فبمن يلوذ...

وقد قيل...

يا من ألوذ به فيما أؤمله ::: ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ::: ولا يهيضون عظما أنت كاسره

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ وقالت: «**يا رسول الله إنى حبلى من الزنا فطهرنى. فأمرها أن تذهب حتى تلد. وبعد أن ولدت جاءت مرة ثانية إلى الرسول وطلبت منه أن يطهرها – وهى تعلم أن الحد الذى يقام عليها هو الرجم بالحجارة حتى تموت لأنها كانت قد أحصنت – فقال لها اذهبي حتى تفطميه. وذهبت وعادت بعد أن فطمته فأخذه رسول الله ﷺ وأمر بها فرجمت. وقذفها خالد بحجر وتطاير الدم على ثيابه فسبها. فقال النبى ﷺ مهلا يا خالد لا تسبها. لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم**»[2] .

انظر إلى مجيء المرأة بنفسها تطلب إقامة الحد. ولم تقل: أقم على الحد. وإنما قالت: طهرني - ثم يدعها ﷺ حتى تلد. وتجيء للمرة الثانية ويأمرها رسول الله ﷺ بأن ترضعه حتى الفطام. وتعود بعد أن فطمته طاعة مختارة ليقام عليها الحد رجما بالحجارة حتى الموت فتلقى الله نادمة تائبة... وتلك لعمري التوبة النصوح المقبولة أن شاء الله بنص حديث الرسول ﷺ.

وقصة الرجل الذى قتل تسعا وتسعين نفسا. وذهب إلى عابد ليتوب على يديه فأغلق فى وجهه باب التوبة فقتله. ثم ذهب إلى عالم فلم يرده عن باب الله تعالى المفتوح ليلاً ونهاراً أمام التائبين. ولكن نصحه أن يبعد عن هذه القرية التي عصى الله فيها إلى قرية أخرى. وفى

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.

(٢) أو كما قال رواه مسلم من حديث عمران بن حصين - وفيه أن رسول الله صلى عليها فتعجب عمر من ذلك.

الطريق أدركته منيته فاختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة أيهم أحق به. فبعث الله ملكا ليحكم بينهم فأمرهم أن يقيسوا المسافة التي بينه وبين بلد المعصية وبينه وبين بلد الطاعة. فإلى أى البلدين أقرب أخذته ملائكة العذاب أو ملائكة الرحمة. وفى بعض الروايات أن الله قال لبلد الطاعة اقتربى وقال لبلد المعصية تباعدي. وبذلك أخذته ملائكة الرحمة بفضل الله تعالى ورحمته (١).

وإذا كان للتوبة أثرها على الفرد بنجاته من عذاب الله ودخوله جنة عرضها السماوات والأرض. فإن للتوبة اثر على المجتمع لأنها تعيد إليه فردا شرد عنه. وبذلك تستأصل جرثومة الفساد. فالمجرم إذا علم أن الله لا يغفر له وأن المجتمع لا ينسى له جريرته فإنه يتمادى فى الجريمة. بخلاف إذا علم أن الله يقبل توبته وأن المجتمع يرحب به عضوا نافعاً. فإن ذلك أجدى على المجتمع وأنفع.

وإذا أراد الله بعبده خيرا فإنه يرضى غرماءه وخصماءه عنه يوم القيامة. فيريهم قصورا يرى ظاهرها من باطنها. وباطنها من ظاهرها. فيقولون لمن هذه القصور؟ إلى نبى أم إلى ولى أم إلى شهيد! فيقال لهم: ليست إلى نبي ولا لولى ولا لشهيد. وإنما هي لمن يعفو لأخيه. فيعفون عنه فيقال لهم: خذوا بيد أخيكم وانطلقوا به إلى الجنة (٢). اللهم ارزقنا قبل الموت توبة. وعند الموت راحة وفى الآخرة سعادة وفوزا.

* * * * *

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد صحيح والبخارى ومسلم من رواية أبى سعيد الخدرى.

(٢) حديث صحيح.

من أخلاق المؤمنين:

الإيثـــار

{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ}

الإيثـــار

الإيثار خلق من الأخلاق التى ربى الإسلام أبناءه عليها. فعاشوا أخوة متحابين يؤثر كل منهم على نفسه كما وصف الله سبحانه وتعالى الأنصار بقولـه:**{وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**(١). وهو خلق يدل على نفس صافية. وقلب موصول بالله تعالى. واثق أن ما عند الله خير وأبقى. وأنه يعطى القليل ويأخذ الكثير. والكثير فى جنة أكلها دائم وظلها ممدود. بل يأخذ أسمى من ذلك وأعلى أنه ينال رضا الله سبحانه وتعالى.

الإيثار هو تقديم الغير على نفس وحظوظها الدنيوية. وذلك انتصار على الشيطان الذى يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. والله يعدكم مغفرة منه وفضلا. وانتصار على النفس الأمارة بالسوء ويسمو بها إلى الدرجات العلى. وتخلص من الأثرة البغيضة وحب الذات التى تريد إرواء الشهوات وإشباع الرغبات. ولا يكترث بعد ذلك أن يبيت غيره على الطوى كما قال القائل: (إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر)(٢) ولكن صفة الإيثار تدفع إلى مشاركة الناس أفراحهم و أطراحهم كما قال القائل:

فـــلا نزلـــت علـــى ولا بـــأرض ::: ســـحائب لـــيس تنـــتظم الـــبلادا

إنه الإيمان الذى يخلق الإنسان خلقاً جديداً. وإنها العقيدة التى تملأ القلب بالأخوة الحقة...

وإذا راضت العقيدة قلبا فمن الصعب أن يكون أناني، ويؤثرون على أنفسهم وفى القرآن الكريم أمثلة رائعة لأناس تحلوا بخلق. الإيثار فمن ذلك ما جاء فى قولـه تعالى:**{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً}**... فانظر إلى هذا الإيثار**!** فقد ورد أن أسرة على بن أبى طالب كانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام - فقد كانوا صائمين - ووضعوا أمامهم قرصا من الشعير. فلما أذن المغرب أتاهم مسكين وطلب الطعام فأعطوه ما أمامهم. وأفطروا على الماء وفعلوا مثل ذلك فى اليوم الثانى مع يتيم. وفى اليوم الثالث مع أسير ثم لم يمنوا بل لم يطلبوا ممن أعطوهم جزاء ولا شكورا (٣).

---

(١) سورة الحشر. الآية رقم (٩).
(٢) أى المطر.
(٣) من الصور الرائعة فى القصص القرآنى والتى تبين مدى إيثار السابقين ترى قول الله تعالى حاكيا على لسان موسى عليه السلام قصته مع الخضر لما ركب السفينة وخرقها:**{قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً}**. ونلحظ أن موسى عليه السلام كان راكب فى السفينة ولو غرقت السفينة لغرق مع أهلها. ولو

وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها - وهى زوج رسول الله ﷺ وبنت أبى بكر الصديق رضي الله عنه - سألها مسكين شيئا وهى صائمة. وكان عندها رغيف واحد كان معداً لتفطر عليه. فقالت لخادمتها: أعطيه إياه ففعلت. وما كان الله تعالى ليتركها بدون طعام تفطر عليه وهى التى آثرت على نفسها. فآتاها إفطارها هدية عبارة عن شاه بكفنها(١). فقالت عائشة لفتاتها: كلى من هذا فهذا خير من قرصك.

وذكر صاحب كتاب إحياء علوم الدين أن عائشة رضى الله عنها جاءها عطاؤها من الغنيمة والفيء - وكان ذلك مائة وثمانين ألف درهم - فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس. فلما أمست وكانت صائمة دعت بفطورها فكان خبزا وزيتا. وقالت لها الجارية: أما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشترى بدرهم لحما لنفطر عليه؟ فقالت أم المؤمنين: لو ذكرتني لفعلت - ومعنى ذلك أنها نسيت نفسها والدراهم أمامها بالألوف... إنه خلق الإيثار. وكفى بذلك الخلق شرفا يدل على حسن الثقة بالله تعالى.

وفى تفسير القرطبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخذ أربعمائة دينار فجعلها فى صرة ثم قال للغلام: إذهب بهذا إلى أبى عبيدة بن الجراح وقل له: إن عمر يقول لك: اجعل هذا فى حوائجك. ثم أمر الغلام أن يتلكأ فى بيت أبى عبيدة حتى ينظر ماذا يفعل بهذا المال. فلما وصل الغلام وأعطى أبا عبيدة المال قال أبو عبيدة: وصله الله ورحمه. ثم قال: تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان. وبهذه الخمسة إلى فلان وقسمها كلها. ورجع الغلام وقص ذلك على عمر بن الخطاب رضى الله عنه فوجده قد أعد مثلها وأمره أن يذهب إلى معاذ بن جبل. وقال له اذهب إلى معاذ وقل له: يقول لك عمر بن الخطاب اجعل ذلك فى بعض حوائجك. وتلكأ فى البيت ساعة. وفعل معاذ ما فعله أبو عبيدة من توزيع المبلغ على الفقراء والمحتاجين.

أنه قال للخضر:"أخرقتها لتغرقها" يقصد نفسه وأصحاب السفينة لم يكن ذلك عيبا ولا خطأ لأنه يطلب سلامته وسلامة الآخرين. لكننا نجده ينسى نفسه تماما وينسى صاحبه الخضر ولا يهتم إلا بمصلحة أصحاب السفينة الفقراء المساكين فقال﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾.

أى إيثار هذا الذى ينسى به المرء ذاته ومصالحه الشخصية ولايرى سوى مصالح الآخرين... نرى فى القرآن أيضا قول النملة لأخواتها حين هم نبى الله سليمان وجنوده العبور على جحورهم قالت:﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾. فهذه النملة لم تهتم بمصالحها وتقول كما يقول الناس اليوم نفسى نفسى بل اهتمت بمصالح أخواتها النمل فى وقت الشدة والبأس... فهل يتعلم المسلمون أدب الإيثار ويجعلوه واقعا ملموسا فى حياتهم حتى ينعموا ويغنموا ويسودوا.

(١) ومعنى كفن الشاة أن العرب كانوا يذبحون الشاة ويسلخونها ويغطونها بعجين القمح ثم توضع فى التنور حتى تنضج ويختلط دسمها بالعجين فيصير طعاما جيدا.

غير أن امرأة معاذ قالت لـه وقد أوشك المال على النفاذ: نحن والله مساكين فأعطانـا.. وكـان قد بقى ديناران من الدنانير الأربعمائة فأعطاها لها.

وهذا ذو النورين [١]عثمان بن عفان رضى الله عنه أتته تجارته وكان المسلمون فى ضيق. وجاء التجار ليشتروا البضائع التى جاءت بها قافلة عثمان وقالوا لـه: نربحك الدرهم درهمين. فقال: عندي من أعطاني أكثر من هذا. فقالوا: نربحك الدرهم ثلاثة. فقال لهم نفس العبارة: عندي من أعطاني أكثر من هذا. فصاروا يزيدون لـه فى الربح وهو يرفض فقالوا لـه: من أعطاك أكثر مما نعطيك وليس فى المدينة تجار غيرنا؟! فقال لهم: أعطاني ربى بكل درهم عشرا فالحسنة بعشر أمثالها أشهدكم أن كل ما ترون من العير والتجارة صدقة على فقراء المسلمين.

أليس هذا الخلق الندى (خلق الإيثار) هو روح الإسلام وهتافه الحاني الذي يملأ قلوب أتباعه على لسان نبيه رسول الله ﷺ حيث يقول: «**إن الله اختار لكم الإسلام دينا فزينوه بحسن الخلق والسخاء. فإنه لا يكمل إلا بهما**» [٢]. وقال رسول الله ﷺ: «**السخي قريب من الله. قريب من الجنة. قريب من الناس. بعيد عن النار... والبخيل بعيد عن النار. بعيد عن الجنة. بعيد عن الناس. قريب من النار... ولجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل**» [٣].

انظر إلى من حولك من جيران وزملاء وغيرهم ترى شبح الأثرة[٤] وحب النفس مسيطرا على الجميع - إلا من عصم الله تعالى - وتجد التزاحم على السلع التي يشاع أن ثمنها سوف يرتفع. وقد تجد فى هؤلاء المتزاحمين من ليس فى حاجة إليها أو عنده ما يكفيه إلى أن تتوفر السلعة بعد ذلك. وترى الأنانية تزكم الأنوف برائحتها التى تنبعث من قلب غارق فى مستنقع كدر وقذر... إن الأثرة تولد الطمع والجشع والخيانة وحب المصلحة. وتدل على إقفار القلب من الإيمان والسماحة - وإذا ما انتشر ذلك فى قوم إلا تفرقوا وهزموا وذلوا. ونستلهم التاريخ ليقدم لنا نموذجا يؤيد ما نقول... فقد هزم أصحاب طليحة الأسدى - الذى ادعى النبوة - أمام عدد أقل من المسلمين. فتعجب طليحة وسأل أصحابه. فقالوا لـه: إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن

---

(١) لقب عثمان بنعفان بذى النورين لأنه تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ.. السيدة رقية. والسيدة / أم كلثوم وقال رسول الله بعد وفاتهما: (لو كان عندنا ثالثة لزوجتكها) رضى الله عنه وأرضاه.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الترمذى.

(٤) الأثرة عكس الإيثار وهى حب النفس وتفضيلها على الغير.

يموت صاحبه قبله. وإنا لنلقى أقواما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه - فكان ذلك شهادة للمسلمين وما يشيع بينهم من الحب والإيثار. وشهادة على أعدائهم وما يشيع بينهم من الأثرة وحب النفس[١].

وإن تعجب فأعجب أن يبلغ الإيثار حدا يفوق الخيال. فهذا إنسان لا يؤثر إنسانا على نفسه. ولكنه يؤثر حيوانا باعتباره روحا خلقها الله تعالى ويعطيه طعامه ويصير هو ويبيت على الجوع... هذا عبد الله بن جعفر بن أبى طالب - وكان لكرمه يلقب بأكرم الناس - خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه. إذ أتى الغلام بقوته فدخل الحائط - البستان الذى فيه الغلام - كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام برغيف فأكله. ثم رمى إليه الرغيف الثانى والثالث فأكلهما فقد كان الكلب جائعا. وعبدالله بن جعفر ينظر فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ فقال: ما رأيت ثلاثة أرغفة: رغيف للفطور وآخر للغداء وثالث للعشاء. فقال فَلِمَ آثرت هذا الكلب بقوت يومك؟ فقال: هذه أرض ليس فيها كلاب. فلما رأيت هذا الكلب علمت أنه أتى من مسافة بعيدة جدا. فكرهت أن أشبع وأترك هذا الكلب جائعا. فقال: فما أنت بصانع اليوم وقد بقيت بلا قوت؟ فقال: أطوى يومى هذا وأصبر على الجوع. فقال عبدالله: يلومني الناس على السخاء! إن هذا الغلام لأسخى منى. ثم اشترى الغلام والحائط وأعتقه وملكه الحائط.

إن الحديث عن الإيثار يحلو ويحلو ويطول ويطول إلى أن يصل إلى ضرب من الإعجاز. لأن الإسلام حلق به إلى القمم العالية وجعله يمتزج بالشعور. بحيث أنه حينما يصدر عن صاحبه يصدر عن طبيعة جياشة وقلب عامر بالثقة فيما عند الله وأن الصدقة لا تنقص المال[٢]. فالإيثار ليس نوعاً من البله كما يدعى بعض الماديين الذين أقفرت قلوبهم من القيم النبيلة ومنها الإيثار. لقد بلغ الإيثار عند المسلمين الأولين الذين تربوا فى مدرسة الرسول ﷺ قمة شاهقة تتطاول الأبصار وتشرئب الأعناق إلى أعلاها. ولكن أنى لها ذلك؟... فى معركة اليرموك[٣]

---

(١) وفى هذا الموقف يصدق قول القائل: (والفضل ما شهدت به الأعداء).

(٢) جاء هذا المعنى فى حديث شريف رواه الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله قال: ((ما نقصت صدقة من مال. وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)).

(٣) حدثت معركة اليرموك سنة خمس عشرة من الهجرة. وكانت فى شهر رجب. وكانت بين المسلمين. - وعددهم أربعة وعشرين ألفا وقادهم أبو عبيدة - وبين الروم - وكان عددهم عشرين ومائة ألف - وقتل من المسلمين ثلاثة آلاف حتى جاء نصرالله. وورد أن هرقل قال لجنوده: لم انهزمتم؟ قالوا لأننا نشرب الخمر ونزنى ونركب الحرام وننقض العهد... ويقوم المسلمون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد

سقط بعض المقاتلين جرحى. وكانت جراحهم نافذة وبلغ بهم نزيف الدم مبلغا كبيرا. ونال منهم الإعياء والتعب واحتاجوا إلى بعض قطرات يرطبون بها حلوقهم - وكان من بين هؤلاء عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه - وتقدم إليه قريب لـه بكوب من ماء يطفئ ظمأه ويروى به غلته. فهل أخذه منه وشربه - وهو فى الحقيقة فى حاجة شديدة إليه؟ لا ولكنه قال لـه: اسق أخى هذا الجريح الذى بجواري فلعله يكون أشد احتياجا منى إلى الماء فذهب إلى الثانى فقال مثل ما قال عكرمة: اسق أخى هذا الجريح. وصار الكوب ينتقل من جريح إلى جريح حتى فاضت نفوسهم إلى بارئها... هذه قصة تروى للدنيا كيف خلق الإسلام من العرب أمة كتبت فى تاريخ الأخلاق أنصع الصفحات وأضوأ السطور كيف لا وقد تعلموا ذلك نظريا من القرآن، وعمليا من سيرة رسول الله ﷺ وقد كانوا قبل أن يشرفوا بالإسلام يعيشون على السلب والنهب والاقتتال فى سبيل الشيء التافه! ألم تستمر حرب البسوس أربعين سنة بسبب قبضة من حشائش الأرض أخذتها ناقة من أرض ليست ملكا لصاحبها وعد صاحب المرعى أن هذا اعتداء على كرامته ورمى الناقة فى ضرعها. وغضب صاحب الناقة وقتل قاتل الناقة. وهكذا عاشت هذه الحرب الذي شاب فيها الصغير وفني فيها الكبير بسبب قبضة من حشيش الأرض!!

هذا هو الإسلام وهذا هو أثره فى صنع الحياة الأفضل. الإسلام الذي يريد لـه العلمانيون(١) أن يظل حبيسا تحت قباب المساجد وداخل تجاويف المحاريب دون أن يكون لـه أثر فى الرقى بالحياة والإحياء. ودارت الأيام دورتها وتغيرت الأحوال وحاد الخلف عن طريق السلف "طريق الإيثار " الى طرق أخرى متشعبة من الأنانية والجشع وحب الذات فاقتتلوا وتصارعوا. ونهب المال العام والخاص واخذ بغير حقه. وكل ذلك لأننا جعلنا أخلاق الإسلام وراء ظهورنا. وصار الهدف هو الثراء مشروعا كان أو غير مشروع وصرنا نسمع من يقول: " هبر هذه الهبرة أو خطف هذه الخطفة "! وما درى هذا الإنسان أنه مسؤول عن الفتيل والقطمير. والذرة وما دونها قال تعالى:**{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ}**(٢). كان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه فخط خطا مستقيما وحول هذا الخط خط خطوطا أخرى متعرجة ثم قال: **«هذا – وأشار إلى الخط المستقيم – صراط الله مستقيما»** ثم قال: وهذه

ويتناصحون بينهم. وقيل إن أول من قتل من المسلمين فى هذه الواقعة رجل جاء إلى أبى عبيدة وقال لـه: لقد تهيأت لأمرى فهل لك إلى رسول الله من حاجة؟ قال أبو عبيدة: تقرئه منى السلام وتقول لـه إنا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا - بتصريف من كتاب البداية والنهاية.

(١) العلمانية مصطلح فكرى حديث معناه فصل الدين عن الحياة وقصره فقط فى دور العبادة.

(٢) سورة الزلزلة. الآيتان رقم (٧، ٨).

الخطوط ليس منها خط إلا وعليه شيطان يدعوا إليه. ثم قرأ قوله تعالى:**{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** [١].

يحكى أنه كان فى بنى إسرائيل قحط شديد. وجلست امرأة تأكل لقمة كانت عندها فجاءها سائل وقال لها: لقمة لله. فأخرجتها من فمها وأعطتها لـه وخرجت لتحتطب. وكان لها ابن صغير فوضعته إلى جوارها وجعلت تجمع الحطب. فجاء ذئب وحمل الصبي فصاح وسمعت الأم صيحة ابنها فجرت وراء الذئب. فبعث الله جبريل فأنقذ الطفل من فم الذئب ودفعه إلى أمه وقال لها: يا أمة الله لقمة بلقمة... أرضيت؟

---

(١) سورة الأنعام. الآية رقم (١٥٣).

أعظم ألوان الإيثار

ومن أعظم ألوان الإيثار تقديم النفس وبذل الدم والتضحية بالروح فى سبيل العقيدة. فما أرخص الحياة الدنيا إذا قيست بالحياة الآخرة! ولقد قيل بحق: لو أن الدنيا جوهرة تفنى والآخرة خزفه تبقى لكان على العاقل أن يقدم مايبقى على ما يفنى. فكيف والأمر بالعكس فالدنيا خزفة فانية والآخرة جوهرة باقية... فالتضحية بالنفس فى سبيل الدين وفى وقاية الرسول ﷺ أسمى أنواع الإيثار.

يجـــود بـــالنفس إن ضـــن البخيـــل ::: والجـود بـالنفس أسـمى أنـواع الإيثـار

وهل بلغك نبأ أبى طلحة الأنصاري؟ وكيف كان يقف أمام رسول الله ﷺ ليكون بمثابة درع بشرى يؤثر رسول الله على نفسه. ويقول له: يا رسول الله لا تشرف حتى لا يصيبك سهم. ثغري دون ثغرك فداء. وصدري دون صدرك وقاء[١]... ثم هو الذي أخذ ضيف رسول الله ﷺ حينما لم يجد رسول الله ما يقرى به هذا الضيف. فقال لأصحابه: من يضيف هذا الليلة؟ فقام أبو طلحة وقال: أنا يارسول الله. وذهب به إلى بيته وسأل امرأته أن تقدم ما عندها لضيف رسول الله ﷺ. فأخبرته أنه ليس عندها إلا طعام العيال. فاتفقا علي أن تعلل الأم أطفالها حتي يناموا ثم تقدم الطعام للضيف ويجلسان معه. وتظهر كأنها تقوم لتصلح المصباح ولكنها تطفئه. ثم يضعان أيديهما مع يد الضيف ولكنهما لا يأكلان حتى يأكل الضيف ويشبع. ونفذت ذلك فعلا وأكل ضيف رسول الله صلي الله عليه وسلم وبات الأب والأم والعيال بدون طعام. وفي الصباح قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لأبي طلحة: لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما... وعجب الله تبارك وتعالي هو قبول هذا العمل وحسن المثوبة عليه... فهل فينا من يبلغ به الإيثار إلي هذا الحد ونحن نردد المثل الذي يقول: "إذا احتاج البيت الزيت فلا نعطه للمسجد". والمثل الذي يقول: " أنا وليكن بعدي الطوفان ".

إن تاريخ المسلمين زاخر بالأمثلة الرائعة لهذا الخلق النبيل "خلق الإيثار"... ولنعد إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد كان بودها أن تدفن في حجرتها إلى جوار أبيها الصديق. وزوجها سيد الخلق رسول الله صلي الله عليه وسلم ولم تكن حجرتها تتسع إلا لثلاثة قبور غير أنها آثرت الفاروق عمر بن الخطاب حين لقي الشهادة وهو واقف في المحراب بين يدي ربه

---

(١) حدث هذا فى معركة أحد. وقد جرح فى هذا اليوم رضى الله عنه جروحا كثيرة وشلت إصبعه. وقال عنه رسول الله: (من أراد أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبدالله). وقال عنه أبوبكر الصديق: (يوم أحد كان كله لطلحة).

يؤم المسلمين في صلاة الفجر. وطعنه أبو لؤلؤة المجوسي قاتله الله ولعنه. وأرسل الفاروق ابنه إلى عائشة يستأذنها أن يدفن إلي جوار صاحبيه وأوصي ابنه أن يقولها: يقول لك عمر - وحذره أن يقول لها يقول لك: أمير المؤمنين... إنه يقدم نفسه كفرد من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وليس كأمير المؤمنين - وهنا قالت أم المؤمنين: كنت أريد هذا المكان لنفسي فلأوثرنه به. لقد بلغ الإيثار مبلغا عظيما في شخص رسول الله صلي الله عليه وسلم حتي فضله الله به علي سائر الخلق...

ذكر الإمام الغزالي: أن موسي عليه السلام قال لربه عز وجل: "يا رب أرني بعض درجات محمد صلي لله عليه وسلم وأمته. فقال: يا موسي إنك لن تطيق ذلك. ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة فضلته بها عليك وعلي جميع خلقي. فكشف لـه عن ملكوت السموات فنظر إلي منزلة كادت تتلف من أنوارها نفسه ولقربها من الله تعالي. فقال: يا رب بماذا بلغت به إلي هذه الكرامة. قال: بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار يا موسي لايأتيني أحد منهم قد عمل به وقتا من عمره إلا استحييت من محاسبته وبوأته من " جنتي حيث يشاء[١].

ونسأل هنا عدة أسئلة ثم نجيب عنها..

س١ : هل يجوز للمرء أن يؤثر غيره على نفسه وأولاده بكل ما يملك؟

والجواب: إن ذلك جائز ومأجور صاحبه كما فعل أبو طلحة مع ضيف رسول الله ﷺ ولكن بشرط أن يكون حسن الثقة بالله تعالى فلا يندم بعده حتى لا يحبط عمله وبحيث لا يسأل الناس. فقد قال رسول الله ﷺ لرجل جاء بكل ماله إلى رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال لـه: **«يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس»** - يسألهم[٢] ولعل رسول الله ﷺ كان يعلم حاله... أما دليل الجواز فلقد تصدق أبو بكر بكل ماله فى غزوة العسرة. ولما سأله رسول الله: " ماذا تركت لأولادك؟ فقال: تركت لهم الله ورسوله" [٣].

س٢ هل هناك إيثار مذموم؟

---

(١) نقلا عن أخلاق القرآن للشرباصى. الجزء رقم (١) الصفحة رقم (٥٧).

(٢) الحديث رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم. واشترط العلماء كذلك لجواز التصدق بجميع المال أن يكون المتصدق قويا مكتسبا غير مدين. وبعضهم اشترط ألا يكون عنده من يعولهم... قال رسول الله: (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت أو يعول.

(٣) الحديث رواه أبو داود والترمذى وصححه.

الجواب: إذا آثر الإنسان المعصية على الطاعة. وآثر الدنيا على الآخرة.. والدليل على ذلك قوله تعالى:**{بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**(١) وقال تعالى:**{فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى}**(٢)... هذا هو الإيثار المذموم بنص القرآن الكريم. وفى تسميته إيثارا فى نوع من السخرية والذم لأنه يؤثر المذموم علي الممدوح. والإيثار الحق هو ما كان عكس ماذكر. وهناك إيثار مكروه فقط وليس مذموم. ونستدل عليه بقول أحد الصالحين إن استطعت ألا يسبقك أحد إلى مولاك فافعل. ولا تؤثر على مولاك شيئا: ونمثل ذلك بالجلوس فى الصف الأول. فإذا كنت جالسا فى الصف الأول لانتظار الصلاة فلا تؤثر بمكانك أحدا فإن الملائكة تصلى على الصف الأول ثم الذى يليه. والمكان لمن سبق إلا إذا آثرت إنسانا عالما ليكون وراء الإمام مثلا. وأنت لست من أهل الإمامة... وحين التزاحم على الحجر الأسود وقدمت شيخا كبير لا يستطيع أن يصل إليه فآثرته على نفسك باعتبارك قويا تستطيع أن تقبل فيها لشوط الثانى أو الثالث فيكون لك ثواب المؤثرين... ومثل ذلك الشرب من ماء زمزم والصلاة خلف مقام إبراهيم وهكذا. فتلك مواقف يحمد فيها الإيثار لمن لم يستطع ذلك. والله تبارك وتعالى أعلم بالسرائر.

* * * * *

---

(١) سورة الأعلى. الآيتان رقم (١٦، ١٧).
(٢) سورة النازعات. الآيات أرقام (٣٧، ٣٨، ٣٩)

من أخــلاق المؤمنين:

الاستقامــة

قــال أحــد الصــالحين: رأيــت رســول الله ﷺ فــى النــوم. فقلــت: يــا رســول الله: روى عنــك أنــك قلــت: شــيبتني هــود وأخواتهــا. فمــا الــذى شــيبك منهــا؟ قــال النبى ﷺ : قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).

الاستقامـة

الاستقامة فى معناها تعنى الاعتدال والبعد عن الاعوجاج والانحراف. فنقول مثلا: " فلان مستقيم" بمعنى أن أخلاقه لا تنحرف إلى هنا أو هناك. ويقول إمام الصلاة للمصلين خلفه: " استقيموا يرحمكم الله. إن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج ". وعلى ذلك فالإنسان المستقيم هو الذى يسير على هدى الكتاب والسنة ولا ينحرف عنها. ونحن نطلب من الله عز وجل فى اليوم الواحد الهداية إلى الصراط المستقيم سبع عشرة مرة كحد أدنى - ففى سورة الفاتحة:**{اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ}**.

ولقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تزغ زوغان الثعالب. وقال الإمام ابن تيمية: " الاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين. وهى القيام بين يدى الله على الصدق والوفاء ". ويقول تلميذه ابن القيم: " أعظم الكرامة لزوم الاستقامة ".

روى مسلم فى صحيحه عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال: (قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. فقال ﷺ قل آمنت بالله ثم استقم)... فأنت تجد أن رسول الله ﷺ أمره بالإيمان باعتباره الأساس الذى لايعمل عمل بدونه. ثم أمره بالاستقامة على مقتضى هذا الإيمان والتقيد بقيود أوامره ونواهيه.

فالمؤمن الحق هو الذى يعتقد اعتقادا راسخا يملأ عليه أقطار الأرض وأبعادها بوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته ووحدانيته. وأنه المسيطر المهيمن على هذا الكون كله ناطقه وصامته. ساكنه ومتحركه**{وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}**(١)... وهو لهذا يراقب الله عز وجل ويلتزم بالمنهج الذى شرعه الله لعباده. فلا يميل مع الهوى. ولا ينحرف عن الصراط المستقيم.

وجاءت مادة الاستقامة فى كثير من الآيات القرآنية... ومن ذلك قوله تعالى:**{وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** (٢) - أى إلى الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ ويقول عز من قائل:**{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** (٣)

---

(١) سورة الأنعام. الآية رقم (٥٩).
(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٢١٣).
(٣) سورة آل عمران الآية (١٠١).

- فإذا اعتصم الإنسان وتمسك بأمر الله سبحانه وتعالى فقد هداه إلى الصراط المستقيم. ولأهمية الاستقامة على الصراط المستقيم قال الشيطان:**{لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ}**. [١].. إن الشيطان يقعد لابن آدم على طريق الجهاد فيقول له موسوسا: لمن تترك امرأتك وأولادك الصغار وأمك العجوز ووالدك الشيخ المسن - ولا عائل لهم إلا أنت؟ فمن جبن ورجع فقد وقع فى حبائل الشيطان. ومن استعاذ بالله من وسوسته ومكره فقد أفلح. وحتى لو استشهد فإن الله عز وجل يخلفه فيهم بخير ما يخلف فى عباده الصالحين. وقال تعالى:**{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ المَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ}** [٢].

وهذه الآيات الكريمات تتحدث عن حالة الاحتضار... فالمؤمنون المستقيمون على شرع الله وعلى سنة رسول الله ﷺ فى هذا الوقت العصيب - تتنزل عليهم الملائكة فتطمئنهم على ما تركوا من خلفهم من ذرية فلا يحزنون. كما تطمئنهم على ما يقدمون عليه من حساب وعقاب فلا يخافون. ويزفون لهم البشرى فى الحياة الدنيا على ألسنة الملائكة قبل أن يخرجوا من الدنيا. ثم البشرى التى لا بشرى تعدلها وهى دخول الجنة التى أعدها الله لهم وزرع أشجارها وأجرى أنهارها بيده عز وجل. وأن لهم فيها ما تشتهى أنفسهم وما يطلبون وما يريدون.

وجاء الأمر بالاستقامة إلى جوار ذلك من الله عز و جل لرسوله ﷺ قال تعالى:**{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ}**[٣]... ويطول بنا الحديث لو استعرضنا آيات القرآن الكريم التى تدعوا إلى الاستقامة.

---

(١) سورة الأعراف. الآية (١٦).

(٢) سورة فصلت الآيات رقم (٣٠، ٣١، ٣٢).

(٣) سورة فصلت الآية رقم (٦) - ورد أن أحد الصالحين رأى رسول الله فى المنام فقال له: يارسول الله روى عنك أنك قلت: (شيبتنى هود) فما الذى شيبك منها؟ فقال رسول الله: قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت).. سورة هود. الآية رقم (١١٢)... ذكره القشيرى فى رسالته الصفحة رقم ٢٩٩.

أنواع الاستقامة

ومن الممكن أن نقسم الاستقامة إلى ثلاث أنواع هى:

١ - الاستقامة فى العقيدة. ٢ - الاستقامة فى الخلق. ٣ - الاستقامة فى العمل.

أولا: الاستقامة فى العقيدة:

تعنى العقيدة الوسطى بين طرفين مذمومين هما: إنكار الألوهية بالمرة وبين تعددها. فالاستقامة فى العقيدة تعنى الإيمان بوحدانية الله تعالى... فأما الملحدون فهم قوم انطمست بصائرهم فلم تهتد إلى آيات الله الكونية المبثوثة فى ثنايا هذا الكون الفسيح. وعميت أبصارهم عن ملاحظة مظاهر قدرته عز وجل فى خلقه. وإنما شأنهم شأن أسلافهم الذين كانوا يقولون:**{إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}**[١] وكانوا يقولون: إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر وعلى طريق هؤلاء الملحدين من أهل الجاهلية سار الملحدون من أبناء هذا العصر الذين يقولون: إن هذا العالم نشأ بالصدفة ونقول: كذبتم. قد تصدق مرة واثنتين وثلاثا. أما أن تسير الحياة على نسق لا يتخلف ولا يتبدل ولا يتغير فذلك دليل قدرة الله عز وجل.

وفى كل شيء له آية ::: تدل على أنه الواحد

وحينما تبجح النمرود أن أعطاه الله الملك. وحاج إبراهيم عليه السلام قال له إبراهيم:**{فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ}**[٢]. فبهت الذى كفر وظهرت سخافة كفره وتفكيره. فالشمس التى تشرق بميعاد لا يتخلف لا ثانية ولا أقل من ذلك. والأرض فى حركتها الدائرية. وتغاير الفصول - إلى غير ذلك - لا يمكن أن يتم بطريق الصدفة. ولكنه يتم بقانون ربانى. و بقدرة دونها جميع الخلق من إنس وجن: فالإلحاد إذن أمر مرفوض لأنه بعيد عن الإستقامة.

وتعدد الآلهة طرف مذموم أيضا وباطل. والقرآن الكريم قال:**{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** [٣]. لأن الشركاء لابد أن تقع بينهم العداوة والبغضاء فيختل نظام الكون وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة:**{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ**

---

(١) سورة المؤمنون الآية رقم ٣٧.
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٥٨.
(٣) سورة الأنبياء آية رقم ٢٢.

وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ} [١] والاستقامة فى العقيدة تجعل المسلم يعيش حياته كلها لله. لأنه عز وجل واهبها -**{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ}** [٢] - والاستقامة فى العقيدة لها تبعات ومسئوليات وليست مجرد دعوى يدعيها الإنسان ويلوكها بلسانه. وإنما هى أعمال يقوم بها المؤمن ويترفع عن مغريات الحياة وشهواتها الزائلة - قال تعالى:**{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}** [٣].

ثانيا: الاستقامة فى الخلق:

تعنى الخلق الحسن بين طرفين مذمومين. ونضرب لذلك مثلا يوضح هذا المعنى فنقول: إذا تعرض شخص إنسان بإساءة ما فإن أمامه ثلاثة احتمالات: إما أن يجبن الإنسان ولا يدافع عن نفسه. وحينئذ يزداد المسيء إساءة ويزداد الجبان ذلة على ذله وهذا أمر مذموم.

أن يغالى فى رد الإساءة فيرد الصاع صاعين وهذا طغيان نهى الله عنه... وهو أيضا أمر مذموم.، الاستقامة وتتمثل فى قولــه تعالى:**{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** [٤]. ويقول تعالى:**{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}** [٥] وهذا هو الوسط المحمود.

ويفتح القرآن الكريم أمام الذى يريد أن يأخذ حقه باب العفو والصفح. وكان رسول الله ﷺ قد عزم على أن يثأر لعمه حمزة حينما قتله وحشي بتحريض من هند امرأة أبى سفيان - التى حاولت أكل كبده - فلما نزلت هذه الآية قال ﷺ: **«صبرا يا رب»**. وترك القاتل فأسلم وحسن إسلامه وقتل مسيلمة الكذاب فكان يقول: (قتلت فى جاهليتي خير الناس حمزة عم رسول الله ﷺ. وقتلت فى إسلامي شر الناس مسيلمة الكذاب).

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٩١.
(٢) سورة الأنعام آيتان رقم (١٦٢، ١٦٣).
(٣) سورة آل عمران آيتان رقم (١٤، ١٥).
(٤) سورة الشورى آية رقم(٤٠).
(٥) سورة النحل آية رقم ١٢٦.

مثال آخر يبين معنى الاستقامة فى الخلق فنقول: أمامك فى إنفاق المال ثلاثة طرق: طريق محمود وطريقان مذمومان. فالطريقان المذمومان يتمثلان فى: البخل والتقتير أو الإسراف والتبذير. والوسط هو الطريق المحمود - قال تعالى:**{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}**(١). وقال تعالى فى وصف عباد الرحمن:**{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً}** (٢).

ثالثا: الاستقامة فى العمل:

هى أيضا طريق وسط بين طريقين مذمومين هما: الإفراط والتفريط. فهؤلاء الذين يغالون ولو فى الأعمال الصالحة ليسوا على طريق الاستقامة ومثلهم أيضا المقصرون فى عبادة ربهم - وإن كان الأولون أفضل من المقصرين.

وفى الحديث الشريف: «**جاء ثلاثة إلى بيوت النبى ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها – أى عدوها قليلة – فقالوا: وأين نحن من رسول الله ﷺ ولم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال أحدهم: أما أنا فأصلى الليل ولا أرقد. وقال الثانى: وأما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: وأما أنا فلا أتزوج النساء.. ولما علم رسول الله ﷺ قام خطيبا فقال ما معناه: ما بال أقوام قالوا كذا وكذا. أما والله إنى لأتقاكم لله وأخشاكم له. ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء. هذه سنتى فمن رغب عن سنتى فليس منى**»(٣) .

وقال فى حديث آخر: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق. إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى**»... (٤) ذلك لأن الإنسان قد يطيق العبادة شابا قويا يعجز عنها شيخا مسنا: «**وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**» (٥): «**وإن لبدنك عليك حقا ولربك عليك حقا ولأهلك عليك حقا. فأعطى كل ذى حق حقه**»(٦).

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٢٩.

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٦٧.

(٣) حديث صحيح.

(٤) معنى الحديث أن الذى يركب دابة ويكثر من ضربها حتى توصله إلى مراده فى وقت قصيرستموت دابته من كثرة ضربه لها ولن يصل هو إلى بغيته والنبى هذا يضرب مثالا للمتشددين ويطالبهم بالوسط والاعتدال.

(٥) الحديث رواه البخارى ومسلم.

(٦) جاءت هذه المعانى فى ضمن جملة أحاديث عن رسول الله.

لا أريد أن أثبط همم العابدين. وإنما أريد لهم التوسط فى العبادة. وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام من الالتزام بمنهج القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم. ومن المداومة على الأعمال الصالحة والتزام الصراط المستقيم. وإذا فعل المسلمون ذلك واستقاموا على الجدة لفتح لهم ربهم أبواب الرزق ليعيشوا فى الدنيا عيش السعداء. ويعيشوا فى الآخرة عيش الأتقياء المنعمين برضوان الله تعالى ورحمته. - قال عز من قائل:**{وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً}** (١).

أسأل الله أن يرزقنا ويرزق جميع المسلمين بالاستقامة على الصراط القويم: آمين.

* * * * *

---

(١) سورة الجن آية رقم ١٦.

من أخلاق المؤمنين:
حفظ الأسرار

أسر رجل إلى صديقه حديثا ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

حفظ الأسرار

المحافظة على الأسرار خلق كريم وصفة نبيلة ينبغى أن يتصف بها المسلم وأن يطويها بين جوانحه. فكم من سر إذا أفشى أوقع العداوة والبغضاء بين الناس. وهذا الخلق لا يقدر عليه إلا الأقوياء الأسوياء. و لا أعنى بالقوة هنا القوة العضلية الجسدية ولكن أعنى قوة الإرادة التى تتحمله ولا تبوح به. ذلك أن حمل الأثقال يقدر عليه أصحاب النفوس القوي والنفوس الضعيفة. أما حفظ الأسرار فإن أقوياء النفوس هم المؤهلون لحمله وحدهم.

إن الله حفظ أسرار السموات من أن يتسمعها الشياطين. قال تعالى عن الجن:**{فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً}** [١] وقال عز من قال**{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ}** وقال تعالى:**{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المَلأِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}** [٢].

ولقد أوصى يعقوب عليه السلام ابنه يوسف عليه السلام حين رأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدين له. قال له:**{يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}** [٣]. ولأن هذه الرؤيا طيبة فهم يعقوب منها أن الله اجتبى يوسف واصطفاه على إخوته. وفى إفشائها خطر عليه لأن إخوته وهم المرموز لهم فى الرؤيا بالكواكب الأحد عشر سوف يفهمون سرها وسوف يكيدون له بوسوسة الشيطان لهم.

وقد ذكر أهل الكتاب أن يوسف عليه السلام ذكر هذه الرؤيا أمام زوجة أبيه. فذكرتها بدورها إلى إخوته فكادوا له الكيد المعروف من التآمر على قتله أو إلقائه فى الجب وكل ذلك لإفشاء السر[٤]... ولكننا نستبعد ذلك ونقول: ما كان ليوسف عليه السلام أن يخالف نهى أبيه وتحذيره. ولاسيما وقد علل والده هذا النهى بأن الشيطان سوف يدفع إخوته إلى الكيد له. لكننا نطمئن إلى ما ذكره القرآن الكريم من أن سبب الكيد راجع إلى أنهم ذكروا أن أباهم يفضله عليهم. كما قال تعالى حاكيا عنهم:**{إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا**

---

(١) سورة الجن آية رقم ٩.

(٢) سورة الصافات آيات أرقام ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٣) سورة يوسف أية رقم ٥.

(٤) نقل ذلك ابن كثير نقلا عن أهل الكتاب.

لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [١]واقترحوا أن يقتلوه أو أن يلقوه بعيدا فى الصحراء. واستقر رأيهم أن يلقوه فى الجب - ولو أن هذه المؤامرة سببها إفشاء يوسف لسر الرؤيا لذكره القرآن الكريم وهو أحسن القصص.

وهناك مجالات كثيرة للأسرار وينبغى أن تكون منطقة محرمة لا يقترب منها إنسان ولا يتطفل عليها أحد. ومن أجل ذلك نهى القرآن الكريم عن التجسس والإطلاع على عورات الناس وأسرارهم. قال تعالى:**{وَلاَ تَجَسَّسُوا}** [٢]. ويحسن بنا أن نذكر نماذج من حفظ الأسرار لأناس اتصفوا بهذه الصفة الكريمة. ونماذج أخرى لأناس ضعفت عزائمهم وضاقت صدورهم عن حمل أمان الأسرار فباحوا بها.

من النماذج المشرف لحفظ الأسرار:

(١) حينما مات زوج حفصة بنت عمر رضى الله عنه وانقضت عدتها عرض عمر على أبى بكر الصديق أن يتزوجها. ولكن أبا بكر لم يرد على عمر لا بالقبول ولا بالرفض وظل صامتا. وانصرف عمر وذهب إلى عثمان بن عفان وعرض عليه ابنته فقد انتهت عدتها. وكان عثمان صريحا مع عمر فاعتذر لـه بأنه لا ينوى الزواج الآن. وما هى إلا أيام حتى خطب رسول الله ﷺ حفصة وتزوجها. وأحس أبو بكر أن عمر قد وجد فى نفسه شيئا فقال لعمر: لعلك قد وجدت على حينما لم أرد عليك بشأن حفصة. ذلك لأنى كنت سمعت رسول الله ﷺ يذكرها وما كنت لأفشى سر رسول الله. ولو تركها لتزوجتها. [٣]

وأحب أن أقف وقفة قصيرة مع هذا الموقف بشأن زواج حفصة. فعمر رضى الله عنه يعرض ابنته علي أبي بكر وعثمان وليس في ذلك أدني غضاضة ما دام الرجل الذي يعرض عليه رجلا صالحا فيه الكفاءة والإيمان. بعكس ما قد يفعله أبناء عصرنا من أنهم يرون ذلك نقيصة. وحاشى لأصحاب رسول الله ﷺ أن يفعلوا ما يعيبهم... ومن قبل عمر عرض الشيخ الكبير على موسى عليه السلام أن يزوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرا فمن عنده [٤]. ولو كان فى ذلك غضاضة ما فعله. ومن بعده عرض سعيد ابن المسيب

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٨.

(٢) سورة الحجرات آية رقم ١٢.

(٣) الحديث رواه البخارى عن عبدالله بن عمر.

(٤) ذكر القرآن هذا المعنى فى قولـه تعالى:**{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}** سورة القصص الآية رقم ٢٧.

ابنته على أحد تلاميذه بعد أن ماتت زوجته... وهكذا يجب أن نتعلم من هؤلاء الأعلام ضاربين بأعرافنا عرض الحائط لأنها لا تتفق مع الإسلام.

ثم انظر إلى موقف أبى بكر رضى الله عنه وكيف أنه حافظ على سر رسول الله ﷺ. لأننا لو فرضنا أن أبا بكر ذكر لعمر أن رسول الله يرغب فى حفصة ثم بدا لرسول الله أنه لا يتزوجها فكيف يكون وقع ذلك على عمر وعلى حفصة؟ وعثمان كان صريحا أيضا مع عمر وأنه ليس مستعدا للزواج... هؤلاء هم صحابة رسول الله الذين تربوا على يديه واتصفوا بكل صفات الكمال البشرى الذى تعلموه منه ﷺ.

(٢) نموذج ثان لحفظ السر لكنه لحدث صغير وليس لرجل كبير كأبى بكر. هذا الحدث هو أنس بن مالك رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ. وذلك أن أنسا كان يلعب مع أترابه من الصبيان ومر عليهم رسول الله ﷺ فسلم عليهم ثم أرسله رسول الله ليقضى له حاجة. فذهب أنس وقضاها لرسول الله ولكنه أبطأ على أمه. ولما سألته عن سبب تأخره أخبرها أن رسول الله ﷺ أرسله فى بعض حوائجه. فسألته عن ذلك فقال: ما كنت لأفشى سر رسول الله. فسعدت بابنها وقالت له: لا تفشى سر رسول الله ﷺ [١].

انظر إلى أنس الصبى وكيف حافظ على سر رسول الله حتى عن أمه. وكيف أمرته أمه أن يظل محافظا عليه... ما أحوج أبناؤنا أن يتعلموا منه وأن يتعودوا على حمل أمانة السر[٢].

(٣) كذلك وصى العباس ابنه عبدالله بعده وصايا منها حفظ السر. ذلك أن العباس رأى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقدم عبدالله ويجلسه مع كبار الصحابة الذين لا يعدوا عبدالله أن يكون صغيراً فى سن حفادتهم. وذلك لأن عمر رأى فيه علما وفقها - وأن الأمر ليس بالسن ولكن بالعلم - وذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم دعا له وقال: **«اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»**. واستجاب الله دعوة نبيه صلي الله عليه وسلم لابن عمه فصار يعرف بترجمان القرآن وبالحبر وبالبحر وذلك لغزارة علمه. قال العباس لابنه: يا بني إني أري هذا الرجل - يقصد عمر بن الخطاب - يقدمك علي الأشياخ فاحفظ علي خمسا:

١- لا تفشين له سرا.   ٢- ولا تغتابن عنده أحدا.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه والبخارى أيضا.

(٢) جاء حديث عن رسول الله يؤكد هذا المعنى وهو قوله. (إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك) وقوله أيضا: (إذا حدث الرجل رجلا بحديث ثم التفت هكذا - يريد ألا يراه أحد - فهى أمانة.

٣- ولا يجربن عليك كذبا.   ٤- ولا تعصين لـه أمرا.

٥- ولا يطلعن منك على خيانة.

ما أجمل هذه الوصايا الخمس وما أحرانا أن نعلمها أبناءنا.

(٤) ولا ننسى فاطمة الزهراء حينما أسر إليها رسول الله صلي الله عليه وسلم أنـه سيقبض فـي مرضـه هذا فبكـت. وأسـر إليهـا أنهـا مـن سـيدات أهـل الجنـة فابتسـمت. وسـألتها عائشـة أم المؤمنين عن ذلك فاعتذرت بأنها لا تفشي سر رسول الله صلي الله عليه وسلم. ولم تبح بـذلك إلا بعد وفاته[١].

---

(١) تبين بعد ذلك أن سبب بكاؤها إخبار النبى لها أنه سوف يموت وسبب ضحكها أنها أول من تلحق بـه مـن أهل بيته فى الجن - وقد كان ذلك بالفعل... وقد ورد عن على بن أبى طالب قولـه بعد أن علـم مـا حـدث بين النبى وابنته فاطمة: (إن النبى ابكى ابنته وأضحكها حتى لايفعل مااختصه الله لنفسـه) - يقصـد قولـه تعالى: وأنه هو أضحك وأبكى سورة النجم الآية رقم (٤٣)... والحـديث رواه الإمـام مسـلم فـى صـحيحه عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

بعض نماذج لأناس أفشوا بعض الأسرار

(١) هذا أبو لبابة رضي الله عنه أرسله النبي صلي الله عليه وسلم إلي بني قريظة اليهود. [١] في أثناء حصار رسول الله لهم. فلما وصل عندهم - وكان حليفا لهم - في الجاهلية قابلوه بالبكاء والنحيب. وسألوه: ماذا يريد رسول الله منهم؟ فأمر يده علي حلقه - يعني أنه سوف يدبحهم جزاء وفاقا لغدرهم وتآمرهم مع الأحزاب ضد رسول الله - ولكن أبا لبابة سرعان ما فطن إلي أنه أفشي سر رسول الله. وذهب من فوره إلي مسجد رسول الله. ﷺ وربط نفسه إلي سارية من سواريه وحلف ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ. ومكث علي ذلك تسعة أيام حتي كان يغشي عليه من الجهد حتي أنزل الله توبته. وجاء من يبشره بذلك وأراد أن يحل وثاقه ولكنه طلب ألا يحله أحد إلا رسول الله ﷺ؛ فحله رسول الله من الوثاق بيده الشريفة. فقال: يا رسول الله إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي إذا تاب الله علي. فقال لـه صلي الله عليه وسلم: **«يجزيك الثلث أن تتصدق به»**... وفي ذلك نزل قول الله تعالي:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** [٢]. ومن الأمانات المذكورة في الآية حفظ السر كما قال رسول الله ﷺ: **«المجالس أمانة»**. وفهمت توبة الله على أبي لبابة أن الآية الكريمة صدرت بنداء المؤمنين فلم تنف عنه الإيمان.

(٢) نموذج آخر لحاطب بن أبي بلتعة: الرجل الذي شهد بدراً - فهو من السابقين إلي الإسلام - ولكنه في لحظة ضعف أفشي سر رسول الله ﷺ في فتح مكة... ذلك أن قريشا نقضت صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ فأراد أن يبغتها فدعا وقال: **«اللهم خذ العيون والأبصار من قريش»**. وبدأ رسول الله بحشد كل الطاقات لهذه المعركة الفاصلة لفتح مكة معقل الشرك و الوثنية. وبلد العتاة المستبدين الظالمين الذين أخرجوه هو وأصحابه ظلما وعدوانا إلا أن يقولوا: " ربنا الله ". وأمر رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين أن تجهز لـه متاعه الذي لا بد للمحارب من تجهيزه. ودخل أبو بكر على ابنته وهي تعد لرسول الله متاعه فسألها: أيريد رسول الله سفرا؟ قالت: نعم. فسألها: أين يريد؟ فقالت: لا أدري. ثم أعلم رسول الله ﷺ أصحابه بالاستعداد للذهاب إلى مكة. ولكن حاطبا كتب رسالة إلي قريش يعلمها بنية رسول الله وأنه قادم لقتالهم. وأعطى هذا الكتاب إلى امرأة من موالي بني هاشم جاءت من مكة إلي المدينة تستعين برسول الله.

---

(١) بنو قريظة طائفة من اليهود كانوا يسكنون المدينة. وعقد النبى معهم صلحا لكنهم خانوه وتحالفو مع مشركى مكة فى غزوة الأحزاب. فحاصرهم النبى حتى أجلاهم عن المدينة.

(٢) سورة الأنفال الآية رقم (٢٧).

فأعطاها وأمر من معه من بني هاشم أن يعطوها فأعطوها. ولما همت بالعودة أعطاها حاطب هذا الكتاب لتوصله إلي أهل مكة وأعطاها عشرة دراهم. فجعلت الكتاب في ضفائرها وسارت عائدة إلى مكة. ولكن الله سبحانه وتعالى ما كان ليترك رسوله وقد أفشى حاطب سره فأخبره رسوله بشأن هذه المرأة والكتاب الذي أرسله معها حاطب. فأرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وأبا مرثد وقال لهم: **«انطلقوا حتي تأتوا روضة خاخ – اسم مكان فإن بها ظعينة معها كتاب لقريش فائتوا به»**. وانطلق الفرسان الثلاثة وأدركوها فعلا في نفس المكان الذي حدده رسول الله. وطلبوا منها إخراج الكتاب فأنكرت في أول الأمر. فأقسم علي أن معها الكتاب فما كان لرسول الله ﷺ أن يخبر بشيء غير صحيح - وهو الذي لا ينطق عن الهوي - وقال لها إما أن تخرجي الكتاب أو لنجردنك. ولما أيقنت أن الأمر جد لا هزل فيه قالت: غضوا أبصاركم. وأخرجت الكتاب من عقاص - ضفائر - شعرها. واستدعى رسول الله حاطباً وقال له: **«ما هذا يا حاطب؟»** فقال: يا رسول الله: لا تعجل علي. إني كنت امرؤا ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم. وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم بمكة. فأحببت إذ فاتني ذلك النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي. وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: **«صدق لا تقولوا له إلا خيرا»**. فقال عمر: يا رسول الله إنه خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني أضرب عنقه. فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: **«أليس من أهل بدر. ولعل الله قد اطلع علي أهل بدر فقال: اعلموا ما شئتم فقد غفرت لكم»**... ونزل قوله تعالي في أول سورة الممتحنة:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}**.. [1]. تري لو أن هذا الكتاب قد وصل إلى أهله. ألا يمكن أن يقوموا هم بحركة مباغتة لرسول الله ﷺ قبل أن يتم استعداده للحرب. ويكون ذلك بسبب إفشاء السر؟

(٣) نموذج ثالث لا ثنتين من أمهات المؤمنين أفشتا سر رسول الله صلي الله عليه وسلم فعاتبهما الله وهددهما بالطلاق وأن الله سوف يزوجه خيرا منهما - فهما الخاسرتان إذن - قال تعالي:**{وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ العَلِيمُ الخَبِيرُ * إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ***

(١) القصة ذكرها البخارى فى صحيحه وكتاب السير.

عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ} (١)... وقصة ذلك أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحب العسل. وكان عند أم المؤمنين زينب بنت جحش شيء من ذلك. فكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يذهب إلي بيتها ويشرب من العسل. فتواطأت أم المؤمنين عائشة وأم المؤمنين حفصة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا دخل عند واحدة منهما أن تقول له: أكلت مغافير(٢) - وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يحب إلا الرائحة الطيبة - فقال النبي: بل شربت عسلا. فقالت كل واحدة له: جرست نحلة العرفط (٣). فأسر رسول الله إليهما إلي أنه حرم العسل على نفسه(٤).

ولعل المراد بالتحريم هو عدم العودة إلي شرب العسل مرة أخري لا أنه جعله حرما أي لا يباح أكله. وإلا فإن الله قال عن العسل:**{يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ}** (٥). وفي ذلك أمور أحب أن أتوقف عندها قليلا لنستخلص العبرة والعظة. ومن ذلك

١ - دماثة خلق النبي ﷺ وحسن معاشرته لأزواجه رضوان الله عليهم. فقد امتنع عن شرب العسل وهو حلال له إرضاء لهن. قال تعالي في أول سورة التحريم:**{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}**. فلم يكن النبي جباراً عليهن وكيف وهو القائل: «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**». وفي ذلك تماسك للأسرة وحفظ كيانها.

٢ - مكانة رسول الله صلي الله عليه وسلم عند ربه... فقد أعلم الله نبيه محمدا صلي الله عليه وسلم بما كان من أمر عائشة وحفصة. وبين الله لهما أن عليهما أن يتوبا إلي الله لأن قلب كل منهما قد مال عن الحق**{فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}** وهذا يستدعي التوبة إرضاء لله وإرضاء لرسوله ﷺ.

٣ - بين القرآن الكريم أن تظاهر المرأتين لا يضر إلا بهما فإن الله بقوته مولاه. وكذلك جبريل عليه السلام. وكذلك صالح المؤمنين. فأين هم من هؤلاء.

٤ - تهديد القرآن الكريم لهما بالطلاق وأن الله سبحانه وتعالي سوف يبدله أزواجا خيراً

---

(١) سورة التحريم الآيات أرقام ٣، ٤، ٥.
(٢) شيء يشبه صمغ له طعم حلو غير أن له رائحة غير مستحبة.
(٣) أى النحل أكل من ظهر المغافير وهو العرفط فظهرت الرائحة فى العسل.
(٤) ذكره الطبرانى بسند ضعيف ولا شاهد له فى الصحيحين.
(٥) سورة النحل آية ٦٩.

منهن - وليس مثلهن - وقد وصف الله الزوجات في سورة التحريم بأنهن:**{مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً...}** وكل ذلك يدلك على مكانة رسول الله ﷺ عند ربه وعلي خطورة إفشاء السر.

من مجالات حفظ الأسرار ما يكون بين الرجل والمرأة في حجرة النوم. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينهما فقط. فبعض الشباب قد يتباهي برجولته أمام أصدقائه ويقول فعلت وفعلت. وبعض الشابات قد يتباهين بما فعله معهن الأزواج لتبين أنها محبوبة ومحظية عند زوجها. وما دري هؤلاء وأولئك أنهن وأنهم قد أفشوا سرا كان يجب أن يظل محفوظا. يقول النبي صلي الله عليه وسلم: **«إن شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلي امرأته وتفضي هي إليه. ثم ينشر سرها»** (١).

إن للبيوت حرمة ولها أسرار. فيجب أن تصان الحرمات وأن تحفظ الأسرار. ومن أجل ذلك نهي الإسلام عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان. قال تعالي:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}**... (٢) قد يدخل إنسان بيت صديقه ثم إذا خرج قال: رأيت كذا وكذا. وفي ذلك إفشاء للسر ينبغي أن يترفع عنه المسلم. ومن مجالات حفظ السر أن يحفظ الإنسان سره إذا أحب ألا يطلع عليه سواه. فإذا أفشى سره لأحد فذكر هذا ذلك السر لثالث فاللوم كله على صاحب السر لأنه إذا ضاق صدره عن أن يكتمه فصدر غيره أشد ضيقا. قال الشاعر:

إذا المرء أفشي سره بلسانه ::: ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدرالمرء عن سر نفسه ::: فصدر الذي يستودع السر أضيق (٣)

قد يقع إنسان في معصية ما وقد ستره ربه. فينبغي أن يكون ذلك سرا بينه وبين الغفور الرحيم - يتوب إليه من ذنبه ويتبرأ مما جنته يداه. ولكن البعض يظن أن الإتيان بالمعصية " شطارة وفهلوة " فيهتك ستر ربه عنه ويقول: فعلت كذا وكذا وضحكت علي فلان واستغفلت فلان وفي ذلك مجاهرة بالمعصية والرسول يقول: **«كل أمتي معافي إلا المجاهرين»**. وإذا أراد

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى.
(٢) سورة النور آية ٢٧.
(٣) وقال آخر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث ::: وأفشته الرجال فمن تلوم
وإن عاتبت من أفشى حديثي ::: وسرى عنده فأنا الملوم.

مع ذلك أن يقلده غيره وأن تشيع الفاحشة فقد وقع تحت طائلة قولـه تعالي:**{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}** [١]... وإن من المجانة أن يعمل العبد عملا بالليل ثم يصبح قد ستره الله فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه فيصبح ويكشف ستر الله عنه ".

فهذا الذى ارتكب الفاحشة وقد ستره ربه لم يقابل نعمة الله بالشكر. إذ كان من الجائز أن يكشف الله ستره عنه ويفضح أمره بين الناس ولو أرخى على نفسه ألف ستر وستر - ولكنه جحد هذه النعمة - من أجل ذلك كان أهلا لأن لا يغفر الله لـه... ليس معنى ذلك أننا ندعو إلى عمل المعصية وأن يكتم الإنسان سر هذه المعصية. ليس ذلك مقصودا ولكننا ندعو الإنسان إذا زلت قدمه وستره الله أن يتوب ولا يذكر هذا الذنب لأحد حتى لا يقلده فيكون قد حمل وزره ووزر من قلده.

روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: **«يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه – ستره – عليه. فيقول عملت كذا وكذا. فيقول: نعم. فيقرره ثم يقول: إنى سترت عليك فى الدنيا فأنا أغفر لك اليوم»**... على المسلم أن يستر نفسه وأن يتوب إلى ربه. وإذا حدثته نفسه بشىء ما فعليه ألا يفصح عن ذلك. قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: **«إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها ما لم تكلم أو تعمل»**.

من مجالات حفظ السر:

أن يطلع الإنسان على أخيه المسلم وهو على معصية، فعليه أن يرشده وينصحه وأن يستر عليه - فربما كان ذلك أفضل من فضيحته. جاء رجل اسمه هزال وذكر لرسول الله ﷺ أنه رأى ماعزا - اسم رجل - يفجر بإمرأة محرمة عليه. فقال لـه النبى ﷺ : **«يا هزال هلا سترته بثوبك لكان خيرا لك»** [٢] وقال ﷺ: **«يا معشر من آمن ولم يدخل الإيمان قلبه.. لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم. فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته»** [٣]... وورد أن النبى صلي الله عليه وسلم قال: **«من ستر على مسلم عورة فكأنما استحيا موؤدة»** [٤]... وقال صلي الله عليه وسلم: **«من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله**

---

(١) سورة النور.

(٢)الحديث رواه أبو داود والنسائى.

(٣)الحديث رواه بن حبان فى صحيحه ورواه أبو داود وأبويعلى بإسناد حسن.

(٤)الحيث رواه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد.

يوم القيامة». [١] إن من الحزم أن يحتفظ الإنسان بسر نفسه ولا يبوح بـه حتـى لأصـدقائه خشية أن تتغير القلوب. قال القائل:

إحـــــــذر عـــــــدوك مــــــرة ::: واحــــذر صــــديقك ألـــف مـــرة
فلربمـــــا انقلــــب الصــــديق ::: فكـــــان أعلـــــم بالمضـــــرة

قال الإمام على رضى الله عنه: "سرك أسيرك. فإذا تكلمت بـه صـرت أسيره " [٢]. وإعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودا من أمناء الأموال. فحفظ الأموال أيسر من حفظ الأسرار. لأن حفظ الأموال يكون بالأبواب والأقفال وحفظ الأسرار يذيعها لسان نـاطق ويشيعها كلام سابق. وكلما كثر حراس الأموال كان أدعى إلى حفظها. وكلما كثر حراس الأسرار كان أدعى إلى إفشائها. أيها الأخ الكريم... عليك بحفظ أسرارك. وإذا كان عندك سر يخص أمتك فلا تفشيه فإنك تكون قد أسأت إلى الأمة جميعها. واحذر العيون المتلصصة والآذان المتسمعة. واكتم سر أمتك وسر عملك إذا كان الله قد وضعك فى هذا الموضع. وكن حذرا يحفظك الله ويحفظ أمتك معك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * * * *

---

(١)الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة.
الحديث رواه أبو داود والنسائى.
الحديث رواه بن حبان فى صحيحه ورواه أبو داود وأبويعلى بإسناد حسن.
الحيث رواه النسائى والحاكم وقال صحيح الإسناد.
الحديث بمعناه ذكره الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة.

من أخلاق المؤمنين:

الأمانــة

{يَـا أَيُّهَـا الَّـذِينَ آمَنُـوا لاَ تَخُونُـوا اللَّـهَ وَالرَّسُـولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

أداء الأمانـة

أداء الأمانـة لصـاحبها صـفة لا يقـدر علـى تحملهـا إلا أصـحاب القلـوب النقيـة التقيـة لمـن اصطفاهم الله سبحانه وتعالى من خيرة خلقه. فلقد عرضت هذه الصفة على السموات وعلوها وشموخها وما فيها من كواكب ومجرات - وهى من الضخامة بمكان لا يعلمه إلا الله عز وجل - فـأبين أن يحملنهـا وأشـفقنا أن يخنهـا فيتعرضـن لعقـاب الله وجزائـه. وكـذلك عرضـت علـى الأرض ومـا فيهـا مـن جبـال غايـة فـى الصـلابة والقوة فاختـارت أن تكـون منقـادة لله علـى أن تتحملها. ولقد حملها الإنسـان. فمن أداها كمـا تحملها فهو مـن الـذين أنعم الله عليهم مـن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. وأمـا مـن خانهـا وجحدها ولـم يؤدها كمـا تحملها فهو الظلوم الجهول. ظلم صاحب الأمانـة وهو الجهول كمـا قـال الله:**{إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً}**[(١)].

وتنوعت تفسيرات المفسرين فـى تعريـف الأمانـة المذكورة فـى الآيـة وذلك بتنـوع الأمانـة نفسها. فمنهم من قال: إن الأمانة هى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) فمن عمل بمقتضاها فلم يخش إلا الله. ولم يعبد إلا هو. ولم يستعن إلا به. ولم يخلع صفات الألوهية إلا عليه فهو الأمين حقا. نعم هو الأمين على ما أودعه الله فى قلبه من الفطرة النقية التى خلقها الله عليها فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه... وأما من أشرك بـالله ورائى الناس. فقد عق الفطرة وخان الأمانة واستحق الوصف المذكور فى الآية وهو أنـه ظلوم جهول - هكذا بصيغة المبالغة وليس الظالم الجاهل فقط.

ومنهم من قال: إن الأمانة هى العقل فمن حافظ على عقله واستخدمه فى معرفة ربه بنظره فـى ملكوت السموات والأرض فعرف أن لهذا الكون ربـا هو الـذى خلقه وهو الـذى سن لـه القوانين التى يجرى عليها. فلا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فـى فلك يسبحون. وأدرك بعقلـه مظـاهر القدرة القـادرة والعظمـة البـاهرة. فهذا الإنسـان هـو الأمـين حقا... أما من ألغى عقله. واتبع ما ألفى عليه آباءه وقلدهم تقليد القردة. فهذا الإنسان هو الظلوم الجهول فكـان عليـه أن يعمـل عقلـه. وأن يسـتمع إلـى الأنبيـاء والمرسـلين وهـم يأتونـه بالآيـات

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان رقم (٧١، ٧٢).

الواضحات والمعجزات البينات. وبذلك يكون أميناً حقاً فيعمل لآخرته باعتبارها الحياة الخالدة الباقية فى كنف الله. ويعمل أيضا للدنيا بقدر مقامه فيها وبقدر رغبته فى زيادة الحسنات وتكفير السيئات.

والرأى الذى أطمئن إليه أن الأمانة هى التكاليف الشرعية التى قررها الإسلام وعلمنا إياها رسول الله ﷺ. وبعض هذه التكاليف تتعلق بالله وحده كالصلاة والصيام. وبعضها يتعلق بالعباد وحدهم كالمعاملات من البيع والشراء والوديعة والدين وما أشبه ذلك - وبعضها يتعلق بالله وعباده كإخراج الزكاة - فإن فيها حقا لله وحقا للعباد - وبعضها يتعلق بالإنسان نفسه. فالبدن ليس ملكا للإنسان فليس له أن يتلفه أو يكلفه ما لا يطيق: **«فإن لبدنك عليك حقا. وإن لربك عليك حقا. وإن لزوجك عليك حقا. فاعطى كل ذى حق حقه»**. ومن قواعد الدين أن صحة الأبدان مقدمة على صحة الأديان... وذلك من يسر الإسلام وسماحته.

وما بعث الله نبيا إلا وهو أمين على ما كلفه الله بتبليغه والعمل به. فلو كان خائنا لكتم من هذه الرسالة شيئا. وحينئذ لا يكون أهلا لتحمل الأمانة... وبحسبك أن رسول الله محمدا صلي الله عليه وسلم كان يلقبه قومه قبل البعثة بالصادق الأمين. ومن هنا فإنه بلغ أمانة الله إلى الناس ولم يكتم شيئا مما أنزله الله عليه. قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: " من حدثك أن محمدا كتم شيئا مما أنزله الله إليه فقد كذب. ولو كان محمدٌ كاتما شيئا لكتم قوله تعالى:**{وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}**[1] وكما كان صلي الله عليه وسلم أمينا على رسالة ربه كان أمينا على ودائع الناس. فحينما أراد صلى الله عليه وسلم الهجرة من مكة إلى المدينة كلف ابن عمه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يؤدى الودائع إلى أربابها بعد أن يهاجر. أما بنوا إسرائيل فحينما علموا أنهم سيهاجرون مع موسى عليه السلام استعاروا بعض الحلى من جيرانهم المصريين وخرجوا بها. ولما أرادوا أن يتخلصوا من هذه الحلى جمعوها. وصاغ لهم السامرى منها عجلا جسدا لـه خوار. فقد خانوا الأمانة وحينما أرادوا أن يتوبوا عبدوها من دون الله فكفروا بالله - نعوذ بالله من ذلك. ولقد وصف القرآن الكريم موسى عليه السلام - كما جاء على لسان بنت الشيخ الكبير:**{الْقَوِيُّ الأَمِينُ}**. وقد حكمت عليه هذه الفتاة بالقوة لما رأت منه كيف أنه سقى لهما بهيبة وعزيمة. ووصفته بالأمانة لأنه طلب منها أن تمشى خلفه حتى لا تتلاعب الريح بثيابها إذا مشت أمامه أو إلى جواره.

---

(١) سورة الأحزاب الآية رقم (٣٧).

وفى سورة الشعراء ذكر لبعض أنبياء الله تعالى وكيف أن كل واحد منهم كان يقول لهم:**{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}**... جاء ذلك على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - صلوات الله عليهم أجمعين... كما قد وصف جبريل عليه السلام بأنه أمين. فهو أمين على وحى الله تعالى يبلغه إلى رسل الله كما تلقاه عن اللوح المحفوظ قال الله تعالى:**{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ}** (١). وقال أيضا:**{وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِينٍ}** (٢) - والمراد هنا جبريل عليه السلام. وقبل ذلك بقليل قال الله عنه:**{مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}** (٣).

ولأهمية الأمانة بمعناها الشامل جاء الأمر برد الأمانات إلى أهلها وذلك فى قوله تعالى:**{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}** (٤)... وإذا أردنا أن نقف قليلا مع هذه الآية فنقول: بدأت الآية الكريمة بكلمة " إن " التى تفيد التوكيد. واختير لفظ الجلالة " الله " دون سائر أسمائه الحسنى ليبعث فى النفس الضعيفة الرهبة حتى تنصاع وتحافظ على الأمانة وتردها. وجاءت كلمة " الأمانات " جمعا ولم تأت مفردة مما يدل على تنوعها وشمولها. وجاءت الآية بلفظ " يأمركم " ليكون ذلك أدعى إلى عدم المناقشة أو محاولة التأويل أو التفسير وإنما هو الأمر الذى يجب الانقياد له.. ويذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة دعا عثمان بن طلحة وكان معه مفتاح الكعبة، فلما جاء قال له رسول الله: " أرنى المفتاح ". فلما مد عثمان يده بالمفتاح إلى رسول الله ﷺ قال العباس عم النبى ﷺ: يا رسول الله بأبى أنت وأمى اجمعه لى مع السقاية - وكان العباس يسقى الحجيج. فأراد أن يضم ذلك إلى سدانة الكعبة وخدمتها وذلك بأخذ المفتاح - وهنا قبض عثمان يده على المفتاح خوفا أن يأخذه العباس. فقال النبى ﷺ: (هات المفتاح يا عثمان). فأعطاه إياه قائلا: هاك أمانة الله. ففتح النبى ﷺ الكعبة وطهرها فقد وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم طرحها. ووجد صورة لإبراهيم عليه السلام وهو يستقسم بالأزلام(٥) فقال رسول الله ﷺ: **«ما للمشركين قاتلهم الله وما شأن إبراهيم وشأن**

---

(١) سورة الشعراء الآيتان رقم (١٩٣، ١٩٤).
(٢) سورة التكوير آية رقم (٢٤).
(٣) سورة التكوير آية رقم (٢١).
(٤) سورة النساء آية رقم (٥٨).
(٥) الأزلام ثلاثة مكعبات من الخشب. مكتوب على واحد منها افعل وعلى الثانى لاتفعل والثالث ليس مكتوب عليه شيء. فإذا أراد إنسان أن يقوم بعمل ما أدخل يده فى كيس يجمع هذه الأزلام. فإذا خرج القدح المكتوب عليه افعل سر وافعل. وإذا خرج لا تفعل لم يفعل. وإذا خرج غير المكتوب عليه شيء

القداحة». وكسر رسول الله ﷺ ذلك ومحاه وخرج من الكعبة وهو يتلو الآية الكريمة:**{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا}**. ثم دعا عثمان بن طلحة وأعطاه المفتاح وقال: (خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا شقى) [١].

وإذا كانت الأمانة من صفات المرسلين فإنها أيضا من صفات المؤمنين. قال تعالى:**{وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}** [٢]... وإذا كانت الأمانة من صفات المؤمنين فإن الخيانة من صفات المنافقين. قال رسول الله ﷺ: **«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا ائتمن خان»** [٣] وقال أيضا: **«يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب»** [٤]. ونفى رسول الله ﷺ الإيمان صراحة على من لم يحافظ على الأمانة فقال: **«لا إيمان لمن لا أمانة له»**. واستعاذ الرسول ﷺ من الخيانة فقال: **«اللهم إنى أعوذ بك من الخيانة»**. بل أن الرسول ﷺ أمرنا بأداء الأمانة حتى ولو كان هذا الإنسان قد خانك فقال: **«أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك»**. لقد وصف القرآن الكريم مكة المكرمة بأنها البلد الأمين. قال تعالى:**{وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}**[٥]. ومعنى وصف مكة بأنها البلد الأمين أنها حرم آمن فكأنها أمينة على من دخلها.

أعاد ذلك مرة أخرى.

(١) ذكر هذه القصة صاحب كتاب لباب النقول لأسباب النزول.

(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٨.

(٣) الحديث رواه أبى يعلى عن أنس بن مالك.

(٤) الحديث رواه البذار والدارقطنى والطبرانى. والحديث رواه سعد بن أبى وقاص.

(٥) سورةالتين الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤).

أنواع الأمانات

ولنتحدث عن بعض أنواع الأمانات ليعلم إخواتى وأحبابى مدى عمومها وشمولها:

(١) أمانة تولى الوظائف العامة... جاء أبو ذر لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ألا تستعملنى - أى تولينى عملا - قال فضرب رسول الله ﷺ منكبى ثم قال: **«يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة. وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا الذى أخذ بحقها وأدى الذى عليه فيها»** (١). ذلك أن الوظيفة ليست فى نظر الإسلام وساماً يوضع على صدر الوالى. وإنما حمل ثقيل يوضع على كاهله. وسوف يسأل عن هذه الأمانة يوم القيامة. فمن حسبها مغنماً وجاهاً وتكبر على عباد الله كان ذلك خزيا وندامة. ومن قام بحقها فهو الفائز حقا... عندما تولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه إمارة المؤمنين قل نومه جداً وكان يقول: لو نمت بالليل أضعت نفسى - يقصد أنه لا يقوم الليل - وإذا نمت بالنهار أضعت الرعية... وكلما كانت الوظيفة حملها أشد كان السؤال عنها أصعب... وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: لو عثرت بغلة بشاطىء الفرات لوجدتنى مسؤولاً عنها أمام الله لم لم أمهد لها الطريق؟ وحينما طعنه أبو لؤلؤة وقيل لعمر: استخلف واجعل ابنك عبدالله واحدا ممن تستخلف. قال: يكفى أن يحاسب من آل الخطاب واحداً عن أمور المسلمين. وحينما استخلفه أبو بكر قال: يا خليفة المسلمين لا رغبة لى فيها. قال الصديق: لكنها لها رغبة فيك.

أين هذا من بعض الذين تولوا أمور المسلمين وأخذوا البيعة لأبنائهم بالذهب والسيف وقال: من أطاعنا فله هذا - وأشار إلى الذهب - ومن عصانا فله هذا - وأشار إلى السيف؟... ولقد قالتها امرأة لم تتخرج من جامعة ولم تدخل كتابا ولا مدرسة وإنما قالت بالفطرة لعمر وهى لا تعرفه حينما كان يتفقد أحوال الرعية قالت له: الله بيننا وبين عمر. فقال عمر: وما يدرى عمر بحالك؟ قالت: أيتولى أمرنا وينام عنا!! وأشهد أن عمر الفاروق لم ينم عن أمور الرعية وإنما كان يتعرف على حالها و يتفقد شؤونهم (٢).

(٢) من الأمانات التى ينبغى للمسلم المحافظة عليها الأسرار ومشاكل الذين استودعوها إياه. قال رسول الله ﷺ: **«إذا حدث الرجل رجلا بحديث ثم التفت – يعنى لايريد أن يسمعه أحد – فهى أمانة»**. وقال ﷺ أيضا: **«إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك»**... وفى إفشاء الأسرار إيغار للصدور ومنبع للكراهية. وهى من أكبر الأبواب التى يدخل منها الملعون إبليس حتى

---

(١) رواه مسلم.

(٢) عند هذا الحد وانتهى كلام الشيخ رحمه الله عن الأمانة. وحيث إنه لم يتم أنواع الأمانات فإنى أتمها بإذن الله وتوفيقه.

يفسد علاقة المسلم بأخيه المسلم ويهتك روابط المودة بينهما وأواصر الأخوة التى جمعهما الإسلام عليها. ومن أهم الأسرار التى يجب أن يحافظ عليها المسلم هى ما يكون بين الرجل وزوجه داخل غرف النوم. فلا ينبغى لأحد أن يتحدث بمثل هذه العلاقة لغيره لأنها أمانة وإفشاؤها من أعظم الخيانات. قال رسول الله ﷺ: **«إن شر الناس منزلة عند الله الرجل يفضى إلى إمرأته والمرأة تفضى إلى زوجها ثم ينشر سرها»**. [(١)] ومن الأسرار التى ينبغى للمسلم أن يحفظها ما يراه المغسل فى الميت. فربما كان الميت صاحب عاهة فى جسده يخفيها عن الناس فى حياته خشية غمزهم له وعيبهم عليه. فينبغى للمغسل أن يستر عليه ذلك... وربما ظهر على الميت آثار غضب الله - والعياذ بالله - كسواد الوجه أو شابه ذلك. فيجب أيضا أن يحافظ المغسل على هذه الأسرار. قال رسول الله: **«وليغسل موتاكم المأمونون»**... [(٢)] فسب الأموات والشماتة بهم أمر منهى عنه فى الشرع. قال رسول الله: **«لا تسبوا الموتى فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»**. بل نهى الرسول عن سب أبى جهل أمام ابنه عكرمة الذى آمن بالله وبرسوله وقال فى الحديث الشريف[(٣)]: **«إن عكرمة يأتيكم. فإذا رأيتموه فلا تسبوا أباه. فإن سب الميت يؤذى الحى ويؤلمه»**.

(٣) من أنواع الأمانات أيضا الاستشارة. قال رسول الله ﷺ: **«من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه»**. وكيف لا تكون الاستشارة أمانة والمستشير وضع ثقته ووفاءه فيمن طلب منه النصيحة والمشورة. والرسول ﷺ يقول: **«الدين النصيحة»**. فمن خان النصيحة فقد خان الدين وخالف ظن أخيه المسلم به.

جاء فى السنن أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ تقول خطبنى فلان وفلان وفلان. فمن منهم تنصحنى أن أتزوجه؟ فأشار عليها بقوله: **«فلان لايضع العصى عن عاتقه – أى يضرب زوجته – وفلان صعلوق لا مال له. تزوجى فلان...»** هكذا تكون الاستشارة بلا مجاملة أو محاباة لأحد أو خوف منه. ولا يمنعن المسلم أن يشير على أخيه بالحق والصدق خشية غضب الناس أو رجاء كسب ودادهم.

والمسلم حين يشير على أخيه بشيء فإن عليه أن يتحرى الصدق ولا يفتيه بالظن والوهم. بل بالعلم واليقين حتى يكون أهلا لهذه الاستشارة. وصدق رسول الله ﷺ القائل: **«المستشار مؤتمن»**. وقال أيضا ﷺ: **«الاستشارة أمانة»**.

---

(١) الحديث رواه مسلم

(٢) الحديث رواه بن ماجه

(٣) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب

ومن الأمانة كذلك صدق الحديث فيما يرويه المسلم أو يحدث به غيره. قال رسول الله: **«كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت له كاذب»** [(١)]. لذلك أمر الإسلام المؤذن أن يكون أمينا وتتمثل أمانته فى ضبط ودقة أوقات الآذان لأن الناس تضع ثقتها فيه فتصلى حسب آذانه. وتفطر فى رمضان عند سماع صوته فى آذان المغرب.. وهكذا. قال رسول الله: **«المؤذن مؤتمن»**... فهو مؤتمن لأن الناس تصدقه. فإن خالف ظنهم به وقصر فى مهمته فقد خانهم.

(٤) البيع والشراء والتجارة أيضا أمانة. ولو علم التاجر أن بضاعته التى يأخذها منه الناس أمانة. وأنه مسؤول عنها أمام الله إن هو خانهم وغش سلعته لما رأينا أحدا يشتكى الحاجة والعوز، ولنعم الجميع بحياة ملؤها الثقة والإخاء والتعاون والرحمة. قال رسول الله ﷺ: **«إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا. وإذا وعدوا لم يخلفوا. وإذا اؤتمنوا لم يخونوا»**.

ولخطورة الغش التجارى أنزل الله فى القرآن سورة كاملة باسم المطففين الذين ينقصون الوزن ويكثرون الغش. وقد بدأها بقوله**{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}**[(٢)].

ولقد اشتهر قوم مدين بهذه الصفة الحقيرة وهى الغش وتطفيف الكيل. فأرسل الله إليهم نبيه شعيباً عليه السلام الذى جادلهم وناقشهم وقدم لهم النصيحة. قال تعالى:**{وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا المِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}** [(٣)].

وإذا كانت التجارة مشاركة بين اثنين أو أكثر فعلى المسلم أن يحافظ على مال شريكه كما يحافظ على مال نفسه. قال تعالى فى الحديث القدسى: **«أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه»**[(٤)]... وعاب نبى الله داود عليه السلام على الشريك الخائن فقال: **«وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم»**[(٥)].

(٥) ومما لاشك فيه أن أثقل شيء فى الأمانات هى الودائع التى يعطى صاحبها ثقته فيمن

---

(١) رواه أحمد

(٢) سورة المطففين. الآيات أرقام (١، ٢، ٣، ٤، ٥).

(٣) سورة هود. الآية رقم (٤٨).

(٤) رواه أبو داود.

(٥) سورة ص الآية رقم (٢٤).

ائتمنه عليها مثل المال أو المخدرات أو ما شابه ذلك. نقول إن هذا النوع من أصعب الأمانات لأن النفس البشرية جبلت على حب التملك والطمع. وعلى ألا يتميز عليها أحد أو يفوقها بشيء

قال ابن مسعود رضى الله عنه: (يؤتى يوم القيامة بصاحب الأمانة التى خان فيها فيقال لـه: أد أمانتك. فيقول: أَنَّى يارب وقد ذهبت الدنيا؟ قال فتمثل لـه كهيئتها يوم أخذها فى قعر جهنم ثم يقال لـه: انزل إليها فأخرجها. قال: فينزل يجمعها على عاتقه - وهى أثقل عليه من جبال الدنيا حتى إذا ظن أنه ناج هوت وهوى فى أثرها أبد الآبدين: ثم قال: الصلاة أمانة. والوضوء أمانة. والغسل أمانة. والوزن أمانة. وأعظم ذلك الودائع) [١].

قال تعالى:**{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}**[٢]. وأخيرا نحب أن نبين عاقبة الخائنين حتى يكونوا عبر وعظة لغيرهم. قال تعالى..

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [٣].

{وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ}. [٤] وقال رسول الله ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة لـه ولا دين لمن لا عهد له»**. [٥]: **«يطبع المؤمن على كل خلله إلا الكذب والخيانة»**. [٦] أسأل الله أن ينفعنا بما علمنا... وأن ينفع بما علمنا غيرنا.

* * * * *

---

(١) الكبائر للذهبى.
(٢) سورة البقرة.
(٣) سورة الحج. الآية رقم (٣٨).
(٤) سورة يوسف. الآية رقم (٢٢).
(٥) رواه أحمد.
(٦) رواه البزار وأبو يعلى وروائه رواة الصحيح.

من أخلاق المؤمنين:

الرضــا

{رَّضِـيَ اللَّـهُ عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ ذَلِـكَ لِمَـنْ خَشِيَ رَبَّهُ}

الرضـا

خلق الرضا هو خلق يجب أن يتخلق به المؤمن. والمؤمن الراضى يعيش مطمئن القلب مرتاح البال. ذلك أن الخير والشر يستويان عنده لأنهما من قضاء الله عز وجل. فيشكر على السراء ويصبر على الضراء... بعكس الساخط الذى يعبد الله على حرف فإن أصابته سراء فرح. وإن أصابته ضراء دجر وسخط. وهذا ليس من طبع المؤمنين الصادقين.

وليعلم الناس جيداً أن رضا الله عز وجل عن عبد ثواب لرضا العبد عن ربه. فإذا رضى العبد عن ربه ولم يسخط ولم يشك رضى الله عز وجل عنه. قال تعالى:**{هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ}** [١]. وقد وردت مادة الرضا فى آيات كثيرة من القرآن الكريم... قال تعالى:**{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ}** [٢]. وقال تعالى:**{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}** [٣]. ومثل ذلك فى سورة المجادلة وفى سورة البينة [٤]... والذى نلاحظه فى هذه الآيات أن هناك ارتباطا بين رضا العبد عن ربه ورضا الله عز وجل عن عبده**{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}**.

فرضا العبد عن ربه يتمثل فى الرضا فى جميع ما أمر به ولو كان مخالفا لطبيعة النفس. والرضا عن كل قضاء وقدر ولو كان مؤلما للنفس. والرضا الأول يسمى(الرضا بالألوهية). والرضا الثانى يسمى (الرضا بالربوبية)[٥]. فهؤلاء الذين يضيقون بصلاة الفجر لأنها تأتى والجو بارد وفيها ترك للفراش الدافىء الوسير ينقصهم الرضا بألوهية الله. والذين يضيقون بصوم رمضان إذا جاء فى فصل الصيف حيث تجف الشفاه وتيبس الألسنة ليسوا راضين بألوهية الله عز وجل... وهكذا فالرضا بالألوهية يظهر فى الرضا بجميع الأوامر والنواهى. والذين يضيقون بقضاء الله وقدره فى فقد عزيز أو فى المرض أو الفقر أو ما أشبه ذلك ينقصهم

---

(١) سورة الرحمن. الآية رقم (٦٠).

(٢) سورة المائدة. الآية رقم (١١٩).

(٣) سورة التوبة. الآية رقم (١٠٠).

(٤) آية سورة المجادلة هى: رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله - الآية رقم (٢٢). وآية سورة البينة هى قوله تعالى:**{جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}** الآية رقم (٨١).

(٥) قيل أن موسى سأل ربه أن يدله على عمل إذا عمله رضى عنه. فقال الله له: إنك لاتطيق ذلك. فخر موسى ساجدا. فأوحى الله إليه: يا ابن عمران.. إن رضائى فى رضاك بقضائى - الرسالة القشيرية.

الرضا بالربوبية... فأقدار الله عز وجل لصالح عباده كما ورد فى الحديث القدسى: **«أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعيب»**. وقال عز من قائل:**{وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}** (١).

فرضا العبد عن ربه سبحانه وتعالى هو مضمار الإيمان. قال تعالى:**{فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً}** (٢). وقال تعالى:**{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً}** (٣). وقال رسول الله ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا»** وفى رواية أخرى: **«من قال كل يوم: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا**(٤)**. كان حقا على الله أن يرضيه يوم القيامة»**.

ورضا الله يوم القيامة أفضل من الجنة وما فيها من حور وقصور وأشجار ونعيم مقيم. قال تعالى:**{وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}**. فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة. بل هو غاية سكانها - جعلنا الله منهم - وفى حديث شريف ما معناه: **«إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول: سلونى. فيقولون: رضاك»** - وفى رواية: **«فيتجلى لهم يقول: أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى. فيسألونه الرضا»**. وفى حديث قدسى ما معناه: **«أن الله يسألهم: هل أنتم راضون عنى كما أنا راض عنكم؟ فيقولون: وما لنا لانرضى وقد أنجيتنا من النار وأدخلتنا الجنة. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من هذا؟ فيقولون: وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أصل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا»**. يقول بعض المفسرين فى قوله تعالى**{وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}**: يأتى أهل الجنة فى وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين: إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم فى الجنان مثلها. فذلك قوله تعالى:**{فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}**(٥)... والثانية: السلام عليهم من ربهم - فيزيد بذلك على الهدية فضلا - وذلك قوله تعالى:**{سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}** (٦)... والثالثة: يقول الله لهم: إنى عنكم راض - ويكون ذلك أفضل مما سبقه - وذلك قوله تعالى:**{وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ**

---

(١) سورة البقرة. الآية رقم (٢١٦).
(٢) سورة النساء. الآية رقم (٦٥).
(٣) سورة الأحزاب. الآية رقم (٣٦).
(٤) الحديث رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب.
(٥) سورة السجدة. الآية رقم (١٧).
(٦) سورة يس. الآية رقم (٥٨).

أَكْبَرُ}. وورد الرضا فى عدة أحاديث عن رسول الله ﷺ. نذكر منها:

سأل رسول الله ﷺ طائفة من أصحابه: **«ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقلوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال: مؤمنون ورب الكعبة»**... وفى خبر آخر قال: **«حكماء علماء كادوا بفقههم أن يكونوا أنبياء)**.

قال ﷺ: **«طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافا ورضى به»**. وقال ﷺ: **«إذا أحب الله عبدا ابتلاه. فإن صبر احتباه. فإن صبر اصطفاه»**. وقال ﷺ: **«يا معشر الفقراء. أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا»**.

ولنعلم جميعاً أن ما يقدره الله لعبده فيه الخير لا محالة ولو لم نَرَ نحن ذلك. فعيوننا قصيرةً ولا نعلم إلا مابينا أيدينا. أما ربنا فهو وحده الذى يعلم ما كان وما هو كائن وما سوف يكون وهو علام الغيوب... يروى أن رجلا كان لـه كلب وحمار وديك. فالديك يوقظ الرجل وأهلـه للصلاة. والحمار يحمل متاعهم. والكلب يحرسهم. فجاء ثعلب وأكل الديك فحزنوا لفراقه. ثم جاء ذئب وبقر بطن الحمار فحزنوا أكثر. ثم أصيب الكلب بعد ذلك. فقال الرجل: عسى أن يكون ذلك خيرا لنا. ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا حولهم فإذا قد سبى من حولهم وبقوا هم! ولما سأل عن السبب قيل لـه: إن أصوات حيواناتهم دلت أعداءهم عليهم. فحمد الله على موت الديك والحمار والكلب... فلولم يموتوا وتعالت أصواتهم لأغار أعداؤهم عليهم.

وروى أن سعد بن أبى وقاص أتى مكة. وكان قد كف بصره وكان مستجاب الدعوة وجاء الناس يهرعون إليه وكل واحد منهم يسأله أن يدعو لـه. قال عبدالله بن السائب: فأتيته وأنا غلام فتعرفت عليه فعرفنى وقال: أنت قاريء أهل مكة؟ قلت: نعم. قال: فقلت لـه يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فيرد الله عليك بصرك؟! فتبسم وقال: قضاء الله سبحانه وتعالى عندى أحسن من بصرى. ونسأل: هل يتنافى الرضا مع الإحساس بالألم؟ بمعنى أن الله عز وجل إذا ابتلى إنسانا ما ببلاء فأحس بالألم من هذا البلاء - كالإحساس بالألم عند المرض. والإحساس بالألم عند فقد الأحباب - هل الإحساس بذلك يتنافى مع الرضا؟... والجواب: لا. لأن الرضا عمل من أعمال القلب والألم يتعلق بالجسم. وقد يرضى الإنسان وهو مع ذلك يتألم - كالمريض الذى يخبره الطبيب أنه لابد من إجراء عملية جراحية لـه حتى يشفى. وأن هذه العملية هى الطريق الوحيد للتخلص من هذا المرض - فالمريض ولا شك راض بذلك بقلبه وعقله وإن كان يتألم بجسمه...

والصائم الذى يصوم فى يوم شديد القيظ يشعر بألم الصيام. ومع ذلك فهو راض عن صومه لأن فيه مرضاة الله... والمجاهد الذى يحس بألم الضرب والطعان وما أشبه ذلك راض بذلك ابتغاء مرضاة الله. قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضا: ترك الاختيار قبل القضاء. وفقدان المرارة بعد القضاء. وهيجان الحب فى حشو القضاء... وقال الحسين بن على رضى الله عنه: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن عند اختيار الله له.

ونسأل أيضا: هل الدعاء يتنافى مع الرضا؟ بمعنى أن الإنسان لو نزلت به كارثة مثلا فهل من الرضا عدم الدعاء بكشفها؟ والجواب: لا. فالدعاء هو العبادة أو مخ العبادة. وكان رسول الله ﷺ فى قمة الرضا ومع ذلك كان لا يمل الدعاء. فهو القائل ما معناه: **«اللهم إنى أعوذ بك من الكفر والفقر. وأعوذ بك من عذاب القبر»**. وهو القائل ما معناه: **«اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن. وأعوذ بك من العجز والكسل. وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»**. وأدعية كثيرة مأثورة عنه ﷺ وهى لا تتنافى مع الرضا... وقد أثنى الله على بعض عباده بقوله تعالى:**{وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً}**.

ونسأل ما الذى يتناقض مع الرضا؟

(١) مما تتناقض مع الرضا الحقيقى الرضا بالمعاصى والفجور بزعم أن ذلك قضاء الله وقدره. وهذا فهم خاطيء ورضا مقلوب ولقد ذم الله أمثال هؤلاء فى قوله تعالى:**{رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}** [١] - وذلك فى شأن الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ. وقال:**{وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا}**. وقال رسول الله ﷺ: **«من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها. ومن غاب عن معصية وأحبها فكأنما حضرها»** والراضى بفعل قوم كالداخل معهم فيه... والنصوص كثيرة فى كراهية أصحاب المعاصى حتى يتوبو إلى ربهم وقال تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}**. وقال:**{لاَ يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ المُؤْمِنِينَ}** [٢].

(٢) مما يتناقض مع الرضا الشكوى إلى الناس مما حل به من مرض أو فاقة دون داعٍ يعتبر. كالشكوى من ظالم إلى من يستطيع أن يدفع الظلم أو الشكوى من ألم لمن يعرف كيف يداوى هذا الألم مثلا. أما الشكوى التى لافائدة منها فهى تنافى الرضا. ولنتعلم من رسول الله ﷺ

---

(١) سورة التوبة. الآية رقم (٩٣).
(٢) سورة آل عمران. الآية رقم (٢٨).

كيف كانت شكواه إلى ربه حين قال فى مناجاته عند عودته من الطائف: **«اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس»**. وشكوى يعقوب نبى الله عليه السلام حين قال:**{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}** (١)... والمراد بالشكوى التى تنافى الرضا هى الشكوى مع الجزع وعدم الصبر. ولنذكر بعض أسرار الرضا ولماذا كانت لـه هذه المنزلة. فنقول - وبالله التوفيق - من أسراره ما يأتى:

أن الراضى عن الله واقف مع اختياره عز وجل يبرأ من حولـه وقوته إلى حول الله وقوتـه. فهو على يقين قلبى أن ما يريده الله لـه يكون دائماً خيراً من اختياره. يروى أنـه اجتمع كلا من سفيان الثورى ووهيب بن الورد ويوسف بن أسباط. فقال الثورى: قد كنت أكره قبل اليوم موت الفجاءة. أما اليوم فوددت أنى ميت. وقال يوسف: ولكنى لاأكره طول البقاء. فقال الثورى: ولم تكره الموت؟ فقال: لعلى أصادف يوما أتوب فيه إلى الله وأعمل عملاً صالحاً. فقيل لوهيب: أى شىء تقول أنت؟ فقال: أنا لا أختار شيئا. أحب ذلك إلى أحبه إلى الله. فقبله الثورى بين عينيه وقال: روحانية ورب الكعبة. أول معصية عصى بها الله فى هذا العالم إنما نشأت عن عدم الرضا فإبليس عليه اللعنة لم يرض بحكم الله حيث فضل آدم عليه. ولم يرض بأمر الله حيث أمر بالسجود لـه (٢). وآدم لم يرض بما أتيح لـه فى الجنة حيث ضم إليه الأكل من الشجرة ووسوسة إبليس وأنه خدع بقسمه ونصحه -**{وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}** (٣). وأن قضاء الله سبحانه وتعالى مما يكرهه المرء لا يخلو إما أن يكون عقوبة على ذنب. أو يكون سببا لنعمة لا تنال إلا بهذا المكروه... فإن كان عقوبة على ذنب فهو بمثاب الدواء. على العاقل أن يرضى بالدواء لأنه سبب الشفاء. فالعقوبة تمحو الذنب حتى يلقى الله طاهرا مطهرا - وهذا ولا شك فى صالح العبد.

وإن كان سببا لنوال نعمة لا تنال إلا به فينبغى أن يكون ذلك محل رضا. لأن المكروه يتلاشى وتبقى النعمة بعد ذلك. وقصة سيدنا موسى والخضر شاهدة على ذلك. فخرق السفين وقتل الغلام وإقامة الجدار فى ظاهرها أمور ضارة. ولذلك أنكرها الكليم عليه السلام عليه.

---

(١) سورة يوسف. الآية رقم (٨٦).

(٢) قال تعالى حاكيا عن رفض إبليس لأمر الله: قال ما منعك أل تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين - سورة الأعراف. الآية رقم (١٢).

(٣) سورة الأعراف. الآية رقم (٢١)... وكانت نتيجة أكله من الشجرة هو وزوجه قول الله تعالى: قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مسشتقر ومتاع إلى حين - سورة الأعراف. الآية رقم (٢٤).

ولكن بعد أن فسر الخضر ذلك اتضح أن الخير فيما فعل. الرضا يثمر سرور القلب ويذهب عنه الهم والغم. فالراضى شعاره قول ربه:**{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}** لأن ما فات قد يكون فى حقيقته شرا فالحمد لله على فواته - ولأن ما جاء قد يكون كذلك فى حقيقته شرا فلا ينبغى أن نفرح وحينما جاء الذى عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس قال سيدنا سليمان عليه السلام: **«هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر»** [(١)]. فلم يفرح بمجيء العرش قبل أن يرتد إليه طرفه لأن ذلك قد يكون ابتلاء من الله. وهذا شأن الراضين أنهم يفوضون الأمر كله لله ويختارون ما يختار الله لهم. ولذلك كان بعضهم يتحرج أن يقول: هذا يوم شديد الحر أو شديد البرد أو الفقر بلاء والعيال هم. ولا يسمى شيئا قضاء الله وقدره اسما مذموما إذا لم يذمه الله.

قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لى سرور لأنى بواقع القدر... وقال ابن مسعود: الفقر والغنى مطيتان لا أبالى أيهما ركبت. إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان الغنى فإن فيه البذل... وقال أحد الصالحين: وددت أن الليل أطول مما هو عليه الآن لأزداد من الصلاة فيه. فعلق على كلامه أحد الذين بلغوا فى الرضا مقاماً سامياً فقال: أحسنت وأسأت. قال: كيف ذلك؟ قال: أحسنت حيث تمنيت طول الليل للعبادة والمناجاة. وأسأت حيث تمنيت ما لم يرده الله وأحببت ما لم يحبه الله. وقال رجل لامرأته: لأشقينك. فقالت لا تستطيع إن سعادتى فى إيمانى. وإن إيمانى فى قلبى. ولا سلطان لأحد على قلبى إلا الله... وفى أثر قدسى: **«أنا الله لا إله إلا أنا. قدرت المقادير. ودبرت التدابير. وأحكمت الصنع. فمن رضى فله الرضا منى حتى يلقانى. ومن سخط فله السخط حتى يلقانى»**... ولله در القائل:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ::: والدهر ذو دول والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنا ::: وفى اختيار سواه اللوم والشوم

ومن مساوئ السخط وعدم الرضا...

أن الشيطان لا يتمكن من الإنسان تمام التمكن إلا إذا سخط. فالإنسان الساخط يقول ما لا يرضى الله ويفعل ما لا يرضى الله وينوى ما لا يرضى الله. وتلك كلها وسائل يتمكن بها الشيطان من الاستيلاء على الساخط ويضخم له سخطه. وينفخ فى الرماد إذا هدأ قليلاً أو رضى قليلا ليعود إلى سخطه مرة ثانية. ولذلك نرى رسول الله ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم ما

---

(١) سورة النمل. الآية رقم (٤).

معنـاه: **«إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا. وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**. فرسول الله ﷺ اتسع قلبه الكبير للرضا بقضاء الله وللرحمة بفقد الابن. والبكاء لا ينافى الرضا... فهذه رحمة وضعها الله فى قلب من يشاء من عباده. أن السخط يستدعى عدم ثبات العبد مع ربه فى جميع حالاته شأن الراضين. فالساخط إذا أصابته ضراء ضجر ولم يصبر وفى ذلك سخط على القدر كما قال ربنا:**{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ}**. أنظر إلى من مات له حبيب ولم يكن من الصابرين فربما لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية. ولقد أخرج النبى ﷺ هذا من زمرة المؤمنين: **«ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»**. وفى حديث قدسى ما معناه: **«من لم يرض بقضائى ويصبر على بلائى فليخرج من سمائى وليعبد ربا سواى»** [(١)]... فالسخط كما يقول بن القيم: يفزع القلب من الله. والرضا يفرغ القلب لله.

السخط يفتح باب الشك فى الله - والعياذ بالله - فالساخط على قضاء الله معترض على حكمته وعلمه. فالرضا واليقين إخوان. والسخط والشك شيطانان مقترنان. روى الترمذى أن رسول الله ﷺ قال: **«إن استطعت أن تعمل بالرضا واليقين فافعل. فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا»**. [(٢)] وبالجملة فالساخط مخاصم لربه معترض على مولاه. وكان من دعاء الرسول ﷺ ما معناه: **«اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك. ناصيتى بيدك ماض في حكمك. عدل في قضاؤك...»** فنواص الخلق بيد الخالق. وأحكامه ماضية. وقضاؤه قضاء عدل... فأين موقع الساخطين من ذلك؟ ومن لم يرض بالعدل فهو من أهل الظلم والجور.

ومن الآيات التى تدل على الرضا بالله...

قال تعالى:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَباً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}** [(٣)].

قال تعالى:**{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِياً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(٤)].

قال تعالى:**{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً}** [(١)].

---

(١) حديث ضعيف.
(٢) حديث شريف رواه ابن عباس عن رسول الله.
(٣) سورة الأنعام. الآية رقم (١٦٤).
(٤) سورة الأنعام. الآية رقم (١٤).

فالآية الأولى... تدل على الرضا بالله ربا وسيدا وإلها.

والآية الثانية... تدل على الرضا بالله معبودا مطاعا محبوبا.

والآية الثالثة... تدل على الرضا بالله حكما. والله أعلى وأعلم

* * * * *

(١) سورة الأنعام. الآية رقم (١١٤).

من أخلاق المؤمنين:

الأدب

قال أحد الصالحين: التوحيد موجب الإيمان. فمن لا إيمان له لا توحيد له... والإيمان موجب يوجب الشريعة. فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد... والشريعة موجب توجب الأدب. فمن لا أدب له لاشريعة ولا إيمان ولا توحيد.

الأدب

من الأخلاق الحسنة التى ينبغى أن يتصف بها المؤمن خلق الأدب. وهو أن يجمع الإنسان خصال الخير الحسنة وأن يتخلى عن أضدادها. والمؤمن مطالب بأن يكون مؤدبا مع ربه عز وجل وأن يكون مؤدبا مع رسوله ﷺ. وأن يكون مؤدبا مع إخوانه المسلمين.

وعلى ذلك فالأدب ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ - أدب مع الله عز وجل. ب - أدب مع الرسول ﷺ.

ج - أدب مع الخلق.

ووردت كلمة الأدب فى قولـه ﷺ: **«أدبنى ربى فأحسن تأديبى»** [1] - وفى غير ذلك من الأحاديث كما سنبين. وورد ما يدل على الأدب فى القرآن الكريم مثل قولـه تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}**[2]... فالمؤمنون مأ الإنسان به نفسه بأن يلزمها الجادة الواضحة والصراط المستقيم - صراط الله الذى لـه ما فى السماوات وما فى الأرض. فلا إفراط ولا تفريط... وهذا هو الأدب - لذلك فسر بن عباس الآية بقولـه: أدبوهم وعلموهم. والحق أن الإنسان المؤدب يكون محل رضا ومحل تقدير واحترام وهذا هو ما يليق بالمسلم.

وفى ذروة الأدب مع الله عز وجل أنبياء الله ورسله. فهم أعلم الناس بربهم وأعلم الناس بالأدب معه سبحانه وتعالى - وفى طليعة هؤلاء رسول الله ﷺ ونذكر من أدبه ﷺ ما يأتى:

١- أدبه ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ووقوفه بين يدى ربه خاشعا لا يلتفت يمنه ولا يسرة. مما جعله أهلا لأن يثنى عليه ربه فى محكم القرآن الكريم لقولـه عز من قائل:**{مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى}** [3]. ولعل المراد أنه ما تلفت يمينا ولا شمالا ولا جاوز ما أمر به بعد أن غشى السدرة ما غشيها من أنوار الله تعالى. فلم يصرف بصره ﷺ عن أنوار ربه التى أشرقت على سدرة المنتهى. وهذا منتهى الأدب مع ربه.

---

(١) هذا الحديث صحيح المعنى ضعيف المبنى كما قال الشيخ الألبانى رحمه الله.
(٢) سورة التحريم. الآية رقم (٦).
(٣) سورة النجم. الآية رقم (١٧).

قال أحد الصالحين: رأيت الجنة والنار حقيقة. فقيل له: كيف رأيتهما وأنت فى الدنيا؟ فقال: رآهما ﷺ بعينيه ليلة الإسراء والمعراج فرأيتهما بعينيه. ورؤيتى لهما بعينى رسول الله ﷺ أثبت وآكد عندى من رؤيتى لهما بعينى. فبصرى قد يزيغ لكن بصر رسول الله ﷺ لا يزيغ**{مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى}**.

وإذا كان هذا حال بصره ﷺ فإن حال فؤاده الشريف أيضا كان مطمئنا**{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}** (١) - فقد تأدب باطنه وظاهره وتواطأ القلب والقالب واتفقا وللقلب زيغ وطغيان بأن يفكر فى غير ما هو فى حضرته. وللبصر زيغ وطغيان أيضا بأن يلتفت أو يتطلع إلى ما هو أمامه فمن أدبه ﷺ مع ربه فى هذا المقام المشهود أن قلبه الشريف لم يعرض عن ربه. وبصره الشريف لم يزغ ولم يطغ... وهذا هو الأدب الحقيقى أدب محمد ﷺ مع ربه.

إن سيدنا رسول الله ﷺ وسيدنا موسى عليه السلام كلاهما أقامه ربه فى موقف التكليم والمناجاة. غير أن موسى عليه السلام طلب من ربه أن يراه -**{رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}** (٢) - ولكن محمدا ﷺ لم يلتفت بصره ولا قلبه إلى غير ما أقيم فيه. ومن أدبه ﷺ مع ربه أنه خيره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فقال الله له ﷺ: " بم تحب أن أشرفك "؟ فقال ﷺ: " أن تنسبنى إلى ربك بالعبودية " -**{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}** (٣).

ونتناول بعض آيات من القرآن الكريم وردت على ألسنة بعض الأنبياء والصالحين تبين أدبهم مع ربهم. من هؤلاء...

١- إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام فى قوله كما روى القرآن الكريم:**{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}** (٤). فقد نسب الخلق والطعام والسقيا إلى الله لأنها نعم فنسبها إلى المنعم الحقيقى وهو رب العالمين. ونسب المرض إلى نفسه تأدبا مع ربه - فلم يقل مثلا: "أمرضنى " - مع يقينه التام أن الصحة والمرض بيده -**{قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ}** - لكنه أدب الخليل مع ربه.

٢- آدم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام تضرع إلى ربه هو وزوجه حواء -

---

(١) سورة النجم. الآية رقم (١١).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (١٤٣).
(٣) أول سورة الإسراء.
(٤) سورة الشعراء. الآيات أرقام (٧٨، ٧٩، ٨٠).

{رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ} [١] - فاعترفا بذنبهما حين أكلا من الشجرة - ولم يقولا مثلا: " هذا قضاؤك وقدرك يا ربنا " - فنسبة الظلم إلى نفسيهما أدب حق الأدب. ولو قالا كما يقول بعض أبنائهما: " هذا شيء قضاه الله وقدره ربنا " لكانا قد أساء الأدب.

لقد كان بعض أبنائهم سييء الأدب مع الله حين قالوا:**{لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم}** فقد أرجعوا عبادة الأصنام إلى مشيئة الله. والله يرد عليهم بعدها مباشرة بقوله:**{مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ}**[٢] وقال تعالى:**{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ}**. والقرآن يرد عليهم فى نفس الآية:**{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ}** [٣].

٣- الخضر عليه السلام كان حسن الأدب مع ربه حين فسر ما فعله لسيدنا موسى عليه السلام وذلك أنه نسب عيب السفينة إلى نفسه فقال:**{فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا}** ونسب إرادة الخير لوالدى الغلام وبناء الجدار إلى الله سبحانه وتعالى. قال تعالى:**{فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً}** وقال:**{فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}**[٤].

٤- ومما يجرى هذا المجرى قول مؤمنى الجن:**{وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً}** [٥]. ففى الحديث عن الشر قالوا " أريد " - بالبناء للمجهول - وفى الحديث عن الرشد قالوا: " أراد بهم ربهم رشدا" فأسندوا الإرادة إلى الله... وهذا من حسن الأدب.

٥- أيوب عيه السلام قال بعد أن دام مرضه ثمانى عشرة سنة:**{أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}** - فلم يقل: " مستنى الضر ". وأيضا لم يطلب كشف الضر عن نفسه فلم يقل مثلا: " رب اشفنى وعافنى ". بل أثنى على ربه بأنه أرحم الراحمين[٦] - وكشف الله عنه ضره ووهب له أهله ومثلهم معهم... وهذا حسن أدب منه مع ربه [٧].

---

(١) سورة الأعراف. الآية رقم (٢٣).
(٢) سورة الزخرف. الآية رقم (٢٠)... ومعنى قوله: (يخرصون) أى يكذبون.
(٣) سورة الأنعام. الآية رقم (١٤٨).
(٤) سورة الكهف. الآيات أرقام (٧٩، ٨١، ٨٢).
(٥) سورة الجن. الآية رقم (١٠).
(٦) سورة الأنبياء. الآية رقم (٨٣).
(٧) وأيضا من أدبه عليه السلام أنه نسب مرضه إلى الشيطان فقال: (أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب).

٦- موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وسقى للمرأتين جلسا فى الظل وتوجه إلى الله بقولـه:**{رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}** [١] - فلم يقل مثلا: " رب إنى جائع وبلا مأوى وغريب بلا أهل " - واستجاب الله لـه وزوجه وأوجد لـه أهلاً وعملاً وطعاماً ثم اجتباه رسولا.

٧- سيدنا يوسف عليه السلام حين جاء أبوه وأخوته إلى مصر وخروا لـه سجداً كان مؤدباً مع ربه عز وجل كما كان مؤدباً مع أبيه ومع إخوته وذلك فى قولـه تعالى حاكياً عن هذا الموقف:**{هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاًّ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}**[٢]... ففى هذه الآية من الآداب ما يلى:

* أسند خروجه من السجن إلى ربه ولم يسنده للملك. وذكر السجن ولم يذكر الجب - فلم يقل: " أخرجنى من الجب " - لأنه لو قال ذلك لكان فيه تذكيرا لما صنعه به أخوته فهم الذين ألقوه فى الجب - فكان مؤدبا مع إخوته بعد أدبه مع ربه.

* وقال:**{وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ}** - لم يقل لهم: " أنقذكم من الجوع والحاجة والقحط فى باديتكم "... وهذا أدب مع أبيه وإخوته [٣].

* وقال:**{مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}**. فنسب ما حدث لـه من إخوته إلى الشيطان - ولم يقل مثلا: " من بعد أن تآمر على إخوتى " وكل هذا أدب رشاد منه عليه السلام.

٨- تعالوا ننظر إلى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام حينما قال الله:**{يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ}** [٤] - فلم يقل مثلا: " لم أقل ذلك " - ولو قال

وهذا من الأدب مع الله أنا نسب الخير إلى الله تعالى ونسب الشر لأنفسنا أو للشيطان... ويؤكد هذا المعنى أيضا ما نسبه غلام موسى عليه السلام من نسيان الحوت ووقوعه فى البحر إلى الشيطان. قال تعالى على لسانه: (فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) سورة الكهف. الآية رقم (٦٣) وما قاله نبى الله يوسف عليه السلام من أن الشيطان هو الذى أوقع العداوة بينه وبين إخوته حين رموه فى الجب وآذوه. قال تعالى حاكيا كلامه: (من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) سورة يوسف الآية رقم (١٠٠).

(١) سورة القصص. الآية رقم (٢٤)... وأدب موسى عليه السلام يعلمنا ألا نشترط شيئا معينا على الله فى الدعاء. بل نتذلل لـه ونسأله من خيره إنه سميع قريب.

(٢) سورة يوسف. الآية رقم (١٠٠).

(٣) ومن أدبه أيضا أنه لم يمتن على أبيه وإخوته فلم يقل: أنا الذى جئت بكم وفعلت وفعلت. بل نسب الخير كله لله ونسى نفسه... وهذا شأن المسلم. قال تعالى: (لا تقتلوا صدقاتكم بالمد والأذى) سورة البقرة. الآية رقم (٢٦٤).

(٤) سورة المائدة. الآية رقم (١١٦).

ذلك لكان فيه تزكية لنفسه ومدح لها وهو فى موقف بين يدى الله يستدعى الخشوع والخضوع وهضم النفس. فكان مثالا للنبى المؤدب مع ربه فقال:**{سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}**. فبدأ أولا بتنزيه الله عن هذا الشرك الذى صدر من قوله. ثم عقب ذلك بأنه ما يكون له أن يقول قولا بغير حق. ثم فوض أمره إلى الله بأن علمه تعالى قد أحاط بذلك فقال:**{إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}**. فلم يزك نفسه بنفى القول عنها. ثم نفى عن نفسه أن يعلم غيب ربه بل ربه يعلم الغيب كله فقال:**{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}**. ثم أكد علمه بقوله:**{إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ}** ولاحظ ما فى هذه الجملة الشريفة من مؤكدات أكد بها علمه سبحانه وتعالى. فقد أكد.. (بأن) وبالضمير المنفصل " أنت " وبصيغة المبالغة: " علام ". وبجمع الغيب: " الغيوب ". وكل ذلك ليثبت لربه علمه الكامل ولينفى عن نفسه العلم بالغيب.

ثم بعد هذا الثناء على الله بين ما قاله لهم فقال:**{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}**. وأنظر إلى القصر بالنفى والاستثناء ثم التفسير بعد الإجمال فى قوله:**{مَا أَمَرْتَنِي بِهِ}** فسره بعد ذلك بقوله:**{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ}**. فهو يظهر لربه أنه بلغ ما أمر به ولم يتعد ذلك... وانظر لقوله " ما قلت لهم " - فلم يقل لهم " ما أمرتهم إلا بما أمرتنى به " ولو قال ذلك لدل على أن له أمرا مع الله وهذا سوء أدب. وعبر عن تبليغ رسالته بأنه " قول منه وأمر من الله "... وهذا حسن أدب.

ثم قال بعد ذلك:**{وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}**. فقد أخبر عليه السلام أنه كان مراقبا لهم مدة حياته. وبعد وفاته لايعلم من أمرهم شيئا وإنما العلم كله لله.

ثم قال بعد ذلك:**{إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ}**. وهذا التعبير غاية فى حسن الأدب مع الله. فقد بين إستحقاقهم للعذاب بأنهم عباده. والسيد دائما ما يكون رؤوفا بعبيده. فإذا عذبهم فلن يكون ذلك إلا إذا كانوا عبيد سوء. والله تعالى أرحم الراحمين فلا يعذبهم إلا إذا كانوا يستحقون ذلك. وهذا اعتراف من السيد المسيح بعدل الله وحكمته.

ثم قال:**{وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ}** والمسيح هنا يذكر ربه ووصفه بصفة العزة والحكمة ليبين أن المغفرة لو حصلت لكانت من موقع كمال القدرة وليست عن عجز. وهذا أفضل مما لو قال مثلا: " إنك أنت الغفور الرحيم " لأشعر ذلك أنه يستعطفه عليهم والموقف موقف غضب من الله. فالله لا يغفر أن يشرك به وعلى المسيح أن يكون فى موقفه

موافقا لربه. فهو ليس أرأف أو أرحم من ربه... ويكون المعنى: إن غفرت لهم فمغفرتك من كمال القدرة عليهم والعلم بهم وليست عن عجز عن الانتقام منهم ولا خفاء عليك بمقدار جرائمهم [١]. ويكون السيد المسيح قد فوض الأمر كلية إلى الله.

وفى الإسلام آداب كثيرة ينبغى للمسلم أن يتصف بها ليكون مؤدباً مع ربه... فالاستنجاء والوضوء أو الغسل كل هذه أشياء على المؤمن أن يحرص عليها حين يقف بين يدى ربه مصلياً أو تالياً للقرآن الكريم. وكان الصالحون يتجملون فى صلاتهم لموقفهم بين يدى ربهم ولعل ذلك يكون مستمداً من قوله تعالى:**{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}**[٢] - فلم يكتف الله بستر العورة فقط - فقد قيل فى سبب النزول أن أهل الجاهلية من قبائل العرب كانوا يطوفون بالبيت عرا ة - الرجال بالنهار والنساء بالليل - وتعليلهم أن هذه الثياب قد عصوا الله فيها فلا تكون عليهم وهم يتقربون إلى الله فعاب الله عليهم ذلك وأمر بالتزين والتجمل خاصة عند دخول المساجد لأداء الصلاة ومن السنة التزين بأجود الثياب فى الجمع والأعياد.

ومن أدب المسلم مع ربه أن يقف عند حدود ما شرع ولا يتعداه. واسمع هذا الحوار الذى دار بين عثمان بن مظعون رضى الله عنه وبين رسول الله ﷺ يروى أن عثمان بن مظعون أتى رسول الله ﷺ وقال: **«غلبنى حديث النفس فعزمت على أن اختصى. فقال** ﷺ **: مهلا يا عثمان إن خصاء أمتى الصيام. قال: إن نفسى تحدثنى بالزهد. فقال** ﷺ **: إن زهد أمتى فى القعد فى المساجد لإنتظار الصلاة. فقال: إن نفسى تحدثنى بالسياحة فقال** ﷺ **: سياحة أمتى الغزو والحج والعمرة. فقال: إن نفسى تحدثنى أن أخرج مما أملك فقال** ﷺ**: الأولى أن تكفى نفسك وعيالك وأن ترحم اليتيم والمسكين فتعطيه أفضل من ذلك. قال: إن نفسى تحدثنى أن أطلق خولة. فقال** ﷺ **: إن الهجرة فى أمتى هجرة ما حرم الله. قال: إن نفسى تحدثنى ألا أغشاها. فقال** ﷺ **: إن المسلم إذا غشى أهله أو ما ملكت يمينه فإن لم يصب من وقعته تلك ولدا كان له وصيف فى الجنة وإن كان له ولد مات قبله أو بعده كان له قرة عين وفرح به يوم القيامة. وإن مات قبل أن يبلغ الحنث كان له شفيعا ورحمة يوم القيامة. قال عثمان: إن نفسى تحدثنى ألا آكل اللحم. قال** ﷺ **: مهلا إنى آكل اللحم إذا وجدته ولو سألت الله أن يطعمنيه كل يوم فعل. قال: إن نفسى تحدثنى ألا أتطيب. قال** ﷺ **: مهلا فإن جبريل أمرنى بالطيب وقال لا تتركه يوم الجمعة. ثم قال** ﷺ **: يا عثمان... لا ترغب عن سنتى فإن من رغب عن سنتى ومات قبل أن يتوب صرفت**

---

(١) كتاب مدارج السالكين لابن القيم. الجزء رقم (٢).. الصفحة رقم (٣٩٥).
(٢) سورة الأعراف. الآية رقم (٣١).

الملائكة وجهه عن حوضى».

ومن آداب المسلم مع ربه ألا يرفع بصره إلى السماء وهو فى صلاته. قال ﷺ: **«لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لتخطفن أبصارهم»** [١]. ويكره كل ما يخل بالخشوع فمن الأدب الوقوف بين يدى الله وقوفا على الأدب. وإذا كان بعض الناس يقفون بين يدى ملوكهم ورؤسائهم مطرقين إلى الأرض فوقوفهم بين يدى ملك الملوك أحق وأولى.

ومن تمام الأدب عدم العبث بالثوب أو بالبدن أو وضع اليد على الخاصرة والنظر إلى ما يلهى عن الصلاة - قال تعالى:**{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ}** - سئل عقبة بن عامر عن هذه الآية: أهم الذين يصلون دائما؟ قال: لا. ولكن إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله[٢]. ونأتى إلى الأدب مع رسول الله ﷺ فلقد أدبنا الله تبارك وتعالى مع نبيه ﷺ وسلم. ففى سورة الحجرات من هذه الآداب آداب يجب أن يتحلى بها المؤمن المحب لرسوله. ومنها: ألا نتقدم برأى قبل رأيه ولا بنهى ولا بأمر قبل نهيه وأمره ﷺ قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}**. ألا ترفع الأصوات فوق صوته ﷺ ولا فوق أحاديثه - بعد أن لحق بالرفيق الأعلى - قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ}**. [٣] يروى أن أبا جعفر المنصور أمير المؤمنين ناظر الإمام مالكا فى مسجد رسول الله ﷺ. فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله تعالى أدب قوما فقال:**{لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}** ومدح قوم فقال:**{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}**. وذم قوما فقال:**{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ}**... وإن حرمة رسول الله ﷺ ميتا كحرمته حيا. فاستكان لها جعفر وقال: يا أبا عبدالله أأستقبل القبلة وأدعوا أم أستقبل رسول الله؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. بل استقبله واستشفع به يشفعك الله. قال تعالى:**{وَلَوْ**

---

(١) رواه أحمد وسلم - والثانى فى فقه السنة.

(٢) مدارج السالكين. الجزء رقم (٢). الصفحة رقم (٢٠٤)... يلخص الإمام ابن سيرين الأدب مع الله بقوله حين سئل أى الأدب أقرب إلى الله؟ فقال: معرفة بربوبيته. وعمل بطاعته. والحمد لله على السراء. والصبر على الضراء... وقال سعيد بن المسيب مؤكدا هذا المعنى: من لم يعرف ما لله عز وجل عليه فى نفسه ولم يتأدب بأمره ونهيه كان من الأدب عزله... وفى فضل الأدب مع الله يقول الأستاذ أبوعلى الدقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنة وبأدبه فى طاعته إلى الله.

(٣) سورة الحجرات آية رقم (٢).

أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً} (١). وكان عبدالرحمن بن مهدى إذا قرأ حديثا أمر الحاضرين بالسكوت وقال: لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى.

ويحلو الحديث ويعذب حينما نذكر طرفا من آداب أحباب رسول ﷺ مع حديثه ﷺ كان الإمام مالك إذا أراد أن يحدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتهيأ ولبس ثيابه وكان إذا أتاه من يريدون التعلم منه أرسل إليهم الجارية لتقول لهم: هل تريدون الحديث أم المسائل الفقه؟ فإن قالوا الحديث دخل بمغسلته واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا وتعمم ووضع على رأسه رداءة وتلقى له خادمته وسادة فيجلس عليها وعليه الخشوع ولا يزال يبخر بالعود حتى ينتهى من الحديث. وإن قالوا أردنا المسائل خرج إليهم. ولما سئل عن سبب ذلك قال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ولا أحدث به إلا على طهارة. وكان يكره أن يحدث بالحديث فى الطريق أو وهو قائم أو متعجل. (٢) قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا الحديث فلدغته عقرب ستة عشر لدغة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ. فلما فرغ المجلس وتفرق الناس قلت: يا أبا عبدالله لقد رأيت اليوم منك عجبا. قال: إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ﷺ. قال ابن مهدي: مشيت يوما مع مالك إلى العقيق(٣) فسألته عن حديث لرسول الله فانتهرنى وقال: كنت فى عينى أجل من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشى (٤)... فهل نتأدب مع رسول الله بالتمسك بسنته ﷺ واتباع هديه وتعظيم دينه.

الأدب مع الناس:

ونتحدث الآن عن النوع الثالث من أنواع الأدب وهو الأدب مع الخلق. ويتمثل ذلك فى استشعار المسلم أن جميع المسلمين اخوانه وربطه بهم أواصر الدين والعقيدة. قال تعالى:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** (٥)... وهذه الأخوة ليست كلاما أجوفا ولا شعارات براقة. بل هى واجبات

---

(١) الشفا. الجزء رقم الصفحة رقم (٣٧).

(٢) ومن أدبه أيضا مع النبى أنه كان يستحى أن يركب دابته وهو فى المدينة المنورة ويقول: كيف لمالك أن يطأ بدابته أرضا كان يمشى عليها النبى بقدمه؟

(٣) اسم مكان.

(٤) الشفا. جزء رقم (٢). صفحة رقم (٣٩).

(*) عند هذا الحد انتهى كلام فضيلة الشيخ. وحيث أنه لم يتم النوع الثالث من الأدب وهو الأدب مع الناس فإنى أتمه بتوفيق من الله.

(٥) سورة الحجرات. آية رقم (١٠).

والتزام. وهذه الأخوة تتطلب منا أن ننظر إلى الكبير على أنه والد. وإلى المقارب لنا على أنه أخ. وإلى الأصغر منا على أنه ابن... قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعطى لعالمنا حقا»**. فلا ينبغى لمسلم أن يظلم أخاه أو أن يسيء إليه بأى نوع من أنواع الأذى والشر ولو حتى بنظرة عين ولا بكلمة أو أصغر. قال تعالى:**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ}**[١]. فهناك آداب يجب أن يراعيها المسلم ليكون ممن تحقق فيهم حديث رسول الله: **«إن أحبكم إلي وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا»**... فهناك أدب الولد مع والديه ويتمثل فى طاعته فيما لا يغضب الله. قال تعالى**{وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً}** [٢].

ومن جملة الأدب مع الوالدين التواضع لهما واللين فى كلامك لهما والإنفاق عليهما وقت الحاجة.. وهكذا. قال الله تعالى:**{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً}**[٣]. وهناك أدب بين الطالب وأستاذه ويتمثل فى صبره على العلم وطاعة المعلم وإجلاله. قال تعالى حاكيا على لسان موسى مع الخضر عليهما السلام:**{قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً}**[٤]. وقديما قالوا: من علمنى حرفا صرت لـه عبدا..

قــــم للمعلـــــم وفـــــه التبجـــــيلا ::: كـــــاد المعلـــــم أن يكـــــون رســـــولا

يقول الإمام أبو حنيفة النعمان: إن لى أربعين سنة ما مددت قدمى تجاه بيت من حفظنى القرآن... كان كالصحة للبدن وكالشمس للدنيا. فما أحوج أبناؤنا اليوم إلى التحلى بهذه الآداب مع أساتذتهم حتى تنهض العملية التعليمية والتى الأصل فيها التربية قبل التعليم.. كما هو شعار

(١) سورة الحجرات آيتان رقم (١١، ١٢).
(٢) سورة لقمان آية رقم (١٥).
(٣) سورة الإسراء آيتان رقم (٢٣، ٢٤).
(٤) سورة الكهف. آية رقم (٦٩).

الوزارة. وللإمام عبدالله بن المبارك كلمة رائعة فى موضوع الأدب قال فيها: نحن إلى قليل الأدب أحوج إلى كثير العلم... وصدق القائل: لا ينكر الفضل إلا قليل الأصل. وما أجمل ما قاله فضيلة الشيخ عبدالعاطى - رحمه الله - فى حق المعلم حين أنشد:

ربيـــــت أشبـــــال الكنانـــــة ::: فاغتـــــــدوا أعـــــــلاما

كانـــــوا لـــــديك أمانـــــة ::: فرعيتـــــــها إعظامـــــــا

وبنـــــور علمـــــك فيـــــهم ::: اتخـــــذوا السمـــــاء مرامـــــا

لـــــو أنصفـــــوك لكنـــــت فـــــى ::: كـــــل الصـــــدور وسامـــــا

وهناك أدب بين الرجل وزوجه ويتمثل أدبها فى طاعته فيما لا يغضب الله وصيانة ماله وعرضه والإخلاص فى تربية أولاده.. وهكذا. قال رسول الله: **«لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»**.. ويتمثل أدبه معها فى رعايته والإنفاق عليها وعلى أسرته والإحسان إليها. قال رسول الله فى حديثه الشريف: **«خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى»**. وكان ابن عباس يقول: إنى أحب أن أتزين لزوجتى كما أحب أن تتزين لى.. ويستدل على ذلك بقوله تعالى:**{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}**. وبالجملة فإن الأدب مع الخلق يتمثل فى لين الجانب. وخفض الجناح. وحسن الكلام. وتقديم الإحسان. والرأفة على الغير. ونصرة المظلوم. وإغاثة الملهوف. ومعاونة العاجز. وإرشاد الضال. والأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر. فكلنا فى الله أخوة. قال رسول الله: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه. ولا يسلمه. من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته. ومن فرج عن مسلم كربه فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة. ومن ستر مسلم ستره الله يوم القيامة»** [١] والله تعالى أعلى وأعلم.

* * * * *

---

(١) حديث متفق عليه.

من أخلاق المؤمنين:

الغربــة

قال رسول الله ﷺ : «بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء».

الغربــة

أيها الأخوة الأحباب. أحبائى فى الله وفى رسول الله ﷺ لا تغرنكم كثرة التابعين لرأى ما ولا قلتهم بقدر ما تعرفون الرأى نفسه. فليست الكثرة دليلا على صحة الرأى وليست القلة كذلك دليلا على خطئه. فالله عز وجل قد ذم الكثرة التى لا تلتزم بالحق. قال تعالى:**{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}**. وقال:**{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}**. ومدح قلة أخرى مؤمنة فقال:**{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}** (١) فلا تحكم على رأى ما أو مذهب ما بكثرة أتباعه أو قلتهم بقدر حكمك على صواب هذا الرأى أو عدم صوابه. النبى ﷺ يقول فى معنى الحديث: **«ما أنتم فى سواكم من الأمم إلا كالشعرة البيضاء فى الثورة الأسود»**.

واللقاء الآن إن شاء الله يدور حول هذا المعنى حول حديث نبوى شريف يتحدث عن الغربة وهو: **«بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: والذين يصلحون إذا فسد الناس»**... فأنت ترى أن رسول الله ﷺ قد مدح الغرباء وأخبر عن الإسلام الذى أتانا به من ربه عز وجل بأنه بدأ غريباً وإنه سوف يعود غريباً وأن أهله يصيرون غرباء.

أما أن الإسلام بدأ غريبا فهذا أمر معلوم من دراستنا للجاهلية التى سبقت الإسلام فقد جاء الإسلام والوثنية ضاربة أطنابها فى كل مكان حتى الكعبة نفسها بيت الله كان فيها من الأصنام والأوثان الشيء الكثير. حتى البيوت نفسها لم تنج من ذلك ففى كل بيت تقريباً صورة صنم يتبرك به صاحبه ويتضرع إليه ويستشيره. فلما جاء الإسلام بالتوحيد الخالص والتخلص من هذه الأصنام المنتشرة هنا وهناك كان ولا شك غربة للإسلام وكان غربة لمن تمسك به ودعا إليه.

كان هناك تبرج الجاهلية وعرى الجاهلية حتى عند الطواف حول البيت الشريف كان هناك من يطوفون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم - الرجال نهاراً والنساء ليلاً وكان هذا أمرا مألوفاً وشائعاً عند كثيرين. فجاء الإسلام ومعه الطهارة والعفة والستر واتخاذ الزينة -**{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** (٢) فكان هذا أمراً غريباً وكان أهله كذلك غرباء.

---

(١) سورة سبأ. آية رقم (١٣).

(٢) سورة الأعراف. آية رقم (٣١).

كان هناك الربا والزنى والحمية الجاهلية وغير ذلك. وجاء الإسلام وشجب ذلك ودعا إلى الحب والتعاون على الخير وغير ذلك من المبادىء الكريمة التى تحفظ للإنسان كرامته. فكان الإسلام فى هذه البيئة غريبا وكان المسلمون فيها أيضا غرباء وتحمل المسلمون الغرباء فى أوطانهم وهم بين أهليهم وذويهم كل التعب. وكل المشقة والاضطهاد وهؤلاء طوبى لهم وحسن مئاب.

ولعل ما يلفت النظر أن الرسول الكريم الملهم من ربه صاحب القلب الذى يرى بنور الله عز وجل وصف الإسلام بأنه سيعود غريبا - كما بدأ وها أنتم أولاء ترون صدق رسول الله ﷺ فى وصف الإسلام بالغربة. ووصف أهله بأنهم غرباء قد تحقق كما قال. ادخل أى مقهى وتأمل ما يجرى فيه ماذا ترى؟ ترى أناسا لا تستطيع أن تحكم عليهم بأنهم مسلمون. قد تسمع القرآن الكريم يتلى من الإذاعة أو التليفزيون فهل فى هؤلاء من يستمع إلى القرآن وينصت إليه كما قال ربنا:**{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**(١) وقد تكون الآيات التى تقرأ تذكر بالنار وحرها وشدتها وهم عن كل ذلك غافلون**!!** فأين الإسلام من هؤلاء؟**!** ألا يعد الإسلام غريبا عنهم.. ثم افترض أن إنسانا وقف فى هذا المقهى وقال يا قوم: كفوا عن لعب الحرام الذى تمارسونه. ونظفوا أيديكم منه وأنصتوا إلى القرآن الذى يتلى عليكم وأقلعوا عن التدخين احتراما لما تسمعون. لو فرضنا أن إنسانا قال ذلك فى هذا الجمع فماذا يمكن أن يقال عنه؟ سوف يقال عنه أنه متخلف وإنه رجعى وإنه متعصب وإنه إرهابى**!** أيمكن أن يكون هذا الرجل من هؤلاء الناس؟ ألا يكون غريبا عنهم وطوبى له كما يقول الرسول ﷺ ؟

انظر إلى المال العام وهو ملك للمسلمين جميعا وليس ملكاً لرئيس المصلحة ولا للوزير ولا لغيره. إنك تجد التزوير والاحتيال والتماس الثغرات لأكله ونهبه - وما عشرات القضايا التى عرضت وتعرض أمام المحاكم إلا أمثلة صارخة لذلك - ترى لو أن إنسانا فى مصلحة ما فيها تليفون ومنع استخدام هذا التليفون من الذين يستخدمونه فى أغراضهم الشخصية. فهذا خاطب يتحدث مع مخطوبته أين يقضيان سهرة الليلة وتطول المكالمة وتمتد. وهذا عاشق يتحدث مع معشوقته يبثها هواه ونجواه. وهذا زوج يتحدث مع امرأته عن الغداء والأولاد.. وغير ذلك كثير وكثير جدا مما تعلمون. والعجب أن أغلب المكالمات تبدأ من المصلحة أما تليفون البيت فهو أخرس إلا عندما يطلب**!!** لو افترضنا أن رئيس هذه المصلحة منع استخدام

---

(١) سورة الأعراف. آية رقم (٢ - ٤).

هذا التليفون من هذا الاستخدام الأحمق الأهوج فبماذا يصفه زملاؤه؟ سوف يسمع ما لا يحب فهو يتنطع وهو إنسان لا يراعى الجانب الإنسانى لمرأوسيه ولا يعمل على راحتهم! أيمكن أن يكون مثل هذا الشخص فى هذا الموقع إلا غريبا وطوبى للغرباء كما ذكر رسول الله ﷺ (١).

وانزل إلى السوق وتأمل حال البائعين والمشترين وكل منهم يريد أن يخدع صاحبه ويأخذ ما لا حق له فيه. وتسمع الأيمان المغلظة الكاذبة وربما سمعت أيمان الطلاق من المتزوجين وغير المتزوجين. لو أن تاجراً صالحاً وقف فى هذا السوق فلم يثن على سلعته وأظهر ما فيها من عيب لمن يشتريها - كما هو شأن التجار الصالحين - أيمكن أن يقال عن هذا التاجر إنه من جملة التجار الآخرين؟ إنه غريب وطوبى للغرباء كما ذكر رسول الله ﷺ. هذه بعض أمثلة تثبت ما قاله الرسول الملهم الموحى إليه من ربه. والذى لا ينطق عن الهوى من منذ أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان.

ونعود إلى الحديث الذى معنا والروايات التى جاء بها لذكر صفات الغرباء لنحاول أن نتصف بها لنكون أهلا لبشارة الرسول لنا بقوله ﷺ: «**فطوبى للغرباء**» فمن ذلك:

١- روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**طوبى للغرباء. قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس**».

٢- وفى حديث آخر: «**بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ. فطوبى للغرباء. قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحيون سنتى ويعلمونها الناس**».

٣- روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحب شيء إلى الله الغرباء. قيل: ومن الغرباء؟ قال: الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسي ابن مريم عليه السلام يوم القيامة**».

٤- روى نافع عن مالك قال: دخل عمر بن الخطاب فوجد معاذ بن جبل جالسا إلى بيت النبى + وهو يبكى. فقال له: ما يبكيك يا أبا عبدالرحمن.. هلك أخوك؟ قال: لا ولكن حديث حدثنيه حبيبى ﷺ وأنا فى هذا المسجد. فقال عمر: ما هو؟ قال: «**إن الله يحب الأخفياء الأصفياء الأتقياء الأبرياء. الذين إذا غابوا لم يفتقدوا. وإذا حضروا لم يعرفوا. قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة**».

---

(١) أكد الرسول على احترام المال العام وحرمة نهبه قائلا: (إن أناسا يتخوضون فى مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة). رواه البخارى ومسلم.

هذه بعض الروايات التى تصف الغرباء وهم ليسوا بالضرورة أن يكونوا بعيدين عن أوطانهم ولا عن أهليهم وذويهم. ولكنها غربة التفرد عن الكثرة المخالفة. وعلى ذلك فالمسلمون غرباء عن أكثر أهل الأرض. والمؤمنون من هؤلاء المسلمون غرباء، والعلماء العاملون غرباء بين المؤمنين، والمخلصون غرباء بين العالمين: **«الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم»**. وهؤلاء غرباء من الناس لكنهم قريبون من الله وهم أهله حقا. وهم بهذا القرب من الله لا يحسون بوحشة فالله أنيسهم. ولا يشكون من وحدة فالله معهم. ولكن الغرباء حقا عن الله هم الغرباء عن الله وعن رسول الله وعن دين الله.

يروى أن موسى عليه السلام لما خرج من مصر هاربا من قوم فرعون وانتهى إلى أرض مدين فقال: يا رب.. وحيد مريض غريب. فقيل له: يا موسى.. الوحيد من ليس له مثلى أنيس. والمريض من ليس له مثلى طبيب. والغريب من ليس له بينى وبينه معاملة... هذه هى الغربة الحقيقية فالغريب حقا هو البعيد عن دين الله فلا يعمل بمقتضاه ولا يلتزم بآدابه وسلوكه. وإنما يشرع لنفسه ما لم يأذن به الله ورسوله... والغريب كذلك هو الغريب عن ربه الذى لا يراقبه ولا يقف عند ما شرع ولا يخشع قلبه عند ذكره والغريب أيضا الغريب عن رسول الله ﷺ لا هو متمسك بسنته ولا متتبع لطريقته هؤلاء هم الغرباء حقا يوم القيامة.

ويوم القيامة تنطلق كل أمة مع من كانت تعبد من دون الله إلى النار وتبقى أمة التوحيد الذين كانوا غرباء فى الدنيا واقفين فى أماكنهم. فيقال لهم: ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس فى الدنيا ونحن أحوج إليهم منا اليوم. وإنا ننتظر ربا كنا نعبده.

صفات الغرباء

ونلخص صفات الغرباء كما جاءت فى هذه الروايات التى سردناها عليكم. وهى: الذين يصلحون إذا فسد الناس كما فى الرواية الأولى فهم لا ينحرفون مع من انحرف ولا ينجرفون مع من انجرف فهم يعضون على سنة رسول الله ﷺ بالنواجز. كما حذرهم الرسول من اتباع المبتدعين: **«إياكم ومحدثات الأمور. فإن كل محدثة بدعة. وكل بدعة ضلالة. وكل ضلالة فى النار»** (١). وقوله ﷺ: **«لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس. ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا. وإن أساءوا أن تتجنبوا إساءتهم»** - إنهم يحيون بالله ومع الله ولله، ولا يضرهم من خالفهم هذه هى الصفة الأولى الذين يزيدون إذا نقص الناس ولعل الزيادة والنقص هنا ليست فى العدد و إنما هى زيادة فى الطاعات والعمل الصالح أو النقص فيها. فلا يعنى هؤلاء الغرباء ما يفعله الناس بقدر ما يعنيهم أن يطيعوا ربهم وأن يتقربوا إليه بكل عمل صالح. " الذين يفرون بدينهم إلى ربهم ". كما قال الله**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ}** (٢). وإذا فر الناس من الشيطان وارتموا فى أحضان الله فإنهم يفرون إلى جنات الفردوس. إنهم يفرون من المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم... وبالجملة فإنهم يفرون مما سوى الله إلى الله. ومن كل مايعرضهم لعذاب الله إلى ما يوصلهم إلى طاعته. إنه لايفرح إلا بما يصل إليه من الله ولا يأسى على شيء فاته سوى الله. فلا يستعن إلا بالله ولا يفتقر إلا إلى الله ولا يفرح إلا بموافقته لله ولا يحزن إلا على مافاته من الله ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله. فكله لله وكله بالله وكله مع الله وسيره إلى الله (٣).

" الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لن يعرفوا ". وفى هؤلاء ورد حديث أبى أمامة عن رسول الله ﷺ عن رب العزة ما معناه: **«إن أغبط أوليائى عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاته أحسن عبادة ربه ، وكان رزقه كفافا وكان مع ذلك غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع. وصبر على ذلك حتى لقي الله ثم حلت ميتته وقل ثراؤه وقلت بواكيه»**.

---

(١) حديث شريف رواه الترمذى وقال: حسن صحيح وهو من رواية العرياض بن سارية.
(٢) سورة الذاريات. آية رقم (٥٠).
(٣) مدارج السالكين جزء رقم (٢) صفحة رقم (٦٠٢).

ومن هؤلاء أيضا ما ذكره أنس أن رسول الله ﷺ قال: **«رب أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»**. ومن هؤلاء أيضا ما ورد عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن ملوك الجنة قالوا: بلى يا رسول الله. قال: كل ضعيف أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره»**. وقال الحسن: المؤمن فى الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها، للناس حال وله حال. الناس منه فى راحة وهو من نفسه فى تعب [١] والغربة لاتعنى الانفصال عن الناس وعدم إسداء النصح أو الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر إلا فى حدود الحديث الشريف: **«مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحا مطاعا. وهوى متبعا. ودنيا مؤثرة. وإعجاب كل ذى رأى برأيه. ورأيت أمرا لا يد لك به فعليك بخاصة نفسك وإياك وعوامهم. فإن وراءكم أياما صبر الصابر فيها كالقابض على الجمر»** [٢]. ولهذا جعل للمسلم الصادق فى هذا الوقت إذا تمسك بدينه أجر خمسين من الصحابة. ففى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}** فقال: **«بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعا. وهوى متبعا. ودنيا مؤثرة. وإعجاب كل ذى رأى برأيه. فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوام. فإن وراءكم أيام الصبر. الصبر فيهن مثل قبضة على الجمر. للعامل فيهن أجر خمسين رجلا لا يعملون مثل عمله»**. قلت: يا رسول الله أجر خمسين منهم؟ قال: " أجر خمسين منكم " [٣]... ولا عجب فى ذلك. فهذا الرجل الغريب عن مجتمعه لا يجد منهم معينا ولا مساعدا بل قد يجد اللوم والتثبيط. فهو عالم بين جهال. وآمر بمعروف بين آمرين بمنكر. وملتزم بسنة بين مبتدعين. داع إلى الله بين دعاة الهوى والغرض... وهذه هى الغربة المحمودة كما ذكر النبى ﷺ. وهناك غربة مذمومة عكس الغربة المحمودة. وهى غربة أهل الباطل بين أهل الحق. فهم وإن كانوا كثيرين ويعيشون بين أشياعهم فهم غرباء. قد يكونون معروفين عند أهل الأرض يشرق ذكرهم ويغرب وتقام لهم الاحتفالات لتكريمهم ويحصلون على أعلى الأوسمة وأغلى الجوائز. ولكنهم فى الوقت نفسه مجهولون بين أهل السماء. وإذا عرفوا يوم القيامة فكما قال ربنا:**{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ}**. فهم يحشرون زرقا. وسودا كما قال الله تعالى:**{وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً}** [٤]. وكما قال تعالى**{يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ}** [١]. وقد يسألنى سائل عن

(١) مدارج السالكين جزء رقم (٢) صفحة رقم (٦٠٢).
(٢) الحديث رواه أبو داود.
(٣) الحديث رواه ابن ماجة والترمذى وقال حسن غريب.
(٤) سورة طه. الآية رقم (١، ٢).

الغربـة بمعنـى البعد عن الأهل والوطن؟ وأقول: إذا كانت هذه الغربـة فـى طاعـة الله فهـو كالمجاهد والحاج والمعتمر والذى يضرب فى الأرض يبتغى فضل الله فهو مثاب. وقد وردت فى ذلك أحاديث نذكر منها

عن عبدالله بن عمرو قال: **«توفى رجل بالمدينة – ممن ولد بالمدينة – فصلى عليه رسول الله ﷺ وقال: ليته مات فى غير مولده. فقال رجل: ولم يا رسول الله؟ قال: إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة».** (٢)

وقال: وقف رسول الله ﷺ على قبر رجل بالمدينة فقال: **«يا لـه لو مات غريبا. فقيل: وما للغريب يموت بغير أرضه؟ قال: ما من غريب يموت بغير أرضه إلا قيس له من تربته إلى مولده فى الجنة»** (٣) أما الذين يغتربون لإشباع لذة وإطفاء نزوة فليس لهم فى هذا الخير نصيب. وإنما جزاؤهم جزاء العصاة المذنبين لهم فى كل خطوة فى سبيل هذه المعصية سيئة توقر ظهورهم

---

(١) سورة آل عمران. الآية رقم (١، ٦).

(٢) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه.

(٣) وفى ثواب الغرباء فى صدر الإسلام قوله تعالى فى سورة الحديد: (لايستوى منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقو من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير)... وهذا حق. ذلك أن الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح كانوا غرباء - وطوبى للغرباء - وكان الإسلام ما يزال غريبا. أما بعد الفتح فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا فزالت الغربة. روى أنس أنه كان بين خال بن الوليد وعبدالرحمن بن عوف كلام. فقال خالد: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها. فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى ﷺ فقال: (دعوا لى أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهبا ما بلغتم أعمالهم). وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى خزيمة الذين قالوا: صبأنا صبأنا. وفهم خالد أنهم كفروا فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم. وخالفوا عبد الرحمن بن عوف وعبدالله بن عمر فكانت المخاصمة. وفى الحديث الصحيح: (لاتسبوا أصحابى. فوالذى نفسى بيده لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولانصفيه). وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم. فقلنا: من هم يا رسول الله.. أقريش؟ قال: لا ولكن أهل اليمين هم أرق أفئدة وألين قلوبا. فقلنا ك أهم خيرنا يا رسول الله؟ قال: لو كان لأحدهم جبل فأنفقه ما أدرك مد أحدكم ولا نصفيه). ثم ختمت الآية بقوله: (والله عليم خبير). فبعلمه وخبرته تعالى فاوت بين من أنفق قبل الفتح ومن أنفق بعده - ابن كثير / سورة الحديد... وقصة حاطب بن أبى بلتعة حينما كاتب قريشا فى فتح مكة وأراد عمر أن يقتله فقال النبى ﷺ: (لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم). وورد فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (أى المؤمنين أعجب إليكم؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم!! قالوا: الأنبياء. قال: وما لهم لا يؤمنوا الوحى ينزل عليهم!!. قالوا: فنحن. قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم!! ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها - الظلال/ سورة الحديد.

وتثقل كافة سيئاتهم. فأصبحوا وفجاج الأرض تلعنهم كباطل من جلال الحق منهزم. وإذا توسعنا فى مفهوم الغربة عن الوطن فإننا نعد كل هذا العلم غريبا. ذلك أن الوطن الأصلى الذى خلقنا لــه هو الدار الآخرة. فالدنيا دار ممر وليست دار مفر وهى مزرعة للآخرة. وهى قنطرة والعاقل من يعبرها سليما ولا يشغل نفسه بالبقاء فيها أكثر مما قدر لــه. وهذا العالم كله مسافر إلى ربه وأيامه ولياليه هى مراحل عمره. فكل يوم يقربه حتما إلى مقره. ويرحم الله ابن القيم حين قال:

وحــى علــى جنــات عــدن فإنهــا ::: منازلــك الأولــى وفيهــا مخــيم
وقــد زعمــوا أن الغريــب إذا نــأى ::: وشــطط بــه أوطانــه لــيس يــنعم
فمــن أجــل ذا لا يــنعم ســاعة ::: مــن العمــر إلا بعــد مــا يتــألم

فنحن جميعا على جناح سفر وكل مسافر سوف يعود يوما ما قرب أو بعد. ولقد صدق من قال:

ومــا هــذه الأيــام إلا مراحــل ::: يحــس بهــا داع إلــى المــوت قاصــد
وأعجــب شــيء لــو تأملــت أنهــا ::: منــازل تطــوى والمســافر قاعــد

فلله الأمر من قبل ومن بعد

* * * * *

من أخلاق المؤمنين: الاعتصام بالله

{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

الاعتصــام بالله

الاعتصام بالله هو خلق قرآنى كريم تردد فى كلام الله كما تردد فى أحاديث الرسول ﷺ... والاعتصام مأخوذ من العصمة وهى الحفظ والمنع. ومن ذلك قوله تعالى لرسول الله ﷺ:**{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}**(١) أى يحفظك ويمنعك.: «**وقد كان رسول الله ﷺ نائما تحت ظل شجرة وجاء رجل وأيقظه وقال: من يمنعك منى. فقال النبى ﷺ: الله. فارتعد الرجل وسقط السيف من يده**(٢) - فالعاصم هنا هو الله الذى حفظ نبيه من شر هذا الرجل... ومنه قول ابن نوح حينما ناداه نوح عليه السلام:**{قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المَاءِ}** " أى يحفظنى ويمنعنى. فقال سيدنا نوح عليه السلام:**{لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}** (٣) أى لامانع ولا حافظ.

وهذا الخلق الكريم سبب للحفظ والحماية لمن اتصف به فى الدنيا والآخرة. قال تعالى**{وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** (٤). وقال:**{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا}**(٥) ولاشك أن التمسك بالدين هو سبيل العصمة والحفظ وللمفسرين فى كلمة حبل(الله) التى أمرنا أن نعتصم به آراء تختلف فى ألفاظها ولكنها تتفق فى مضمونها والهدف منها: قال ابن عباس رضى الله عنه: تمسكوا بدين الله. قال ابن مسعود رضى الله عنه: هو الجماعة. وقال: عليكم بالجماعة فإنها حبل الله الذى أمر به. وأن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة وقال بعضهم: إنه الدين. وقال البعض الآخر إنه القرآن وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ صراحة أن حبل الله هو القرآن الكريم - روى ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال: «**إن هذا القرآن هو حبل الله. وهو النور المبين. والشفاء النافع. وعصمة من تمسك. ونجاة من تبعه**».

وعن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**هو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم. وهو الصراط المستقيم. وهو الذى لا تزيغ به الأهواء. ولا تختلف به الألسنة. ولا يخلق على كثرة الرد. ولا يشبع منه العلماء**».

والاعتصام بحبل الله تعالى سبب لرضا الله عز وجل عن عبده. وفى الموطأ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه**

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم (٦٧).
(٢) حديث صحيح.
(٣) سورة هود. الآيتان رقم (٤٢، ٤٣).
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (١٠١).
(٥) سورة آل عمران. الآية رقم (٣٠١).

ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم. ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال» (١).

والاعتصام بالقرآن الكريم يعنى التمسك بكل ما جاء فيه دون زيادة عليه ودون نقص منه. وألا نستبدل بأحكامه وشرائعه أحكاما وشرائع أخرى. وإلا كنا من الذين قال الله عز وجل فيهم:**{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}** (٢) .

وما هانت أمتنا وذلت إلا بعد أن هان عليها كلام ربها وأدارت رأسها هنا أو هناك. ففقدت بذلك خير معتصم يمكن أن يعتصم -**{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}**(٣) إنه يهدى للحياة الفاضلة فى الدنيا والآخرة. ففى الدنيا يضمن لهم السيادة والشرف والرفعة. وفى الآخرة يضمن لهم الخلود الأبدى فى جنة عرضها السموات والأرض فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن أجدادنا لم يملكوا الدنيا لأنهم أكثر عددا. ففى الغزوات كان المشركون أضعاف أضعاف المسلمين ومع ذلك انتصرت القلة المؤمن المعتصمة بكتاب الله سبحانه وتعالى على الكثرة الكثيرة التى لا تؤمن بهذا الكتاب الذى أكرمنا الله عز وجل به... ولم يكن أجدادنا أكثر عدة. فقد كان أعداؤهم أضعاف أضعاف ما فى أيديهم. غير أن إيمانهم بربهم واعتصامهم بحبله جعلهم إن قصرت سيوفهم أطالوها بأيديهم فلم تخطىء رقاب أعدائهم فتم لهم الفوز ولم يكن أجدادنا أيضا أكثر أموالا ونفقت فى الحرب. ولكن الله أغناهم عن المتاع الزائل فكان إيمانهم فى قلوبهم وتمسكهم بسنة نبيه ﷺ نعم الغنى. ونظرة إلى حال المسلمين اليوم وقد ابتعدوا عن دينهم وقرآنهم تريك كيف أنهم لم ينقصوا من مال ولم ينقصهم العدد والعتاد أمام أعدائهم. ومع ذلك فالهزائم تتوالى عليهم وتتكالب عليهم القوة الخارجية كما تتكالب الأكلة إلى قصعتها ونحن كثير ولكن غثاء كغثاء السيل لا قوام له ولا تماسك فيه. فقد أصبحنا نحب الدنيا ونكره الموت - احرص على الدنيا توهب لك الحياة.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٦١).
(٣) سورة الإسراء. الآية رقم (٩).

أنواع الاعتصام

والاعتصام نوعان:

١ - اعتصام بالله. ٢ - اعتصام بحبل الله.

وقد اجتمعا معا فى قولـه تعالى:**{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا}**. [١]

والاعتصام بالله يعنى الالتجاء إليه والحماية به. فلا سؤال إلا منه. ولا اعتماد إلا عليه. ولا توجه إلا لـه... وهذا يعطى العقيدة صفاء ونقاء. وإذا تحقق ذلك من العبد فإن الله عاصم من اعتصم بـه**{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}**[٢] فيقيه شر الشبهات والشهوات. ويقيه شر عدوه الظاهر والباطن وشر نفسه وبذلك يدفع عنه (قدره بقدره وإرادته بإرادته ويعيذه به منه)[٣]. وما أكثر أعداء الإنسان الذين يبغوها شرا والويل لـه إن اتبعهم...

إنـــــى بليـــــت بـــــأربع ترميننـــــى ::: بالنبـــل قـــد نصـــبت علـــى شـــراكا

إبلـــيس والـــدنيا ونفســـى والهـــوى ::: مـــــن أرجـــوا بيـــــنهم فكاكـــــا

يـــارب ســـاعدنى بفضـــلك إننـــى ::: أصـــبحت لا أرجـــو لهـــن ســـواكا

أما إبليس اللعين فقد أقسم أمام ربه وأمام الملأ الأعلى من المقربين وأمام آدم نفسه فقال:**{فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ}** [٤]. والمخلصون هم المعتصمون بالله اللائذون بحماه. وهيهات هيهات أن يغويهم شيطان أو يتمكن منهم الشيطان وساعد فى التبرير لارتكاب الجريمة. ولكن يوسف المعتصم بالله لم تلن لـه قناه ولم يمل قط لارتكاب الفاحشة وهذا شأن المعتصم بالله. وكما حكى القرآن الكريم قالت امرأة العزيز أمام النسوة:**{وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}**[٥]. فيوسف اعتصم بالله

---

(١) سورة آل عمران. الآيات أرقام (١٠١، ١٠٢، ١٠٣).

(٢) سورة الحج. الآية رقم (٣٨).

(٣) مدارج السالكين. الجزء رقم (١). صفحة رقم (٤٩٧).

(٤) سورة ص. الآيتان رقم (٨٢، ٨٣).

(٥) سورة يوسف. الآية رقم (٣٢، ٣٣، ٣٤).

من الوقوع فى المعصية فعصمه الله وصرف عنه كيد النسوة وكذلك الدنيا بما فيها من زينة ومتاع وشهوات قد تغرى الإنسان بالارتماء فى أحضانها. ولكن المعتصم بالله تكون الدنيا فى خدمته وكيف لا تكون والأمر الإلهى جاء لها فى الحديث القدسى - الذى معناه: **«يا دنيا.. من خدمنى فاخدميه. ومن خدمك فاستخدميه»**.

فالذى يصبح والدنيا أكبر همه شتت الله شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله لـه[١] لقد وقع ثعلبة بن حاطب فى طاحونة حب الدنيا والمال حتى ابتعد عن الصلاة مع رسول الله ﷺ فى المسجد ومنع الزكاة. ولو أنه اعتصم بالله ووفى بعهده معه لنجا -**{وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}** [٢].

لذلك كان الإمام على رضى الله عنه يقبض على لحيته ويقول: يا دنيا غرى غيرى.. إلي تشوقت أم إلي تعرضت.. هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها. ونحب أن ننبه إلى أنه ليس معنى ذلك أن المؤمن يولى ظهره إلى الدنيا فيقعد كسلان فى مسجد أو قابعا فى محراب. ولكن الذى نقصده أن يعتصم المؤمن بربه فلا توقعه الدنيا فى حبائلها وشراكها فتستولى على قلبه. فالدنيا فى يد المؤمن وليست فى قلبه. والنفس أيضا من الأعداء فمن أطاع نفسه وأعطاها كل ما تشتهى ولم يوقفها عند حدود الله ولم يعتصم من شرها فإن النتيجة - والعياذ بالله - سيئة**{وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي}** [٣]... وكذلك الهوى الذى يزين المعصية ويحببها حتى يرتكبها وما أقصى تسلط الهوى على الذى لا يعتصم بربه قال تعالى:**{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}**[٤]. إلى هذا الحد قد يعبد الإنسان هواه وقد يتسلط الهوى عليه؟!! والمعصوم من عصم الله.

والنوع الثانى: الاعتصام بحبل الله تعالى هو التمسك بكل ما جاء فى القرآن الكريم اعتقاداً وعملاً وسلوكاً فيعرض المعتصم نفسه دائما على كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ فلا مجال لزيادة ولا

---

(١) أكد رسول الله هذا المعنى فى حديثه الشريف الذى رواه الطبرانى وابن ماجة ورواته ثقات أن رسول الله قال: (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب لـه. ومن كانت الآخرة نبته جمع الله لـه أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة.

(٢) سورة الأنعام. الآيتان رقم (٧٦، ٧٧).

(٣) سورة يوسف. الآية رقم (٥٣).

(٤) سورة الجاثية. الآية رقم (٢٣).

نقص. فقد أكمل الله الدين وأتم النعمة**{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً}** (١) فحركات المسلم وسكناته لله**{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** (٢) - فالمسلم بذلك يصل إلى درجة الاحتساب المشار إليها فى مثل قول النبى ﷺ: **«من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له. ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له»** (٣)... ولقد أحسن من عرف التقوى بقوله: هى العمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله. وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

وخلق الاعتصام يعنى التمسك بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تمسكاً يدل على التسليم المطلق والرضا التام بكل ما جاء فيهما. ففى مجال العقيدة مثلا يكون المعتصم بالله ثابت القلب مطمئن الفؤاد إلى الله هو الله الواحد الأحد لا شريك له. وهو المتصف بكل كمال. والمنزه عن كل نقص. فلا يحمد إلا هو ولا يستعين إلا به... وفى الحديث القدسى: **«إنى والإنس والجن فى نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى، خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلى صاعد»**.

وفى حديث آخر: **«ابن آدم.. ما أنصفتنى. خيرى إليك نازل وشرك إلي صاعد. أتحبب إليك بالنعم وأنا عنك غنى وتتبغض إلي بالمعاصى وأنت فقير إلي. ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بكل قبيح»**. وفى حديث ثالث: **«يابن آدم.. ما من يوم جديد إلا يأتيك من عندى رزق جديد وتأتى عنك الملائكة بعمل قبيح. تأكل رزقى وتعصينى. وتدعونى أستجب لك وتسألنى فأعطيك. وأنا أدعوك إلى جنتى فتأبى. وما هذا من الإنصاف»**. وهذه العقيدة يجب ألا يتطرق إليها الشك -**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}** - ولا تكون العبادة حتى على سبيل الاحتياط بمعنى أن الإنسان قد يقول مثلا: العذاب فى الآخرة نار وقودها الناس والحجارة. ومن ذا الذى يقدر على ذلك؟ فأنا أتمسك بالعقيدة والأخلاق لأنجوا من هذه النار إذا كان ذلك حقا. وإذا لم يكن كذلك فما خسرت شيئا!! وذلك كما قال القائل:

زعم المنجم والطبيب كلاهما ::: لا تبعث الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر ::: وإن صح قولى فالبوار عليكما

---

(١) سورة المائدة. الآية رقم (٣).
(٢) سورة الأنعام. الآيتان رقم (١٦١، ١٦٢).
(٣) رواه البخارى.

فهو يريد أن يقول أن الملاحدة ينكرون البعث. فإن صح ما قالوه فلم يخسر شيئا أما إذا كان هناك بعث فإن الخسارة الحقيقية عليهم فإن كان هذا هدف الشاعر فعبدالله كما نقول من باب الاحتياط فعقيدته غير صحيحة. ولا يصح للمسلم أن يعبد ربه من باب الاحتياط بل يعبده على سبيل الحق واليقين والاعتقاد الجازم -**{كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ}**[١]. ولنرجع إلى القرآن الكريم لنرى أن الله قد ذكر ثواب المعتصمين فى قوله تعالى:**{إِنَّ المُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ المُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً}**[٢].

فأنت ترى أن الله قد توعد المنافقين بأنهم فى الدرك الأسفل من النار. وليس هناك من ينصرهم ولا من يشفع لهم أما إن تاب بعضهم عن النفاق وأصلح عمله واعتصم بربه وبحبله. فقد خلعوا أنفسهم من صفات المنافقين وعادوا مرة أخرى رحاب الإيمان وجماعة المؤمنين وسوف يؤتيهم الله أجرا عظيما.

وهل هناك أعلى من الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين - وفيها يسلم الله عليهم ويحل عليهم رضوانه ويرفع عنهم الحجاب فيرونه. ألا يستحق هذا الثواب الجليل أن يخلع الإنسان نفسه من ربقة النفاق وقيوده؟ وفى سورة النساء نقرأ قول الله تعالى**{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً}** [٣] فأنت ترى أن الله قد وعد المؤمنين المعتصمين بالرحمة والفضل والهداية إلى الصراط المستقيم وقد تفسر الرحمة بالجنة كما فى قوله تعالى**{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ}**[٤] أى جنته. والفضل هو الزيادة التى يمن الله بها عليهم فى دار رحمته وكما قال تعالى:**{لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** [٥]. والصراط المستقيم هو التوفيق فى الاستمرار على الإسلام. ونحن نردد فى صلواتنا كل يوم:**{اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ}**[٦]. فالمعتصمون بالله موفقون مهديون إلى التمسك بالإسلام. وفى سورة الحج نقرأ قوله تعالى:**{وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ**

---

(١) سورة التكاثر.
(٢) سورة النساء. الآيتان رقم (١٤٥، ١٤٦).
(٣) سورة النساء. الآية رقم (١٧٥).
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (٧١).
(٥) سورة ق. الآية رقم (٣٥).
(٦) سورة الفاتحة. الآية رقم (٦).

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} (١)

نسأل الله أن يرزقنا الاعتصام به والعمل لـه والاعتماد عليه إنه على ما يشاء قدير.

* * * * *

(١) سورة الحج. الآية الأخيرة.

من أخلاق المؤمنين:

السكينة

قال ابن مسعود: "السكينة مغنم وتركها مغرم"

السكينــة

السكينة من نعم الله على عباده السكينة النفسية التى ينعم بها على المؤمنين الذين تمتلىء قلوبهم بالإيمان الصادق**{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}** (١). وقال عز من قال:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** (٢).

وقد ورد لفظ السكينة فى القرآن الكريم ست مرات: مرة فى سورة البقرة(٣). ومرتان فى سورة التوبة (٤). وثلاث مرات فى سورة الفتح... (٥) وكلمة السكينة مأخوذة من السكون وهو ضد الحركة. فسكينة القلب تعنى هدوءه وبعده عن القلق والحيرة. والإنسان فى هذه الحياة يتعرض لمواقف يضطرب منها قلبه ويتزلزل فؤاده. فى هذا الوقت ينزل الله سكينته على من يشاء من عباده. فتطمئن القلوب بعد قلق وتسكن بعد اضطراب. ويشعر المرء بعدها بالأمن يملأ حناياه ويبدد ظلام الشك فتستنير نفسه ويعرف طريقه. وفى حياة الرسول ﷺ مواقف تعرض فيها لمواقف كثيرة إلا أن الله أنزل سكينته عليه وعلى من معه فاطمئنت القلوب وسكنت. ومن ذلك:

١- ليلة الهجرة... ولك أن تتخيل فقط ما حدث لتعلم أن مكة كلها ائتمرت برسول الله ﷺ واختارت من كل قبيلة فتى شاباً جلداً وأعطوه سكيناً صارماً ثم أمروا هؤلاء الشبان إن هم رأوه ﷺ أن يضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ ليتفرق دمه فى القبائل. إلا أن الله أعمى أبصارهم وبصائرهم وخرج رسول الله ﷺ دون أن يشعروا به. واختبأ هو وأبو بكر - رضى الله عنه - فى غار ثور. وجاء قريش بقصاص الأثر وتتبعوا الآثار حتى وقفوا عند فم الغار. وتخيل أنت لو أن المشركين ظفروا برسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه ماذا يكون مصيرهما؟ بل ماذا يكون مصير الإسلام والمسلمين؟ وتجول هذه المعانى فى رأس أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول: يا رسول الله.. لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا. ولم يضطرب رسول الله ﷺ فالله سبحانه وتعالى أنزل سكينته عليه فأنطقته هذه السكينة الربانية بقوله ﷺ ما معناه: **«ما ظنك باثنين الله ثالثهما.. لاتخف إن الله معنا»**. قال تعالى:**{إِلاَّ تَنصُرُوهُ**

---

(١) سورة الرعد. الآية رقم (٢٨).
(٢) سورة الأنعام. الآية رقم (٨٢).
(٣) آية البقرة الوارد فيها لفظ السكينة هى الآية رقم (٢٤٨).
(٤) سورة التوبة. الآيتان رقم (٢٦، ٤٠).
(٥) سورة الفتح. الآيات أرقام (٤، ١٨، ٢٦).

فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} [١]. ولاحظ كلمة (فأنزل) إنها تدل على أن السكينة من عند الله فهى إذا هبة ربانية وعطاء إلهى ينزله الله على قلب من يشاء من عباده فيسكن ويطمئن.

٢- فى غزوة حنين وقد وقعت هذه الغزوة فى شوال سنة ثمان بعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجاً. وساء ذلك قبيلة هوازن فجمعوا جموعهم لقتال رسول الله ﷺ - وكان مع النبى ﷺ اثنا عشر ألفاً. عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار - وهم الذين كانوا معه فى فتح مكة - وألفان من الذين أسلموا حديثاً. وهذا العدد الكثير أصاب البعض بالغرور حتى قال قائلهم: لن نهزم اليوم من قلة... وسار هذا الجيش ومر بوادى حنين - وهو طريق بين الجبلين - وكان المشركون قد احتلوا أعالى الجبال.

ومع أول ضوء من النهار والمسلمون غير مستعدين للقتال انهمرت السهام من المشركين - وهم متحصنون بالجبال - على المسلمين فثارت الخيول وجفلت بسرعة وتبعتها الإبل. وكانت الخيول والإبل تطأ المسلمين ففر الذين أسلموا حديثا مما ألقى الرعب فى قلوب المسلمين ففروا لا يلوون على شيء.

غير أن رسول الله ﷺ أنزل الله سكينته عليه وعلى الذين ثبتوا معه - وكانوا مائة أو ثمانين رجلا.. وصار ﷺ ينادى بأعلى صوته: (أن النبى لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب) وفى ذلك خطورة عليه ﷺ فقد تصوب سهام المشركين نحوه - وكان ﷺ يركب بغلة وليس حصانا - فكان يرقد بالبغلة نحو المشركين. وأمر العباس أن ينادى فى المسلمين حتى ثابوا إليه.

ونظم النبى ﷺ صفوفهم وكروا على أعدائهم ونصرهم الله تعالى. واسمع إلى قول الله تعالى حين يقول:**{وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى المُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا}** [٢]. وتأمل أيضا قول الله:**{ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ}** لتدرك ما سبق أن قررناه من

---

(١) سورة التوبة. الآية رقم (٤٠).

(٢) سورة التوبة. الآيتان رقم (٢٥، ٢٦). وكانت نهاية المعركة نصرا من الله للفئة المؤمنة الواثقة بنصر الله بعد أن أمدها الله بجند من ملائكته... وكانت الغنائم: السبى ستة آلاف رأس. والإبل أربعة وعشرون ألفا. والغنم أكثر من أربعين ألف شاة. وأربعين ألف أوقية من الفضة... وكان من ضمن السبى الشيماء بنت الحارث أخت الرسول من الرضاعة فلما رآها النبى عرفها وأكرمها وردها إلى قومها - بتصريف من

أن السكينة نعمة من الله ينزلها على قلب من يشاء. وقد أنزلها يوم حنين على قلب الرسول ﷺ وقلب المؤمنين الذين كانوا معه.

٣- من المواقف العصيبة أيضا يوم الحديبية... حيث خرج الرسول ﷺ لأداء العمرة وخرج المسلمون معه لنفس الغرض. ولم يحملوا معهم أدوات قتال وإنما ساقوا الهدى. وأبت قريش إلا أن تصدهم وخرجت بقضها وقضيضها. ورغب النبى الرحيم بأمته أن يحقن الدماء وأرسل عثمان بن عفان يخبر قريشا أنه ما جاء لقتالهم وإنما جاء لأداء العمرة. غير أنهم حبسوا عثمان وأشيع بين المسلمين أن عثمان قد قتل.

فى هذا الجو المشحون المتوتر الذى ينذر بصادمٍ وشيك بين زوار البيت الحرام وبين المشركين الذين يأخذون أهبتهم واستعدادهم للقتال يبايع النبى ﷺ أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة. ويجعل يدا كريمة عنه والأخرى كريمة عن عثمان وينزل الله سكينته على هؤلاء فقال تعالى:**{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً}** (١).

ويتم صلح الحديبية بعد أخذ ورد من المسلمين لأن شروط الصلح كانت فى الظاهر مجحفة. فقد أبى المشركون أن يكتبوا (الرحمن الرحيم) وأبوا كذلك أن يصفوا رسول الله بأنه رسول الله. وأنهم لا يردون من جاءهم من المسلمين لكن المسلمون يردونه. فأنزل الله سكينته عليهم فاستغفروا ولم يشذوا عما فعله النبى ﷺ ولاحظ أيضا الفعل (أنزل) الذى يدل على أن السكينة عطاء إلهى ينزله على من يشاء من عباده(٢).

والسكينة عنصر مهم جداً فى مواجهة الشدائد وبخاصة فى الحروب. لذلك نرى عبدالله بن رواحة رضى الله عنه يدعو ربه أن ينزل عليه وعلى من معه فى المعركة السكينة وأن يثبت أقدامهم فقال:

الرحيق المختوم.

(١) سورة الفتح. آية رقم (١٨).

(٢) خرج النبى من المدينة نحو مكة يوم الاثنين غرة ذى القعدة سنة ٦ هجريا ومعه زوجه أم سلمة وألف وأربعمائة من أصحابه بدون سلاح. كانت شروط الصلح كالتالى:

أ - يرجع الرسول من عامه فلا يدخل مكة ويأتيها العام القادم.

ب - أن توضع الحرب بين الطرفين عشر سنين.

ج - من أحب أن يدخل فى عقد مع محمد وعهده دخل فيه. ومن دخل فى عقد مع قريش وعهدهم دخل فيه.

د - من أتى الرسول من قريش مسلما بدون إذن وليه رده إليهم. ومن جاء قريشا ممن اتبع الرسول لا يردونه إليه.

اللهـــم لـــولاك أنـــت مـــا اهتـــدينا ::: ولا تصـــــــــدقنا ولا صـــــــــلينا
فـــــأنزلن ســــــكينة... علينـــــا ::: وثبـــــت الأقـــــدام أن لاقينـــــا
إن الأولـــــى بغـــــوا... علينـــــا ::: إذا أرادوا فتنـــــــــة أبينـــــــا

والنبى ﷺ موصوف فى الكتب القديمة بالسكينة... فقد وصف بأنه: (ليس بفظ ولا غليظ. ولا صخاب فى الأسواق. ولا يتزين بالفحش. ولا قوال للخنا. وأهب لـه كل خلق كريم. ثم أجعل السكينة لباسه. والبر شعاره. والتقوى ضميره). إن الحياة مع القلق والاضطراب جحيم لا يطاق وهى بذلك مصدر شقاء وتعاسة. لكن الحياة مع السكينة تشعر النفس بالسعادة. إن الحياة بلا سكينة ليس لها طعم مهما كان الثراء والغنا ووسائل الترفيه. فالغرب مثلا لا ينقص ساكنيه ترفيه ولا مال ولا لذات ولا شهوات. بل كل هذه الأشياء سهلة ميسرة لمن أرادها. ومع ذلك يوجد بينهم الاكتئاب والعقد النفسية والانتحار. والانغماس فى الادمان والجنس - وما يتبع ذلك من الأمراض الخبيثة - والسبب طبعا عدم طمأنينة القلب. وصدق ربنا إذ يقول:**{وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً}** - هذا فى الدنيا - وفى الآخرة:**{وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى}**(١). أما صاحب القلب الساكن بتوفيق الله فهو راض بكل ما يقضيه الله تعالى لـه وما يقدره عليه. لا تزيده النعماء إلا شكرا ولا تزيده إلا صبرا. فهو راض فى الحالين بعكس غيره الذى تتطيره النعمة وتضجره النقمة. قال تعالى:**{إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى}** (٢). وقال أيضا:**{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ}**.

---

(١) سورة طه. الآيتان رقم (١٢٤، ١٢٥).
(٢) سورة العلق. الآيتان رقم (٦، ٧).

مميزات السكينة

١- سكون الخائف... فمتى استشعر الإنسان أن الله لا رد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا يقع فى ملكه إلا ما أراد اطمئن وسكن:**{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}** (١).

ورسول الله ﷺ يقول لابن عمه عبدالله بن عباس رضى الله عنه: **«واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. جفت الأقلام وطويت الصحف»** (٢) وقد ضربنا أمثلة من تاريخ الرسول ﷺ والمسلمين معه فى أوقات الحروب وكيف كانوا مطمئنين بفضل سكينة الله التى تنزلت عليهم.

والخليل إبراهيم عليه السلام يرى النار مشتعلة يتطاير شرارها ويرتفع لهيبها ويتأجج جحيمها وينزل عليه جبريل ويسأله: ألك حاجة؟ فيقول عليه السلام: علمه بحالى يغنى عن سؤالى، ولو أن إنسان عاديا بلا سكينة لمات من شدة الخوف قبل أن يلقى فى النار.

والكليم موسى عليه السلام يدركه فرعون ويقول من معه:**{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}** (٣). ففرعون بكل جبروته وطغيانه وجنوده بكل ما معهم من الأسلحة. وراءهم ويقتربون منهم فلم يزد موسى عليه السلام الذى أنزل الله سكينته عليه إلا أن قال:**{كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}**(٤)... فأى سكينة هذه التى تملأ قلوب الأنبياء وقلوب المؤمنين وابن تيمية كان يقول: ما يصنع أعدائى بى أنا جنتى وإيمانى فى صدرى أينما رحت فهى معى. إن حبسونى فحبس خلوة. وإن أخرجونى من بلدى فخروجى سياحة. و إن قتلونى فقتلى شهادة فى سبيل الله، إن فى صدرى كتاب الله وسنة رسوله، ومن كان الله معه فمم يخاف؟

٢- تسلى الحزين... إن صاحب القلب الذى لا تشع فيه أنوار السكينة قلب كريشة فى مهب الريح تطيرها الريح أينما تحركت؛ لأنه مربوط بأشياء متغيرة فهو متغير مثلها. مرتبط بالمال

---

(١) سورة الأنعام آية رقم (٥٩).
(٢) الحديث بمعناه رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٣) سورة الشعراء آية رقم (٦١).
(٤) سورة الشعراء آية رقم (٦٢).

مثلا يفرح إذا جاء ويأسى إذا فقد: والله يقول:**{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}**. إن بعضهم قد يصاب بإغماء أو جلطة أو تصلب شرايين أو ضغط أو ما شابه إذا هزم فريقه الذى يشجعه ويتعصب لـه. وقد شاهدت كثيرا من المدربين لكرة القدم فى أثناء المبارا ة بمضغ (لبانة) ولما سألت عن سر ذلك قيل إن هذا نوع من استفراغ الطاقة والانفعال. إنـه يضع كل همه فى (اللبانة)**!!**

لكن المؤمن صاحب القلب الساكن بسكينة الله لا يربط نفسه إلا بالله يدور مع أوامره ونواهيه حيث دارت ولا يعنيه إلا أن يرضى ربه عنه.

فليتــك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة ::: وليتـــك ترضـــى والأنـــام غضـــاب
وليــت الــذى بينــى وبينــك عــامر ::: وبينـــى وبـــين العـــالمين خـــراب

قال رجل لامرأته: لأشقينك. فقالت لـه: إن سعادتى فى إيمانى. وإن إيمانى فى قلبى. ولا سلطان لأحد على قلبى إلا الله... حتى إذا شكا صاحب البلوى لم يشك إلا لله كما قال يعقوب عليه السلام**{إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ}**(1). وقال رسول الله ﷺ حينما عاد من الطائف: **«اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس»**.

٣- ومن ثمرات السكينة أنها تحول بين المؤمن وبين معصية الله؛ لأن القلب الساكن يطمئن إلى وعد الله وحسن مثوبته ويشعر حينئذ بحلاوة العبادة ولذة المناجاة. يقول النبى ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»** (2) فمن جمع هذه الصفات شعر بحلاوة الإيمان... وقال أحد العابدين: نحن فى لذة لو شعر بها الملوك لقاتلونا عليها بسيوفهم.

هذه بعض ثمار السكينة... فلنذكر بعض الثمار المرة للقلق والحيرة اللذين يصيبان القلب البعيد عن الله فنقول: يقول الأطباء: إن نسبة الكولسترول تزيد بنسبة خمسة وعشرين بالمائة فى نصف ساعة إذا تعرض الجهاز العصبي للإثارة (3). والكولسترول يسبب تصلب الشرايين وجلطة القلب وجلطة المخ. ولقد حذرنا رسول الله ﷺ حينما قال: **«لا تغضب.. لا تغضب»...** ولقد أجرى التجارب على الجنود الأمريكيين الذين حاربوا فى فيتنام فى أثناء الغارات التى كان

---

(١) سورة يوسف آية رقم (٨٦).
(٢) حديث متفق عليه وهو من رواية أنس رضى الله عنه
(٣) منبر الإسلام عدد يناير ١٩٩٥ صفحة رقم (٩٨).

يشنها الجنود الفيتناميون فوجدت نفس النسبة.

ويبقى سؤال: إذا كانت السكينة من الله ينزلها على من يشاء من عباده. فكيف نتعرض لنزول هذه السكينة والجواب أنا أقوله في:

١- إن الاجتماع على ذكر الله سبب لنزول هذه السكينة. قال رسول الله ﷺ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»** [1]... فاجلس في بيت ربك في وقت فراغك واستمع إلى دروس العلم أو اتل القرآن الكريم فإنك حينئذ أهل لأن تتنزل عليك السكينة. ويقول الله تعالى:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ}** [2]... فبذكر الله تطمئن القلوب الحائرة وتسكن النفوس القلقة وتنشرح الصدور الضيقة. والبعد عن ذكر الله تعالى يجعل الإنسان عرضة لأن يتسلط عليه الشيطان كما قال الله تعالى**{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}** [3].

٢- التمسك بالإيمان... فذلك يهب القلب أمنا وطمأنينة وسكينة. قال تعالى:**{فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [4] يروى أن رسول الله تلا هذه الآية فقال: **«إذا دخل الإيمان القلب انفسح له القلب وانشرح. قالوا: يا رسول الله: هل لذلك أمارة؟ قال: نعم... الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل الموت».**

وقال تعالى:**{أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ}**[5]. وقال:**{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [6].

* * * * *

---

(١) حديث شريف رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة.
(٢) سورة الرعد الآيتان رقم (٢٨، ٢٩).
(٣) سورة الزخرف آياتان رقم (٣٦، ٣٧).
(٤) سورة الأنعام آية رقم (١٢٥).
(٥) سورة الزمر آيةرقم (٢٢).
(٦) سورة الحجرات. آياتان رقم (٧، ٨).

من أخلاق المؤمنين:
الخشوع

{وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ}

الخشـــوع

الخشوع صفة من صفات المؤمنين الصادقين تجعلهم موضع الفوز والفلاح قال تعالى:**{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}** [١]. والخشوع فى لغة العرب يعنى السكون والانخفاض. يقال: خشع الرجل إذا نظر إلى الأرض. ويقال عن الأرض التى لم ينزل عليها الماء أنها أرض خاشعة لأنها تكون يابسة وليس لها بهجة الأرض الخضراء. وعلى ذلك جاء قوله تعالى:**{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ}** [٢]. فأنت ترى أنه وصف الأرض حين ينزل الماء عليها بالحركة والزيادة و إخراج النبات. أما الأرض التى لم يحدث لها ذلك فهى أرض خاشعة وهى التى تتصف بعكس ذلك.

ويقول علماء الأخلاق: إن الخشوع حالة يتصف بها قلب المؤمن فيظهر أثرها على الجوارح فإذا خشع القلب سكنت الجوارح.. وانظر إلى هيئة مصل خاشع لله. إنك تراه ينظر إلى محل سجوده واقفا. وبين قدميه راكعا. وإلى أنفه ساجدا. وإلى حجره جالسا - وهذا مظهر من مظاهر السكون والخشوع. وهذا المصلى الخاشع لا يتحرك إلا عند الضرورة القصوى أما الذى يعدل ثيابه ويعبث بلحيته أو شاربه. أو يلتفت يمينا أو يسارا أو يزيغ بصره إلى هناك فلا يقال عن مثل هذا أنه خاشع. ويدل على ذلك أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: **«لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»** فهذا الحديث الشريف الذى جاء فى هذا الموقف يدلك على أن الخشوع محله القلب ولكن أثره يظهر على الجوارح سكونا ووقارا وثباتا.

قال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب[٣] ورأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلا يطأطيء رقبته فقال: يا هذا ليس الخشوع فى الرقاب.. وقال حذيفة: إيكم وخشوع النفاق وهو أن نرى الجسد خاشعا والقلب ليس بخاشع وتلك صفة يحسها الإنسان بنفسه من نفسه. فإذا لم يجد خشوعا فى قلبه ولكنه يظهر بمظهر الخاشع فى سمته وهيئته فليعلم أن ذلك ليس خشوعا ورأت أم المؤمنين عائشة شبابا يمشون متماوتين بطاء الحركة فعلقت على هيئتهم بقولها: كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع. وإذا قال أسمع. وإذا ضرب أوجع. وإذا أطعم أشبع. وكان هو الناسك حقا، وقال إبراهيم النخعى: ليس الخشوع بأكل الخشن ولبس الخشن وتطأطؤ الرأس: لكن الخشوع أن ترى الشريف والدنيء فى الحق سواء: وتخشع لله فى كل فرض افترضه

---

(١) سورة المؤمنون. الآية رقم (١).
(٢) سورة فصلت. الآية رقم (٣٩).
(٣) أخلاق القرآن. الجزء رقم (١) الصفحة رقم (١٧٢).

عليك[١].

ولقد عاتب الله سبحانه وتعالى بعض المؤمنين الذين قل الخشوع فى قلوبهم لما أصابوا بعض الترف بقولـه عز وجل:**{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحَقِّ}**.. [٢] فالقلب الخاشع يخشع ويذل بين يدى الله سبحانه وتعالى عند ذكر الله وعند قراءة القرآن. فالمؤمن حينما يذكر جلال الله وعظمة الله يخشع قلبه. وهذا حاله أيضا عند سماع القرآن أو عند قراءته... ثم تتحدث بقية الآية عن أهل الكتاب الذين قست قلوبهم ولم تخشع فأصابهم الفسق. قال تعالى:**{وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}**.

ولأهمية الخشوع أنه داء وصفا لأنبياء الله تعالى فقال الله عز وجل:**{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}**[٣]. وجاء الخشوع أيضا وصفا للذين أسلموا من أهل الكتاب فقال تعالى:**{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ}** [٤]. وجاء وصفهم فى أية أخرى بأنهم:**{تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ}** [٥].

وإذا كان الكافرون والمنافقون قد قست قلوبهم ولم تخشع فى الدنيا فإن الخشوع بمعنى الذل والمهانة والحسرة سيلحقهم رغما عنهم فى الآخرة. فهو خشوع المجرم الجانى وليس خشوع العابد المبتهل فى محرابه: وقد جاء هذا المعنى فى أكثر من آية فى القرآن الكريم فقال تعالى عنهم:**{يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ}** [٦]فهؤلاء العصاة الذين أضاعوا أعمارهم فى الدنيا فى الكأس والطاس والعرى والعهر والفحش ونفورهم من كل معنى نبيل وخلق كريم سيجيبون الداعى إلى البعث والنشور رغما عنهم ذليلين: ويظهر ذلهم فى أعينهم المنكسة إلى الأرض من هول ما ينتظرهم قائلين: هذا يوم عسر

---

(١) أخلاق القرآن. الجزء رقم (ا). الصفحة رقم (١٧٢).
(٢) سورة الحديد آية رقم (٦).
(٣) سورة الأنبياء. الآيتان رقمـ (٨٩، ٩٠).
(٤) سورة آل عمران. الآية رقم (١٩٩).
(٥) سورة المائدة. الآية رقم (٨٣).
(٦) سورة القمر. الآيتان رقم (٦، ٧).

كما قال ربنا عز وجل:**{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}** (١).

وقال تعالى:**{يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}** (٢). فالكافرون حين يشتد كربهم لما يعانون من هول النار وغضب الجبار لا يستطيعون السجود حين يطلب الله عز وجل منهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يسلب منهم المقدرة على ذلك وهنا تظهر حسرتهم وتنكس أبصارهم وهذا جزاء تكبرهم عن السجود فى الدنيا وكانت أعضاؤهم تستجيب لهم لو أنهم فعلوا. ويقول الله تعالى:**{قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}** (٣) فقد وصف الله قلوبهم بالاضطراب والخوف وبأن أبصارهم ذليلة... ونفس هذا الوصف للكافرين فى قوله تعالى:**{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}**(٤) وهذه الوجوه هى وجوه الكافرين بدليل قوله تعالى بعد ذلك:**{عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً}** (٥). ثم وصف وجوه المؤمنين لتتم الموازنة بين عقاب الكافرين وثواب المؤمنين فقال تعالى:**{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** (٦)

ومن خلال هذا العرض نستطيع أن نقول: إن الذى يخشع لله سبحانه وتعالى فى الدنيا يبعثه الله راضيا مرضيا عنه. أما هؤلاء الذين لم تخشع قلوبهم فى الدنيا فهم الذين يبعثون منكسى الرءوس خاشعى الأبصار.. وهذا هو الجزاء العادل كما ورد هذا المعنى فى حديث قدسى شريف: **«لا أجمع على عبدى خوفين ولا أمنين. فمن خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة. ومن أمننى فى الدنيا أخفته فى الآخرة»** (٧). ومن أجل المواقف التى يظهر فيها الخشوع هو موقف المؤمن فى صلاته بين يدى ربه عز وجل؛ ولذلك جاء الخشوع فى الصلاة فى أول صفة المؤمنين المفلحين فى قوله تعالى**{قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ}** (٨)ثم

---

(١) سورة المدثر. الآيات أرقام (٨، ٩، ١٠).
(٢) سورة القلم. الآيتان (٤٢، ٤٣)... وقال جل شأنه فى سورة الشورى. الآية رقم (٤٥) مؤكدا ذل الكافرين فى الآخرة: (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) - وقال فى سورة المعارج. الآية رقم (٤٤): (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة).
(٣) سورة النازعات. الآيتان رقم (٨، ٩).
(٤) سورة الغاشية. الآيتان رقم (١، ٢).
(٥) سورة الغاشية. الآيتان رقم (٣، ٤).
(٦) سورة الغاشية. الآيات أرقام (٨، ٩، ١٠).
(٧) الحديث رواه بن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة.
(٨) أول سورة المؤمنين.

ذكر بعد ذلك بقية صفات المؤمنين والحق أن الخشوع فى الصلاة روح الصلاة وسر قبولها يقول ابن عباس رضى الله عنه: ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» [١]. ويقول النبى ﷺ: **«إن العبد ليصلى الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها»** [٢] وهذا الجزء هو الذى صلاة المصلى فى خشوع. أما الجزء الذى لم يكتب لصاحبه فإنه الجزء الذى صلاة بقلب مشتت أو بصر زائغ ولم يتحل بحلية الخشوع.

وهنا نسأل سؤال مؤداه هل الصلاة بدون خشوع مقبولة أم غير مقبولة؟ والجواب أنها غير مقبولة. وهل الصلاة بدون خشوع صحيحة أم فاسدة وتجب إعادتها مرة ثانية؟ والجواب: أن بعض العلماء مثل الإمام الغزالى قال بوجوب إعادة الصلاة التى يصليها الإنسان بدون خشوع. ولهم على ذلك أدلة نذكرها فيما يلى:

* قالوا: الصلاة كهدية تهدى إلى ملك من ملوك الدنيا. فلو أهديت إلى ملك شاة نافقة أو فاكهة فاسدة فهل يقبل الملك ذلك منك؟ إن عليك أن تبحث عن هدية أخرى تناسب قدر الملك... والصلاة بلا خشوع صلاة ميتة فكيف تظن أن تقع موقعا منه سبحانه وتعالى؟ فعليك أن تقدم صلاة أخرى خاشعة.

* لو ترك العبد ركنا من أركان الصلاة كالركوع والسجود فهل تقبل هذه الصلاة؟ الجواب لا. فنقول إذا كانت الصلاة لا تقبل بفقد ركن من أركانها فكيف تصح وقد فقدت ما هو أهم من أى ركن فيها وهو الخشوع.

* الصلاة تؤدى بالأعضاء حركات وسكنات وقولا بالتلاوة والذكر وبالقلب بالخشوع. والقلب من أهم الأعضاء فهو ملكها. و إذا صلح القلب صلح الجسد كله و إذا فسد فسد الجسد كله. فإذا تعطل القلب ولم يؤد عمله وهو الرئيس فلا قيمة لما تفعله بقية الأعضاء [٣].

---

(١) عن بلال بن رباح أنه أبصر رجلا لايتم الركوع ولا السجود فقال: لو مات هذا لمات على غير ملة محمد ﷺ.. رواه الطبرانى ورواته من الثقات.

(٢) الحديث بمعناه رواه النسائى بإسناد حسن عن أبى اليسر ورواه أبو داود عن عمار بن ياسر.

(٣) ذم أحد الشعراء غير الخاشعين فى الصلاة قائلا: التأكد من أصل الكتاب ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

تصل بلا قلب صلاة بمثلها ::: يكون الفتى مستوجبا للعقوبة
تظل وقد أتممتها غير عالم ::: تزيد احتياطيا ركعة بعد ركعة
تخاطب إياك نعبد مقبلا ::: على غيره فيها لغيره ضرورة
ولو رد من ناجاك للغير طرفه ::: تميزت من غيظ عليه وغيره
أما تستحى من مالك الملك ::: أن يرى صدودك عنه يا قليل المروءة؟

غير أن هناك رأيا آخر يرى أن الصلاة صحيحة وإن لم تكن مقبولة. فليس هناك ارتباط بين الصحة والقبول. والحديث القدسى ذكر بواجبات القبول بقوله: «**إنما تقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى. ولم يستطل على خلقى. ولم يبت مصراً على معصيتى. وقطع نهاره فى ذكرى. ورحم المصاب. ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى واستحفظه ملائكتى. ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة**» [(١)]. فأنت ترى أن بعض هذه الأشياء المذكورة فى الحديث لا علاقة لها بالصلاة. ونذكر بعض الأدلة على ذلك:

أن النبى ﷺ ذكر أن الشيطان قد يحول بين الإنسان وبين الخشوع لله ولم يأمر بإعادة الصلاة. وإنما أمر بسجود السهو فقال النبى ﷺ: «**إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى الآذان أقبل فإذا ثوب**[(٢)] **بالصلاة أدبر. فإذا قضى التثوب أقبل حتى يخطر بين المرء وبين نفسه يذكره ما لم يكن يذكر ويقول: أذكر كذا وكذا ما لم يكبر حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى**»[(٣)] .

أن النبى ﷺ كان يقبل علانية المنافقين ويكل سرائرهم إلى الله تعالى. وبكل تأكيد كان رسول الله ﷺ وسلم يعرف بعض المنافقين ومع ذلك لم يأمرهم بإعادة الصلاة معه والمؤمن غير الخاشع أفضل حالا من المنافق. وكذلك صلاة المرائى. [(٤)] وإذا كان الخشوع مطلوب فى الصلاة لأنه روحها فهو كذلك مطلوب عند سماع القرآن الكريم وعند الذكر الحكيم. فكما جاء فى الحديث الشريف: «**إن هذا القرآن نزل بحزن. فمن قرأه فليبكى أو يتباكى**». وليس من المعقول أو المقبول أن يفتح المسلم المصحف ليتلو بعض الآيات وقلبه لاه مشغول. وليس من الجائز أن نسمع الآيات التى يتحدث الله فيها عن الآخرة أو عن عقاب الأمم السابقة. أو عن بطشه بالعصا والمجرمين وأنت غير منصت لا يشغلك من التلاوة إلا ما قاله الشاعر:

---

(٢) الحديث رواه البزار عن ابن عباس. وفيه بعد " استحفظه ملائكتى ": " اجعل لـه الظلمة نزرا وفى الجهالة حلما.

(٢) يعنى أقام الصلاة.

(٣) الحديث رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة

(٤) عند هذا الحد انتهى كلام الشيخ - رحمه الله - لم يتم موضوع الخشوع فإنى أكمله بإذن الله.

وهمهم إذا يتلى جمال الصوت والنغم

قال تعالى{**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا القُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**} [١]. وقال تعالى{**وَإِنَّ مِنَ الحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ**} [٢]. فليس من اللائق أن تخشع الحجارة لكلام الله ويقسو قلب المسلم!! ولقد أثنى الله على المؤمنين فى القرآن الكريم بأنهم يخشعون عند سماع القرآن ويتدبرون فيه. ويقودهم هذا الإيمان والخشوع إلى السجود إلى عظمة البارئ قال تعالى:{**وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً**}. [٣] والخشوع الذى يظهره المسلم عند سماع كلام الله إنما هو مظهر من مظاهر الخشوع لـه فى الآخرة يوم تخرس الألسنة وترجف القلوب وتهتز المشاعر رهبة وخشية لجلال الموقف العظيم وسوء المصير. قال تعالى{**وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً**} [٤].

---

(١) سورة الحشر. الآية رقم (٢١).

(٢) سورة البقرة. الآية رقم (٧٤).

(٣) سورة الإسراء الآيات أرقام (١. ٦. ١. ٧. ١. ٨. ١. ٩). ؟؟؟؟؟؟؟؟

(٤) سورة طه. الآية رقم (١. ٨). ؟؟؟؟؟؟

ميزات الخشوع

١- إنه يسهل العبادة على الطائعين.. فلا يجدون فيها مشقة ولا نصبا بل يؤدونها بهمة عالية ونفس راضية. لأن الخشوع سيطر عليهم فأذل نفوسا ألفت التمرد وعدم الانصياع فباتت قانعة بأن ما عند الله خير وأبقى. قال الله تعالى:**{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** [(١)].

فلولا الخشوع لما تمرسوا الصبر وألفوه وجعلوه سفينة نجاة لهم. ولولا الخشوع لما اعتادوا الصلاة وحافظوا عليها كما أمرهم الله بقوله:**{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى}**.. فالخشوع هو الذى هون عليهم العبادة. فاستعانوا به على أدائها بالصورة التى ترضى الله ففازوا وخاب غيرهم من الذين كبرت عليهم الطاعة. وشقت على نفوسهم التى أبت الخشوع وباتت آنفة منه رافضة له وترجع الآية سبب خشوع المؤمنين إلى أنهم فكروا فى الآخرة فعلموا أنهم من لقاء الله على موعد قريب وأنهم راجعون إليه. تاركين وراءهم سعار الدنيا وجشع الشهوات. فخشعوا لله الواحد القهار فأعانهم الله على العبادة وقبلها منهم.

قضاء المصالح.. فالخشوع سبب فى جلب الرزق ودفع الضر والفوز بالخير والبعد عن السوء والشر. ذلك لأن الخاشع حين يرفع يده بطلب منه - سبحانه وتعالى - فإنه يكون ذليلا ضعيفا راجيا خائفا يبرأ من حوله وقوته إلى مدد الله وقدرته. ولن يضن الله بنعمة أبدا على عبد دعاه بمثل هذا الخشوع والانكسار. قال تعالى حاكيا عن نبيه زكريا فى سورة الأنبياء الذى طلب منه الذرية الصالحة فاستجاب له ربه:**{إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}**. فقد عللت الآية سبب الإيجاب وهو أنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعون ربهم بالخوف والرجاء وكانوا خاشعين له. وإذا كان الله قد ختم بهذه الآيات الحديث عن قصة زكريا - عليه السلام - فإنه ليس من المستبعد أن يكون الوصف أيضا راجعا إلى من سبقه ذكرهم من إخوانه الأنبياء الذين دعوا الله فاستجاب لهم فى نفس السورة كأيوب الذى دعا بالصحة والعافية. ويونس الذى دعا بالرحمة والمغفرة. ويكون الله قد حقق رغباتهم بسبب الخشوع... والله أعلم.

---

(١) سورة البقرة. الآيتان (٤٥، ٤٦).

٣- البعد عن الشيطان... قال سهل: من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان. فالشيطان لـه مهمة محددة فى هذه الحياة وهى إغواء الإنسان والوسوسة لـه بالشر. وهذه الوسوسة تجعل الإنسان مشتتا فهو يفكر فى المال والجاه والمنصب. وهو تارة يفكر فى الغضب والانتقام ومعاداة الآخرين. وتارة يميل إلى المجون والعبث والانحلال وهكذا. فهو مشتت بين أهوائه ورغباته فتراه قلقا حيرانا بائسا.

أما الخاشع لله فإنه قد أفرغ قلبه من الدنيا وشواغلها. بل استحقرها وقمئها وذاب قلبه خشوعا لله ولعظمته ولقدرته وانشغل بالله. وهل للشيطان سلطان على قلب لـه من الإيمان والتقى مثل قلب هذا الخاشع؟ قال تعالى:**{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}**.

٤- أعد الله للخاشعين من جزيل الفضل ونعيم الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر أعد الله مغفرة ذنوبهم والرحمة بهم. والجنة تفتح أبوابها لاستقبالهم وهى هاشة باشة مرحبة مسرورة. قال تعالى:**{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً}** [١] . ولأن للخشوع كل هذا القدر الكبير فإنه - سبحانه وتعالى - سيمنعه عند اقتراب الساعة من أقوام لن يقدروه حق قدره. قال حذيفة بن اليمان: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع. وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة. ورب مصل لا خير فيه ويوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعا. ولاشك أن نزع الله لخلق الخشوع من قلوب هؤلاء القوم دليل على مقته لهم وغضبه عليهم. وقد خاب وخسر من فسق عن أمر ربه وتكبر عليه واستهان بدينه. وسيأبى الله إلا أن يجعلهم خاشعين إن أبوا ذلك فى الدنيا فسيخشعون فى الآخرة. ولكن من ذلك الحساب وهوان المصير وسوء المنقلب والخزى والندم. قال تعالى:**{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}**.

* * * * *

---

(١) سورة الأحزاب. الآية رقم (٣٥).

الفهـرس

* * * * *